الوحدة الوطنية الفلسطينية
معضلة أم مشكلة قابلة للحل ؟

١ – عرض المشكلة .
٢ – تقييم للتجربة العملية .
٣ – تعليق ومقترحات للمستقبل .

د . حسام الخطيب

القسم الأول : عرض المشكلة

أهمية الوحدة الوطنية

ان الوحدة الوطنية شرط لا بد منه لنجاح حركات التحرر الوطني . ولم يسجل التاريخ المعاصر ان هناك اية حركة ثورية استطاعت ان تتقدم باتجاه تحقيق اهدافها وهي منقسمة على نفسها مبعثرة الاتجاهات ، وكل الثورات التي احرزت النصر انما احرزته بعد ان وحدت صفوفها وواجهت العدو ببرنامج سياسي مشترك وبشكل تنظيمي يتيح لجميع قوى الثورة ان تتحرك كمجموعة حية متماسكة .

وبالنسبة للثورة الفلسطينية بوجه خاص تتضاعف اهمية هـذا الشرط الحيوي لعدة عوامل اهمها :

١ ـ انحداد الطاقة البشرية للشعب الفلسطيني الذي لا يتجاوز تعداده مليونين وثلاثة أرباع المليون. صحيح ان تعداد العدو الاسرائيلي اليوم لا يتجاوز هذا الرقم بكثير ، الا ان رافد الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة يبقي المجال مفتوحاً امام العدو لاحراز تفوق عددي من الصعب التنبؤ بنسبته في الوقت الحاضر ، اذ ان هذا التفوق يخضع لظروف سياسية محلية ودولية معقدة .

ومن الواضح ان تعريب القضية بالمفهوم القومي العربي على أسس شعبية سليمة هو المخرج الأساسي الكفيل بقلب الميزان العددي رأساً على عقب ، ويجب ان لا تخدعنا تجربة العقدين الماضيين التي اقتصرت فيها معالجة القضية الفلسطينية على الاطار الرسمي العربي وكانت نتائجها في منتهى السلبية .

٢ ـ ضخامة التحدي الذي يواجه الشعب الفلسطيني . فمعظم حركات التحرر الوطني كانت تجابه جيشاً أجنبياً أو نظام حكم عميل أو كليهما ، وخصوصية الوضع الفلسطيني تنتج عن طبيعة العدو الصهيوني الذي أقام دولة في أرض فلسطين واستقدم اليها المهاجرين ، وكثير من هؤلاء ولا سيما من المولدين (سابرا) لم يعد لديهم خيار سوى التشبث بالارض التي اغتصبوها ، ثم ان الكيان الصهيوني في فلسطين مدعوم بملايين اليهود من مجندي الصهيونية المنتشرين في مختلف بقاع العالم. وبسبب ارتباط الكيان الصهيوني بالامبريالية ، يجب ان نفهم مواجهة اسرائيل على انها مواجهة للجبهة الامبريالية بكاملها . والحقيقة ان هذا الوضع يضع أمام الثورة الفلسطينية مسؤوليات على مستوى هو حتماً أكبر من طاقاتها بما لا يقاس، ولكي تكون المقارنة صحيحة يجب ان نضع في حسابنا ان الثورة الفلسطينية

ايضاً تستند الى الوطن العربي بموارده العظيمة وطاقته البشرية الهائلة ، كما أن الثورة أخذت بالتدريج تقوي أواصرها مع حركات التحرر الوطني العالمية والمعسكر الاشتراكي والقوى المناهضة للاستعمار، وهي ، من هذه الزاوية ، في موقف غير ضعيف . وغني عن القول ان عاملي الاطار القومي العربي والاطار التحرري على النطاق الدولي لا يمكن ان يكون لهما الوزن المطلوب اذا بقي الشعب الفلسطيني نفسه مشتت الارادة وموزع الجهود بين فئات متصارعة ، وبدون توحيد الجهد الفلسطيني تظل الفائدة من هذين العاملين محدودة جداً .

صعوبات الوحدة الوطنية الفلسطينية

إلا أن تحقيق الوحدة الوطنية في شعب كالشعب الفلسطيني ليس بالسهولة التي يتصورها كثير من الناس . وقد ثبت حتى الآن ان مواجهة التحدي الضخم المشترك لم تكن عاملاً كافياً للتوحيد . ذلك ان هناك ظروفاً موضوعية وعوامل تاريخية تباعد بين فئات هذا الشعب وتحول دون اجتماع كلمتها ، وما الواقع الحالي من التشتت والانقسام و كثرة عدد التنظيمات والاتجاهات الا محصلة طبيعية لظروف التشتت الفلسطيني، فقد ابتدأ هذا التشتت منذ سنة ١٩٤٨ ولما ينته بعد. وخلال السنوات التي اعقبت الكارثة نشأ جيل فلسطيني جديد تعلم في مدارس الدول المضيفة عربية كانت أو غير عربية واكتسب لونها المحلي وتطبع بطابع ثقافتها السياسية والاجتماعية ، ثم ان اللاجئين الفلسطينيين الذين مارسوا الحياة وكسب الرزق في الأقطار المختلفة اصبحت لهم ارتباطات ومصالح محلية لايمكن الاستهانة بها ابداً ، وربما كانت (العودة) ازاء هذه المصالح اهتماماً من الدرجة الثانية ولا سيما بالنسبة للبرجوازية الصغيرة وما فوق (أما بالنسبة لجماهير اللاجئين فلا شك ان العودة هي المصلحة الأولى والقضية الأساسية) .

وهكذا حين اتيح للفلسطينيين أن يلتقوا بعد هزيمة حزيران تحت راية العمل التحرري كانوا في الواقع يمثلون مصالح وثقافات ومفهومات غير متطابقة وتحتاج الى شيء من الوقت لكي تتفاعل ، وقد عكست هذه المفهومات في قليل أو كثير الاتجاهات المتضاربة التي تمزق الواقع العربي وبعض هذه الاتجاهات لم تتم تسويتها حتى الآن ولو على سبيل مصالحات مرحلية .

اتجاهات متداخلة سياسية واجتماعية

والباحث الموضوعي لايمكن ان يستهين بالتضارب القائم بين هذه الاتجاهات ، لان نظرة تحليلية بسيطة تظهر ان كثيراً من هذه الاتجاهات مستند الى عوامل طبقية ومصالح حياتية ليس من السهل تجاوزها ، فالخريطة البشرية للشعب الفلسطيني من منظور الشعور بالنكبة والرغبة في التحرير متباينة جداً ، اذ انه بالاضافة الى التقسيمات الطبقية المألوفة في المجتمعات الآخذة في التطور هناك تقسيمات ناتجة عن التشتت وظروف النكبة وهي ذات اهمية نوعية من منظور التحرير وتكاد تطغى على الفروق الطبقية العادية لأن الفروق الطبقية العادية في الوضع الحالي للشعب الفلسطيني في المنفى لاتتضمن بالضرورة مفهوم الصراع الطبقي ، اذ ان علاقات الانتاج غير متوافرة دائماً بين البرجوازية الفلسطينية والطبقات الفلسطينية الاخرى ، والطبقة العاملة الفلسطينية في المنفى غير مستغلة مباشرة من قبل البرجوازية الفلسطينية بل من قبل حليفتها البرجوازية العربية مما يضع هذه الطبقة امام حالة من النضال المزدوج بما لايتوافر فيها تطابق منظور بين النضال النقابي والنضال الوطني .

اذاً لقد احدث التشتت تقسيمات اجتماعية جديدة تقاطعت مع التقسيمات الطبقية المألوفة وزادت الأمر تعقيداً . ان الشعب العربي الفلسطيني في الواقع ينقسم الى ثلاث فئات ذات ظروف مختلفة اختلافاً واضحاً . **الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، والشعب الفلسطيني في المنفى ، والشعب الفلسطيني في الاردن.**

وتتباين ظروف كل فئة من هذه الفئات تبايناً شديداً ، فالشعب الفلسطيني تحت الاحتلال فئتان واضحتان تماماً ، فهناك الأقلية العربية في اسرائيل التي لايتجاوز عددها (٣٠٠) الف نسمة وتحمل الجنسية الاسرائيلية ولها حقوق مواطنة غير كاملة، وهناك مليون ونيّف من الفلسطينيين سكان الارض المحتلة بعد ١٩٦٧ وهم يتفاوتون أيضاً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية. ففي حين تتمتع الضفة الغربية بفعل عوامل عديدة سياسية واقتصادية برخاء نسبي يعاني قطاع غزة من البؤس الاجتماعي والفقر المدقع والتنكيل المستمر على يد قوات الاحتلال .

وبالنسبة لفلسطينيي المنفى يمكن أن نميز تقسيمات واضحة اهمهـــا الفلسطينيون المقيمون في الاقطار العربية واولئك المشتتون في اقطار اخرى من العالم تحت كل كوكب ، والفئة الأخيرة طبعاً أقل ارتباطاً بقضية التحرير من الناحية العملية حتى لو توافرت النوايا الفردية الطيبة . أما المقيمون في الأقطار العربيـــة فتختلف ظروفهم اختلافاً واضحاً ، ففي بلد كسورية مثلا اندمج الفلسطينيون بالمجتمع السوري و كفل لهم القانون والوعي القومي الشامل حقوق المواطن العادي و كانت فرص العمل السياسي متاحـــة لهم باستمرار في حدود الاوضاع السياسية القائمة ، وفي السنوات العشر الأخيرة تمتعوا بجو نادر من حرية النضال في سبيل قضيتهم . وبالمقابل نجد الفلسطينيين في بعض اقطار البترول مهددين يومياً بمورد رزقهم ومعرضين للطرد الفوري بمجرد قيامهم بأي تحرك سياسي مع العلم ان هناك اختلافاً في ظروف كل قطر على حدة .

وبوجه عام يمكن ان نقسم هذه الفئة الى قسمين :

آ - الفلسطينيون في الاقطار المجاورة للارض المحتلة .

ب - الفلسطينيون في الاقطار البترولية والأقطار العربية الاخرى .

اما في الاردن فهناك سكان المدن الذين اندمجوا اندماجا كاملا في المجتمع الفلسطيني الاردني وتقوم فيما بينهم علاقات طبقية لاتختلف كثيرا عن العلاقات

التي تحكم المجتمعات المتخلفة ، وهناك ايضا سكان المخيمات وهم يعانون حالة اجتماعية اقتصادية سياسية فريدة من نوعها ويمكن ان يعتبروا المعين الاساسي لقوى الثورة، وخلال تجربة السنوات الثلاث الماضية كان التزامهم بالعمل الثوري صلبا ومستمرا. ومن الطبيعي ان يتفرع عن هذه التقسيمات الاجتماعية والجغرافية تقسيمات سياسية(١) ومصلحية متعددة ، ويزيد الامر تعقيدا ارتباط مصالح فئات كبيرة من الشعب الفلسطيني بمصالح محلية في الاقطار العربية المختلفة وارتباط اتجاهات سياسية كثيرة ارتباطا مباشرا بهذه الجهة او تلك ، وكذلك وجود مصلحة عربية رسمية مباشرة في مواقع الثورة الفلسطينية ، ومعظم هذه المصالح اصبحت تتمتع بما يشبه حق (الفيتو) داخل العمل الفلسطيني ، مما يجعل التوصل الى اية صيغة ملزمة مهددا بنزعة هذه الجهة العربية او تلك ، وهي نزعات لاتتنافى مع الخط العام للتحرير ، ولكنها تطرح وجهات نظر لاتتفق احيانا مع الخط المرحلي للكفاح الفلسطيني ، ولا بد من التوفيق بينها وبين هذا الخط اذا كان للثورة ان تحتفظ لنفسها بحرية الحركة . وقد جرى عرض العوامل السابقة من باب التأكيد على صعوبة ايجاد صيغة فاعلة وملزمة للوحدة الوطنية من جهة ، وعلى ضرورة مراعاة هذه العوامل من جهة اخرى في كل محاولة لايجاد صيغ مصلحية وتنظيمية ونضالية مشتركة. الا ان هذا الامر يجب ان لا يعني - باي حال من الاحوال - استحالة تحقيق وحدة وطنية فعالة. والاعتبارات السابقة جميعا يجب ان لا تأخذ، كما هو قائم حاليا، حجما يفوق حجمها الطبيعي . وقد علمتنا تجارب الثورات ان اعتبارات اعقد من

---

(١) ليست هذه التقسيمات سوى خواطر مبدئية وتظل قيمتها غير مؤكدة الى ان تقوم دراسات احصائية اجتماعية تتيح للمرء درجة كافية من الدقة في اطلاق الاحكام . ومن فضول القول ان ننبه الى اهمية اجراء مثل هذه الدراسات ولاسيما في ظل الظروف الغامضة التي تحيط باوضاع الشعب الفلسطيني . اليس من المؤسف اننا لانملك حتى الآن احصاء علمياً عن عدد الفلسطينيين وعن نسب توزعهم ؟

هذه الاعتبارات يمكن التغلب عليها في مراحل الخطر ، وان مؤامرة السحق والابادة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني منذ حملة ايلول ١٩٧٠ بوجه خاص يجب ان تكون البوتقة التي تنصهر فيها مثل هذه الاعتبارات ذات الطبيعة غير الدائمة . لقد اصبح السؤال الذي يوجه الى الفلسطينيين من الجماهير الفلسطينية والعربية ومن الشعوب الصديقة هو : متى تتوحدون وإلام تستمر هذه التفرقة ، والعالم لايستطيع ان يفهم كيف يقبل شعب صغير مهدد بالابادة ان تظل قواه مبعثرة مبددة واحيانا كثيرة متضاربة ومتعادية . وقد اصبح حديث المنظمات المتعددة – وما بينها من فروق وخلافات – من الاحاديث التي تثير سخط شعبنا ونقمته ومن الحجج التي يختبىء وراءها الانهزاميون والعملاء . ان عوامل التفرقة التي سبق ذكرها ، مضافا اليها عوامل اخرى كثيرة تتذرع بها هذه الجهة او تلك ، لاتعدل اليها العامل التوحيدي الاكبر وهو وجود السيف الصهيوني الاستعماري المسلط فوق رقاب شعبنا والهادف لا الى مجرد الاستغلال والاستعباد بل الى ابادة تذكر بمصير الهنود الحمر(١) .

---

(١) في جميع اللقاءات الدولية التي شهدتها كان موضوع الوحدة الوطنية في رأس قائمة الموضوعات التي طرحها الاصدقاء والاعداء كذلك . وأذكر أنني قمت اثناء لقاء مع قيادة جمعية المحاربين القدماء اليوغسلاف في مدينة بلغراد (شباط ١٩٧١) بشرح الصعوبات التي تحول دون تحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية، وقد قوطعت اثناء حديثي اكثر من مرة وباسلوب احتجاجي مؤداه أن هذه الاعتبارات كلها لاتبرر التفرقة . وقد استعاد الاصدقاء اليوغسلاف في معرض تأكيد هذه النقطة ، ذكرياتهم عن الحرب العالمية الثانية واكدوا ان الشعوب اليوغسلافية استطاعت ايام المحنة ان تنسى مابينها من مشاكل تاريخية لتواجه العدو النازي مواجهة مشتركة .

محاولات على درب الوحدة الوطنية

محاولات ماقبل عام ١٩٧٠ يعتبر عام ١٩٧٠ عام المحاولات الجادة والمستمرة من اجل الوحدة الوطنية. أما المحاولات التي جرت قبل هذا التاريخ فقد كانت - على الرغم من اهميتها بالنسبة لتطور الثورة الفلسطينية - تتخذ طابع تحالفات ثنائية او ثلاثية في الغالب او شكل لقاءات شكلية هدفها الاساسي سلبي، وهو تفادي الاصطدامات الاعلامية بين المنظمات. ويبقى اهم مافي المحاولات التي سبقت عام ١٩٧٠ ، انها ادت الى اندماج عدد من المنظمات ، كما اشرنا عند الكلام عن المرحلة الثانية ، يضاف الى ذلك ان بعض مؤتمرات العمل الفدائي شهدت اللقاءات المشتركة الاولى بين القوى الفلسطينية التي تمزقت اوصالها خلال العقدين الذين اعقبا نكبة ١٩٤٨ ، ومن اهم هـذه المؤتمرات مؤتمر القاهرة بين (١٧ - ٢٠ / ١ / ١٩٦٨) الذي صدر عنه ميثاق عام يؤكد المبادىء الاساسية للعمل الفلسطيني ولم يتمخض عن اي شكل تنظيمي بالنسبة للوحدة الوطنية واتفق فيه على حصر النشاطات العسكرية للقوى المشتركة تحت اسمين هما (العاصفة) و (الصاعقة) فقط .

وقد كان اشتراك حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » وطلائع حرب التحرير الشعبية ، بالاضافـــة الى بعض القوى الاخرى ، في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع « تموز ١٩٦٨ » اهم التطورات التي سبقت محاولات عام ١٩٧٠ على درب الوحدة الوطنية . وقد انبثقت عن هذا المجلس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي القيادة السياسية لمؤسسات منظمة التحرير بما في ذلك

جيش التحرير الفلسطيني والقوات التابعة له[1] . وما لبثت اللجنة التنفيذية ان اتخذت بتاريخ ١٧ شباط ١٩٦٩ قراراً بتشكيل قيادة عسكرية باسم قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني ضمت اولا ممثلي قوات العاصفة (فتح) وقوات التحرير الشعبية (التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية) وقوات الصاعقة. ثم انضمت الى هذه القيادة بالتدريج معظم منظمات المقاومة وكانت العلاقات في الكفاح المسلح تقوم نظرياً على أساس التكافؤ .

وكانت هاتان الصيغتان (السياسية والعسكرية) مفرغتين من مضمونها افراغاً تاماً بالنسبة لقيادة الكفاح وتقريباً بالنسبة للجنة التنفيذية واتخذتا مجالاً للتندر حتى في كوادر المنظمات المشتركة فيها ، وكانت كل منظمة تتخذهما ذريعة لتغطية النواحي السلبية في العمل الفلسطيني، بل علقت اخطاء القيادات في المنظمات على كاهل هاتين الصيغتين الشكليتين وأوهمت كوادر المنظمات المشاركة في الصيغتين ان التراجعات والأخطاء ناجمة عن وجودهما وذلك بدلا من بذل الجهود لإنجاح هذه التجربة . وبالنسبة للجنة التنفيذية (القيادة السياسية المنظمة) كانت كل الأمور تقرر خارجها وكانت تدعى غالباً من اجل انتزاع موافقات شكلية على الأمور المقررة أو من أجل اعطاء طابع شرعي لمواقف المنظمات المشاركة وظلت الأمور بين المنظمات المشاركة تعالج بشكل ثنائي وخارج اطار اللجنة . اما قيادة الكفاح المسلح فقد اقتصر دورها على تلقي البيانات العسكرية من المنظمات واصدارها باسم قيادة الكفاح المسلح مع العلم ان معظم المنظمات كانت تلعب لعبة مزدوجة اذ كانت تصدر بيانات بالعمليات أو تسرب اخباراً متعلقة بالعمليات قبل ان تتولى قيادة الكفاح المسلح أصدار بيانها ، كما اتخذت قيادة الكفاح المسلح

---

(١) شاركت الجبهة الشعبية الديموقراطية في اللجنة التنفيذية في المجلس الوطني الفلسطيني السادس .

مسرحاً لفض المنازعات على العمليات بين المنظمات ولم يتح لها في أية مرحلة أن تقوم بدور تخطيطي او حتى تنسيقي بالنسبة للعمل العسكري . وقد اختلفت آراء المنظمات في تعليل هذا الأمر وتعرضت العلاقات بين المنظمات المشاركة لأزمات متعاقبة . ومع ذلك يمكن القول ان تجارب الوحدة الوطنية الفلسطينية بدأت من الصفر وواجهت عقبات مستمرة، ولم يكن منتظراً في المرحلة الثانية ، مرحلة المد الكمي لقوى الثورة، أن تتحقق أية صيغ فعالة. والحق ان الامتحان الحقيقي واجه الثورة ابتداء من مطلع ١٩٧٠، حيث بدا واضحاً ان وجود الثورة بجملته يتعرض للخطر ، وان بناء وحدة وطنية سليمة هو الشرط الاساسي لمواجهة الخطر المحدق .

تجارب عام ١٩٧٠ وما بعدها

منذ مطلع عام ١٩٧٠ دخلت خطة السلطة الاردنية لتصفية الثورة دوراً عملياً ، اذ أخذت التحركات العسكرية طابع التحدي، وقام الجيش بمناورات كثيرة حول عمان استهدفت السيطرة على مداخل المدينة وكانت الجماهير الفلسطينية والعربية تضغط على قادة المنظمات لخلق صيغ للوحدة الوطنية أكثر فعالية وأشد تماسكاً من الصيغتين القائمتين آنذاك ، وهما اللجنة التنفيذية وقيادة الكفاح المسلح . وعلى أثر المصادمات المسلحة التي افتعلتها السلطة في العاشر من شباط ١٩٧٠ (ربما بغرض تجربة مقدرة القوات الثورية على الصمود) لم يجد قادة المنظمات بداً من الاجتماع والتداول في اسلوب الدفاع عن وجود الثورة ومواجهة تحديات مرحلة جديدة بدأت تطل بوادرها ، وكان الجميع يحسون بخطرها ، على تفاوت شديد في ذلك . وقد التقت جميع المنظمات العاملة تحت صيغة مبهمة هي (القيادة الموحدة) ولم تتفق حتى على التسمية فكانت هناك (القيادة الموحدة لحركة المقاومة الفلسطينية)

و (القيادة الموحدة لمنظمة التحرير الفلسطينية) وغالباً القيادة الموحدة فقط (١).
وقد احدث تشكيل القيادة الموحدة موجة من التفاؤل في أوساط المنظمات التي اعتبرتها خطوة الى الامام باتجاه الوحدة الوطنية . وقد كان لهذا التفاؤل ما يبرره نظراً للاعتبارات التالية :

١ — استطاعت هذه الصيغة للمرة الاولى في تاريخ المقاومة ، وربما ايضاً في تاريخ النضال الفلسطيني المعاصر ، ان تجمع كل القوى الفلسطينية العاملة . وكما يتضح من العرض السابق لعوامل الانقسام في الشعب الفلسطيني، يجب أن تعتبر أية صيغة جامعة لمختلف القوى مكسباً للحركة النضالية ولو اقتصرت وظيفتها على توفير اطار للحوار والتفاهم . وقد ترتب على هذه الصيغة اتفاق جميع القوى على الاشتراك في المجلس الوطني الفلسطيني وفي منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسات المنبثقة عنها ، والجدير بالذكر ان الاجتماع الذي تمخضت عنه القيادة الموحدة والذي عقد مساء يوم ١٠/٢/١٩٧٠ في مقر منظمة التحرير الفلسطينية في عمان ضم جميع ممثلي الاحزاب السياسية والاتحادات النقابية العمالية والمهنية والنسائية وعدداً من

---

(١) انظر مطالعات المنظمات المختلفة حول هذا الموضوع في « دليل حركة المقاومة الفلسطينية » ، حيث يستعمل الجميع مصطلح (القيادة الموحدة) فقط ، وقد انسحب هذا الالتباس على اسم اللجنة المركزية التي انبثقت عن القيادة الموحدة . خورشيد ، غازي : دليل حركة المقاومة الفلسطينية ، مركز الابحاث (م. ت. ف.) بيروت ، ١٩٧١ .

ومن امثلة البلبلة التي احدثها عدم الالتزام بالتسمية ان الكاتب الفرنسي جان جينيه الذي عاش أكثر من شهرين في عمان والقواعد خلال صيف ١٩٧٠ كان يعتقد بوجود اكثر من قيادة موحدة ولجنة مركزية ، وفي لقاء معه خلال أزمة ايلول تبين كاتب هذه السطور انه واقع في التباس من خلال التسميات المختلفة .

قادة الرأي العام المستقلين . وكان لذلك الاجتماع مغزاه العميق في تأكيد وحدة الشعب والتفافه حول الثورة الفلسطينية .

٢ - استبشرت معظم المنظمات بمبدأ العلاقة الجبهوية في القيادة الموحدة واعتبرت هذا المبدأ خطوة في طريق تصحيح المسيرة .

٣ - تمثل في الاجتماعات الاولى للقيادة الموحدة اتجاه واضح نحو النقد الذاتي وطرحت نقاط هذا النقد على الجماهير .

٤ - اتفق على بعض النقاط السياسية بالاجماع ، ربما للمرة الاولى أيضاً في تاريخ المسيرة .

٥ - لم تقف صيغة القيادة الموحدة عند مستوى الاشتراك بين القيادات، بل تجاوزتها للمرة الأولى إلى المباشرة في تشكيل لجان التنسيق على مستويات مختلفة من العمل كان من شأنها لو أتيحت لها فرصة التطبيق الصحيح أن تعم التجربة خلال كوادر المنظمات وكذلك في أوساط الجماهير المساندة للثورة .

ومن الحق أن نذكر أن القيادة الموحدة بدأت بداءة جيدة، واستطاعت أن تحقق الحد الادنى من الممارسة المشتركة خلال فترات التأزم . وقد أسفرت اجتماعاتها المتواصلة عن بيان ٦/٥/١٩٧٠ الذي أرسى بعض النقاط الأساسية للقاء من الناحيتين السياسية والتنظيمية ، وأهمها :

١) اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها إطاراً عريضاً للوحدة الوطنية تشارك فيه جميع فصائل الثورة .

٢) إنشاء لجنة مركزية تضم جميع أطراف العمل الفلسطيني .

٣) وحدة الشعب في الساحة الأردنية .

٤) الالتزام بالقضايا المتفق عليها والقضايا التي تمس أمن الثورة ، والقضايا التي لم يتفق عليها يمارسها كل فصيل ضمن رؤيته لها ، .

٤) الارض العربية المحيطة باسرائيل هي ميدان مشروع للنضال الفلسطيني مع تأكيد استقلال الثورة عن الانظمة وصلتها بالجماهير العربية .

وبتاريخ ٣٠/٥/١٩٧٠ اجتمع المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة وأقر بيان ٥/٦/١٩٧٠ كما أقر انتشار صيغة جديدة للقيادة السياسية والعسكرية هي: اللجنة المركزية التي تتألف من مندوبي جميع المنظمات بالاضافة الى أعضاء اللجنة التنفيذية وثلاثة من المستقلين ورئيس المجلس الوطني الفلسطيني وقائد جيش التحرير الفلسطيني . وقد وردت صلاحيات اللجنة بصيغ مبهمة جداً، وربط مبدأ الالتزام بمسألة النظام الداخلي للجنة ، كما أن العدد الرقمي للجنة لم يحدد .

ومن الناحية النظرية الصرف أتت اللجنة المركزية جبهة لجميع القوى، كما أنها قامت على أساس العلاقات المتكافئة، ومثلت تجاوزاً للمجلس الوطني الفلسطيني وربما لميثاقه من ثلاث نواح على الاقل :

الأولى : ان القرار نص على انشائها وفق بيان ٦/٦/١٩٧٠ الصادر عن تجمع يختلف تماماً عن المجلس (تجمع فلسطيني اردني قتالي وشعبي) .

الثاني : اللجنة غير منتخبة من المجلس الوطني بل ليس هناك ما ينص على ضرورة موافقة المجلس على تسمية أعضائها .

الثالثة : يعفي القرار أيضاً أعضاء اللجنة المركزية من شرط العضوية في المجلس الوطني الفلسطيني، وهو الشرط الذي يخضع له أعضاء اللجنة التنفيذية. ومعنى ذلك أنه لا يشترط في أعضاء اللجنة المركزية أن يكونوا من الفلسطينيين ،

وبذلك حلت مشكلة القيادات العربية في منظمة التحرير الفلسطينية . وكانت هذه المسألة مثار جدل واسع بين فريق حريص على التمسك بميثاق المنظمة، وفريق آخر يرى تجاوز الطابع الفلسطيني للثورة .

تجربة اللجنة المركزية

وتمشياً مع روح الدراسة الحالية التي تلح على التطورات العملية أكثر من الصيغ النظرية يمكن أن تلخص تجربة اللجنة المركزية بالنقاط التالية :

١ - كانت اللجنة المركزية خطوة الى الامام في طريق الوحدة الوطنية من حيث أنها جمعت القوى المختلفة في صيغة قيادية ذات طابع شرعي .

٢ - تولت اللجنة المركزية قيادة العمل الفلسطيني ابتداء من منتصف عام ١٩٧٠ حتى شهر آذار ١٩٧١، وتعرضت لاقسى محنة مرت بالعمل الفلسطيني. وهي التي قامت بعقد اتفاقية القاهرة وبروتوكول عمان وغيرها من الاتفاقات مع السلطة الاردنية ، وبذلك يمكن القول ان جميع المنظمات بلا استثناء شاركت في مسؤولية أحداث الاردن الاخيرة وتطوراتها .

٣ - تداخلت صلاحيات اللجنتين التنفيذية والمركزية تداخلاً شديداً سبب ارتباكاً في أجهزة المنظمة وفي العمل السياسي عامة .

٤ - تنضوي تجربة اللجنة المركزية تحت ظاهرتين عانى منها العمل الفلسطيني باستمرار هما ظاهرة افراغ الصيغ من مضمونها ، وظاهرة التنصل من العمل المشترك . وقد ساعدت طبيعة تركيب اللجنة وضخامة عددها على اضاعة حلقة المسؤولية فيها ، وسرعان ما تحولت اللجنة المركزية الى ما يشبه

---

(١) وهما ظاهرتان متأصلتان أيضاً على مستوى العمل السياسي العربي .

دفع اي ثمن وكانت النتيجة تجربة تذكر من نواح كثيرة بتجربة الجامعة العربية.
وفي دورة الانعقاد الثامنة للمجلس الوطني الفلسطيني (آذار ١٩٧١) ظهر جليا التضارب بين صلاحيات ومهات اللجنة المركزية واللجنة التنفيذية وبدا تماما أن المسؤولية ضائعة بين الصيغتين القياديتين ، ولم يكن في مقدور المجلس ان يحاسب ايا منهما ، او حتى يستفسر عن نقاط معينة . ومن الناحية الشكلية الصرف لم يقدم للمجلس الوطني اي تقرير عن الفترة الواقعة بين دورتي انعقاده السابعة والثامنة ، مع أن هذه الفترة تعتبر احرج واخطر مرحلة مرت بها الثورة الفلسطينية حتى يومنا هذا :

١ - في هذه الفترة تمت مجزرة ايلول وما تبعها من تصفية مواقع الثورة واحداً بعد الآخر حتى انحصر الوجود الفدائي في بعض المناطق المطوقة في الشمال الاردني .

٢ - في هذه الفترة جرت سلسلة من المفاوضات بين اللجنة المركزية والحكومة الاردنية اثارت جدلا عنيفا بين قيادات الثورة ونقمة وغليانا في صفوف المقاتلين الذين رأوا فيها - غير محقين دائماً - وسيلة للتغطية على فظائع السلطة ومخططاتها .

٣ - في هذه الفترة بلغت الوساطة العربية أوجها ، ونجم عن مؤتمر الملوك والرؤساء في القاهرة اتفاقية القاهرة وبروتوكول عمان التابع لها . كما مارست لجنة المتابعة العربية مهات مباشرة على الساحة الاردنية ، وكان لهذه المشاركة العربية معنى سياسي غاية في الاهمية وأثر في التطور الفعلي للامور في الساحة الاردنية .

واذا كانت هذه الفترة مصيرية بالنسبة لحياة الثورة ومستقبلها ، ومع ذلك لم تقدم اي من اللجنتين المركزية والتنفيذية تقريرا للمجلس ، وتصدى سكرتير

امانة سر اللجنة المركزية لتقديم تقرير شخصي عن الاحداث تضمن نظرة شخصية جداً أثارت صخباً ونزاعا .

عودة الى اللجنة التنفيذية

وازاء هذه المعضلة وانطلاقا من طريقة المحاولة والخطأ ونتيجة لعجز المجلس عن اختيار صيغة قيادية جديدة، ردت استقالة اللجنة التنفيذية التي كانت مدتها القانونية قد انتهت.

وكلفت هـــذه اللجنة بمهمتين من أصعب المهمات ، كما اغفلت الاشارة الى اللجنة المركزية وطبيعة عملها في المدة الانتقالية التي منحها المجلس للقيادة وهي ثلاثة أشهر. ولا بد من الوقوف قليلا عند هاتين المهمتين، لانهما تتصلان اتصالا مباشرا بمحاولات الوحدة الوطنية .

المهمة الاولى : تشكيل مجلس وطني جديد يجتمع في مدة اقصاها ٣٠ حزيران ١٩٧١ ، مع الاخذ بعين الاعتبار العلاقات الجيوبة في الوحدة الوطنية وأن يتم اختيار الاعضاء من :

١ – ممثلي القوى المقاتلة .

٢ – مندوبي النقابات والاتحادات المهنية والمنظمات الجماهيرية .

٣ – اصحاب الكفاءات الفكرية والاختصاصية الملتزمين بالثورة .

على أن يراعى التمثيل الجغرافي للفلسطينيين قدر الإمكان ، وأن يشترط في العضو الالتزام بالميثاق الوطني الفلسطيني .

المهمة الثانية : تطبيق البرنامج السياسي والهيكل التنظيمي للوحدة الوطنية . أما البرنامج السياسي فكان أول برنامج في تاريخ الحركة الفلسطينية تقره جميع فصائل الثورة دون استثناء. على أن تسميته بالبرنامج السياسي كانت تحمل تجاوزاً واضحاً لمفهوم البرامج السياسية ، ولم يكن في الحقيقة سوى بعض

نقاط سياسية متفرقة تحمل مضموناً أكثر قومية من الميثاق الوطني الفلسطيني ولكنها تعاني من سوء الصياغة وضعف الترتيب الفكري . وعلى أي حال ، كان هذا البرنامج خطوة إلى أمام. وجرى تجاوز العقبات التي اعترضت اقراره، بفضل جرأة مقدميه واصرارهم . أما الهيكل التنظيمي فهو مشروع لتجسيد الوحدة الوطنية في أطر تنظيمية، ولا سيما من الناحية العسكرية . وقد طرح الهيكل على المجلس ، الا أن المجلس لم يتخذ قراراً نهائياً بشأن بعض نقاطه التي أثارت خلافاً شديداً . وانتهى الامر باحالته إلى اللجنة التنفيذية ، لتطبيقه بالاتفاق مع ممثلي فصائل الثورة .

وبالنسبة للمهمة الثانية - وهي بيت القصيد - لم تصب اللجنة التنفيذية نجاحاً يذكر في تنفيذ التوحيد العسكري وظلت المهمة في حدود التنسيق والتعاون . وفي دورة انعقاد المجلس الوطني التاسع (٧ - ١٣ تموز ١٩٧١ - القاهرة) أعيد التأكيد على وجوب تطبيق الهيكل التنظيمي ، وطلب إلى اللجنة التنفيذية العمل على تنفيذه ، بعد أن أدخلت عليه اللجنة العسكرية بعض التعديلات التنظيمية التي لا تمس الجوهر . وظهر واضحاً أن مسألة الوحدة العسكرية ستظل في باب العموميات ، التي لا يقصد بها التطبيق .

أما بالنسبة للمهمة الأولى ، فقد عملت اللجنة التنفيذية على تأديتها بروح ديموقراطية يجب أن ينوه بها حين يكتب تاريخ المجالس الوطنية . إذ تم أولاً استقصاء آراء التجمعات والهيئات الفلسطينية ؛ ثم جرت مفاوضات عسيرة ومضنية من أجل ضم جميع فصائل الثورة إلى المجلس ، وتكللت هذه الجهود بالنجاح . ودخلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وجبهة التحرير العربية بعضوية كاملة إلى المجلس ،

كما تم اختيار عدد لا بأس به من ممثلي الاتجاهات المعارضة المؤسسة القائمة وممن كان لهم موقف نقدي حاد من قيادة الثورة وربما من اتجاهها العام .

المجلس التاسع واللجنة التنفيذية الجديدة

وحين اجتمع المجلس الوطني الفلسطيني في دورته التاسعة، كان واضحاً أن جميع الاتجاهات والآراء ممثلة فيه . وقد دارت فيه مناقشات مهمة، كما تبين وجود هامش كبير من سوء التفاهم بين الأطراف المختلفة ساهم الحوار الديمقراطي في تبديد جزء كبير منه. إلا أن الهوة ظلت قائمة، وأدت مناقشات لجنة الوحدة الوطنية المنبثقة عن المجلس ومداولاتها إلى عكس ما كان ينتظر منها . فبدلا من أن يكون اجتماع الأطراف المختلفة وتفاهمها سبيلا إلى وضع خطة توحيدية أكثر الزاما وفعالية، تبين أن ممثلي المنظمات اتفقوا فيما بينهم على التهرب من الصيغ التنظيمية الملزمة وانتهوا الى مشروع مهلهل للوحدة الوطنية يكرس التعددية وتأخذ العلاقات فيه طابعاً لا يختلف كثيراً عن طابع العلاقات بين دول الجامعة العربية . وقد أثار هذا المشروع – وهو خطوة واضحة إلى الوراء – سخطاً واستنكاراً في المجلس المؤلف معظمه من عناصر المنظمات. وانتهى الأمر برد المشروع واتخاذ القرار التالي:

« رد توصيات لجنة الوحدة الوطنية والاستعاضة عنها بالبرنامج السياسي والهيكل التنظيمي الذي أقره المجلس في دورته الثامنة ، وطلب المجلس من اللجنة التنفيذية القادمة تطبيق البرنامج السياسي بحرفيته ، كما طلب اليها الغاء كل المؤسسات والمظاهر التي تتنافى والوحدة الوطنية ، او التي تثبت التعدد وذلك بشكل فوري[1] » .

---

(١) منظمة التحرير الفلسطينية المجلس الفلسطيني ، الدورة التاسعة ، ص ١٥ .

وكان هذا التصرف من مجلس تتألف أكثريته الساحقة من ممثلي المنظمات أو من أنصارها من المستقلين يعني شيئاً واحداً، وهو ان القيادات مازالت عاجزة عن كسر طوق عدم الثقة أو عن تجاوز ارتباطات معينة في سبيل تحقيق المطلب الجماهيري الوطني الاول وهو تحقيق الوحدة الوطنية .

وقد تم في المجلس التاسع اقرار اختيار لجنة تنفيذية جديدة تمثلت فيها لأول مرة في تاريخ هذه المؤسسة المنظمات الرئيسية العاملة وهي :

- حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ، وطلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة)، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية الديمقراطية، وجبهة التحرير العربية ، وجبهة النضال الشعبي(١) .

وانخفض تمثيل المستقلين في هذه اللجنة الى حد لا يذكر . وهذا يعني ان المنظمات تتولى الآن قيادة المرحلة الحالية بشكل مباشر ومطلق، وبالتضامن القيادي فيما بينها . ومن الناحية النظرية العرف يفترض أن يسهل هذا العمل اجراءات تنفيذ هيكل التوحيد التنظيمي، وأن يفسح المجال أمام ضبط العمل الفلسطيني والتخطيط له وتخليته من الشاذ والشوائب. الا ان المراقب المطلع على تطور العلاقات بين المنظمات وارتباطاتها المتزايدة بالانظمة العربية، لا يستطيع أن يفسح مجالاً كبيراً للتفاؤل بتحقيق التفاعل المنشود . وتظل مبررة وواردة خشيته من ان ستخدم هذا اللقاء القيادي في السقف تغطية لعجز الثورة عن الانتقال من مرحلة النمو الكمي التراكمي التجميعي الى النمو النوعي المنظم ، في مجال الوحدة الوطنية كما في مجال النشاطات الأخرى للثورة.

---

(١) لم يمارس ممثل هذه الجبهة الاستاذ بهجت ابو غربية عضويته في اللجنة التنفيذية، وقد اختير على اساس أنه من المستقلين .

القسم الثاني : تقييم عام للتجربة

ان حديث الوحدة الوطنية غزير ومتشابك ومتعدد الوجوه. وقد انتظم الصفحات السابقة حرص على تناول خط تطور المحاولات العملية على درب الوحدة الوطنية ، وكان التصريح على الصيغ النظرية موجها من اجل ايضاح التطور العملي ، ومن فضول القول ان ننبه الى ان المعالجة السابقة تتضمن تكثيفاً مركزاً لمادة واسعة ومتشعبة لم يكن عملا سهلا على الاطلاق انتقاء الخطوط البارزة فيها وابراز معناها الجوهري بالنسبة لمجمل التجربة . وفيما يلي تلخيص لأهم هذه الخطوط :

١ ـ كان امتحان الوحدة الوطنية اصعب امتحان واجه الحركة الثورية الفلسطينية ، وذلك بسبب تشتت الشعب الفلسطيني واختلاف ظروفه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى بدا احيانا ان محاولة الوحدة الوطنية تتضمن موقفا شبه (سيزيفي) مادام المطلوب هو خلق ثورة موحدة لشعب غير موحد . ومن هنا كان الشرط الاساسي للوحدة الوطنية ، والذي اغفلته الثورة ، اعادة تشكيل الشعب الفلسطيني عن طريق التوعية السياسية المشتركة والتنظيم الشعبي الشامل .

٢ ـ على انه في مقابل الانقسامات التي تمزق الشعب الفلسطيني، يجابه هذا الشعب ولا سيا في المرحلة الراهنة ، تحديات مصيرية مرعبـــة تتعلق بوجوده واستمراره لابوجود ثورته فحسب ، ومن المعروف انه حين تصبح المسألة بالنسبة للشعوب الحية مسألة « ان تكون او ان لا تكون » فان الفروق والخلافات تذوب ـ ولو مؤقتاً ـ امام التحدي الاكبر . ولكن تصرف فرقاء الثورة ـ حتى خلال احلك الأزمات ـ لايشير الى اتجاه جدي للتجاوز . فعلى الرغم من جميع المحاولات المبذولة، وعلى الرغم من عمق مأساة الاردن، وعلى الرغم من اعتراف الجميع

بهول الأخطار التي تهدد الشعب الفلسطيني ، وعلى الرغم من الانهيار الفعلي لعدد من المنظمات بعد احداث الاردن، وعلى الرغم من الفرص الكثيرة التي اتيحت للقاء بين المنظمات ، فان الثورة بمجموعها لم تتخذ حتى الآن خطوات فعالة في طريق الوحدة لتتيح لها ان تتحرك كجسم واحد لمواجهة مسؤولياتها . ذلك انه مهما قيل عن القيادة الواحدة واللقاء الجبهوي وهيئة الاركان المشتركة وغير ذلك من الصيغ، فان الامتحان الحقيقي يظل دائمـــاً قدرة الثورة على التحرك كجسم واحد وباتجاه واحد .

٣ - يظل خط التطور الوحدوي في الثورة مشابهاً الى حد غريب لخط المحاولات الوحدوية الرسمية ،فهناك تقدم مستمر في الصيغ النظرية وتطوير لهذه الصيغ في أشكال تنظيمية مطردة بصرف النظر عن فعاليتها الواقعية . أي أن الانتقال من صيغة إلى صيغة لا يتم على أساس البنـــاء المتدرج لحصيلة التجربة الواقعية، بل على أساس تطوير الاشكال الخارجية والقيادية . وهذا الامر يطرح مسألة الارتباط الفلسطيني بالوضع العربي الرسمي، ولا سيا في المرحلة الحالية التي شهدت ضعف الحركة الفلسطينية بمجملها أمام الانظمة . وهناك ما يسوغ المخاوف التي تبديها جهات كثيرة من أن تنقلب اللجنة التنفيذية أو غيرها من الصيغ الى مجلس جامعة عربية على المستوى الفلسطيني .

غير أنه من الضروري التأكيد دائماً على أن العامل العربي في المسألة الفلسطينية سلاح ذو حدين، فهو يمكن أن يكون - بل يجب أن يكون - مصدر القوة والدعم الاساسي للثورة،وبدونه تبقى الثورة معلقة في الهواء . ولكنه أيضاً يمكن أن يخدم كعامل معيق ، ولا سيا في مجال كمجال الوحدة الوطنية الذي يعني سياسياً تحرير الارادة الفلسطينية وتحركها الموحد لتكون طليعة الثورة

العربيـة الشاملة . وهو حق ليس من السهل على المؤسسة السياسية العربية ان تقر به ، وأصعب من ذلك ان تتيح له المدى الحيوي للتحقق .

٤ - إن مسألة الوحدة الوطنية - على الرغم من كل ما تقدم - مسألة غير يائسة وهي تظل ممكنة اذا جرى اصرار على فهمها وتناولها من الزاوية الصحيحة. إن الوحدة الوطنية الفلسطينية لها معنى خاص ضمن الاطار العربي، وهي تعني بالضبط طليعية الشعب الفلسطيني وحريته في العمل السياسي والنضالي لحركة واحـدة لا كمجموع امتدادات للأوضاع العربية . ومثل هذه الوحدة تحتاج لشروط حيوية أهمها :

آ - اعادة تشكيل الشعب الفلسطيني بالتوعية السياسية المشتركة وبالتنظيم على أسس اجتماعية (النقابات المهنية والقطاعات الاجتماعية) لا على أساس الولاء للمنظمات فقط .

ب - أن تقوم الامتدادات العربية في الساحة الفلسطينية - وهي امتدادات مشروعة وطبيعية - بدور ضاغط على الجهات العربية المعنية من منظور الرؤية المشتركة لمسيرة الطليعية للثورة (بدلا من الدور الحالي المعكوس الذي تمارسه أكثر من منظمة واحدة) وهذا الامر ممكن وغير بعيد التحقيق . وقد علمتنا التجربة الماضية أن الممارسة الثورية هي الامتحان الحقيقي لقدرة هذه العناصر على القيام بدورها الصحيح، لأن الممارسة تضعها خارج دائرة التأثر والولاء المباشر وتقلبها الى عنصر فاعل ومؤثر .

٥ - يبدو ان الاطراف الفلسطينية المختلفة مصرة على الاسلوب الديمقراطي للوحدة الوطنية، وهو امر تمليه الظروف الموضوعية التي يعيشها الشعب الفلسطيني

كما ذكر رئيس اللجنة التنفيذية في تقريره الشفوي امام الدورة التاسعة للمجلس الوطني الفلسطيني [1] . ومثل هذا الاصرار يجب تغذيته والتشبث به ، مع فارق واحد هو التأكيد على عدم اساءة الاسلوب الديمقراطي بحيث يبدو ملجأ للتحلل من الالتزام وللتوفيقية وعدم الحزم وعدم المحاسبة . ان الاسلوب الديمقراطي يعني تحقيق اهداف التوحيد بوسائل غير عنفية ، ولكنه لا يعني اطلاق الحبل على الغارب وتمييع الصيغ والاحكام والعلاقات بحيث يصبح البعد عن العنف مرادفاً للبعد عن تحقيق الهدف .

القسم الثالث : مقترحات للانتقال الى صيغ فعالة

من خلال التحليل السابق للتجربة الثورية الفلسطينية ، تبين لنا ان التعدد كان عاملا رئيسياً من عوامل الاخفاق الذي منيت بـه الثورة . وقد رأينا ان التجارب ، التي نفذت حتى الآن على درب الوحدة الوطنية ، كانت ذات طابع تجميعي تلفيقي . ويمكن القول ان تجربة اللجنة التنفيذية الحاليـــة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، هي قمة هـــذا التجميع التلفيقي بما حوته من ممثلين عن جميع الاتجاهات الفلسطينية والعربية وبطبيعة العلاقات المبهمة التي تنتظم الفصائل المشتركة . ومن الصعب ان ينتظر المرء اي تطور ارقى من هذه الصيغة ضمن حدود الخط التطبيقي وانطلاقاً من هذه النقطة ، وانطلاقاً من ضرورات المرحلة التي - كما اتضح سابقاً - تحتم مجابهة التحدي القادم بموقف مشترك متراص قـائم على الالتزام والترابط ، فإن المطلوب حالياً هو تجاوز هذا الخط الى خط توحيدي اكثر فعالية من خلال الأسس التالية :

---

(١) منظمة التحرير الفلسطينية : المجلس الوطني الفلسطيني - الدورة التاسعة : ص١٢ .

١ - الاندماج بين المنظمات ذات الايديولوجية الواحدة ، وهو امتحان عسير آن الآوان لأن تخوضه المنظمات المعنية . هناك أكثر من منظمة تمثل الخط القومي العربي الاشتراكي، وأكثر من منظمة تمثل الخط الايديولوجي الماركسي . كما أن هناك منظمات تركز على الخط النضالي الاقليمي (الفلسطيني) . وإذا اتفق على ان قوى الثورة الفلسطينية يجب أن تواجه التحدي باعتبارها قوة طليعية موحدة متمايزة لا مجموعة امتدادات للقوى العاملة في الساحة العربية، فان علينا أن نلح على تنفيذ هذا الاندماج مع الاعتراف بالصعوبة القصوى لتنفيذه من جهة ومع الحرص على تناول مسألة التنفيذ بمرونة وتدرج من جهة أخرى .

٢ - اقامة علاقات واضحة موضوعية بين المنظمات التي يحول اختلاف برامجها الايديولوجية دون اندماجها بعضها في بعض ، وفي التصور النظري لعملية الاندماج ان يبقى هناك سوى ثلاث منظمات رئيسية تمثل اتجاهات نضالية كبرى أو تلتقي براجها المرحلية ضمن الخطوط الرئيسية لمفهوم مرحلة التحرر الوطني . وإذا وجدت اختلافات معينة في الرؤية المرحلية ، فانه لا يصح التعنت في ذلك واعتبار هذه الاختلافات اجتهادات في درب تحقيق الهدف . ومن هنا يمكن التفكير بأسلوب توزيع الأدوار في العمل ضمن حدود الخطوط المشتركة المرحلة ، على أن يقوم من خلف هذا الاتفاق تعاون وحماية متبادلة وتكامل بحيث تقوم كل منظمة بسد الثغرات والاحتياجات عند المنظمة الاخرى ، وهكذا دواليك . ويمكن الاستفادة في هذا المجال من تجربة توزع الأدوار في المنظمات الصهيونية في الاربعينات. مع مراعاة الفوارق العديدة نظرية وتطبيقاً .

٣ - تحديد موقف صارم مشترك من المنظمات الطفيلية التي ليس لها رصيد جماهيري ولا نشاط في الارض المحتلة ، او تلك التي تتبع اجهزة حكومية

رسمية في المنطقة العربية. ويبدو ان العنف يجب أن لا يستبعد في مجال الضغط على مثل تلك المنظمات، او دمجها في منظمات اخرى. واذا كان اسلوب التصفية العنفي في تحقيق الاندماج بين المنظمات القائمة مستبعد لما يترتب على ذلك من مخاطر قد تنسحب آثارها على الوجود الفلسطيني نفسه، فان هذا المبدأ لاينطبق على المنظمات الطفولية مادامت هذه المنظمات لا تستقي تأييدها ولا تسليحها ولا تمويلها من الجماهير او من صندوق الثورة الفلسطينية، ولا من استعمال جميع وسائل الضغط الممكنة لانهائها او اخضاعها لمقتضيات المسيرة الثورية.

أما بالنسبة للمنظمات التي تنشأ مجدداً، فان الأمر يختلف بعض الشيء. وعلى الرغم من وجوه اتفاق كامل بين المنظمات (اقره المجلس الوطني الفلسطيني) على منع ظهور اية منظمة جديدة في الساحة، فان المصلحة العامة تتطلب عدم اقفال الباب في وجه أي تحرك ثوري طازج ولا سيما بعد الهزائم التي لحقت بالتجربة الثورية الحاليـــة. ان المطلوب هو افساح المجال لأي تنظيم جديد يطرح رؤية جديدة، أما التنظيمات التي لاتمثل اتجاهات جديدة فيمكن مطالبتها بالاندماج مع المنظمات الرئيسية التي تماثلها فكرياً على أن لايتهاون أبداً بالنسبة للمنظمات الجديدة التي يثبت صدورها عن أجهزة حكومية.

٤ – حتى لايكون هذا الكلام كله معلقاً في الهواء يتفق على تحديد معايير معينة لضبط عمليتي التوحيد والتنسيق، وفي رأس هـــذه المعايير الاتفاق على قسط مشترك من التوعية السياسية الداخلية في كل منظمة وتوجيه القسم الأكبر من التوعية السياسية لموضوع تعبئة الشعب الفلسطيني باتجاه المعركة. وهذا الأمر غاية في الأهمية. فقد كان من أهم اسباب فشل تجربة الوحدة الوطنية حتى الآن انحراف التوعية السياسية الداخلية باتجاه الشحن الايديولوجي والانفعالي

غالباً ضد تيارات سياسية منافسة ضمن الحركة الفلسطينية او ضمن الاطار العربي. وقد حدث اكثر من مرة أن اتفقت منظمات معينة فيما بينها على مواقف مشتركة او خطوات تنسيقية ، ثم حدث ان التوجيه الداخلي في بعض هذه المنظمات كان يتبع خطاً معاكساً لما يتفق عليه. أما على المستوى الجماهيري ، فقد كان التسابق بين المنظمات يقوم على ادانة المنظمات الاخرى وتشويه مبادئها ومواقفها . ويرافق ذلك غالباً توجيهية في تقديم التنظيم المعني واتجاه مرضي الى التهوين من شأن المعركة مع العدو، بدلاً من اعداد الكوادر والمواطنين لنضال صعب طويل الأمد. وقد اتخذت هذه الظاهرة شكلاً تخريبياً (غير مقصود غالباً) في الخارج حيث انهمكت كل منظمة فلسطينية بتفنيد حجج المنظمات الاخرى وتسفيه منطقها الايديولوجي امام رأي عام اجنبي يجهل ابسط حقائق القضية الفلسطينية ،و كثيراً ما أدى ذلك الى نفور الاصدقاء وبلبلة مواقفهم .

وينبغي التركيز على هذا المعيار بالذات (تنسيق التوعية الداخلية والجماهيرية) لأن غيابه ظل يمثل حتى الآن عقبة في طريق الوحدة الوطنية ولأنه من الزاوية الايجابية معيار ملموس يمكن الاتفاق على نقاطه وحصرها ومراقبة تنفيذها .

شعر العودة

وطريقه إلى العالمية

أنطون مقدسي

هذا البحث فقرة من دراسة عن «شعر العودة» استدعتها عملية «تقنية» خالصة، هي المقارنة بين ترجمتين لمختارات من هذا الشعر وأصلها العربي: الواحدة، وضعها وقدم لها كاتب فرنسي، هو أوليفيه كاره تحت اسم (محمود درويش - قصائد فلسطينية - ازهار الدم) (١): والثانية، وضعها وقدم لها شاعر عربي من المغرب هو عبد اللطيف اللعبي، تحت اسم (شعر المعركة الفلسطيني، منتخبات من ثلاثة عشر شاعراً م: محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق الزياد (وفدوى طوقان وتسعة أخر) (٢) وكان أول ما استرعى انتباهي في الترجمتين هو أن

---

(1) M, Darwish . Poèmes palestiuiens - Les fleurs du soug Collection (Terres de feu) . Editions du Cerf . Paris 1970 Troduction olivier Carré .

(2) Abdellatif Laâbi . La poésie Palestinicnne de combΓt onthologic Editions Atlantes Cosablauca . Maroc - 1970 .EditionsOswald 1970 .

كلا منها تؤدي الأصل على طريقتها في بيان قد لا يقل أحياناً عن البيان العربي دقة ومتانة . وتساءلت عن سر هذا الشعر الذي رقي ، في بعض فقراته ، بالشعر العربي الى مستوى عالمي ، استدعى ترجمته ، لا الى الفرنسية وحسب ، بل الى الانكليزية أيضاً وربما الى غيرها . والبحث الذي اضعه الآن بين يدي القارىء هو المخصص للمقارنة بين الترجمة والاصل أقدمه تحية الى تاريخنا وهو يستعيد ، في معركة العودة، قدرته على القول ،تلك القدرة التي انطلق منها فكان تاريخاً انسانياً ، تعرفت فيه الانسانية ، يوماً الى ذاتها والى رسالتها .

وجد الانسان شعراً .

شعره موقعه من الوجود وموقفه منه .

فشعر أمة هو مقياس انسانيتها ، و قسمتها ، اقتطعت من الكل جزءاً يعبر عنه ويدل عليه .

أول الكلام شعر : ومعه ، دفعة واحدة ، وُلد الانسان وبدأ التاريخ معنى : في التاريخ يتفرد الانسان، وفي المعنى يستعيد الوجود ، فخصوصية الشعر بنسبة شموله ، وفرديته بنسبة كليته .

لو كان علي أن أعرّف الشعر ـ ولكن هل يُعرف الشعر ؟ ـ لو كان علي أن اعرفه لقلت انه نغم يؤالف بين حساسية وصورة ومعنى ، نغم يقول ، يقول ملحمة أمة ، هي صراعها مع الوجود تنشئه وينشئها مرة ولكل مرة .

في الموسيقا يذوب المعنى في الصورة ، و كأنه روح (تُرى ولا تُرى). أما في الشعر ، فيجمّع المعنى الصور من آفاق مختلفة ومتباعدة ، تصبح ظواهر هو قوامها ، ثم يجسم الكل في حساسية تتحول الى ايقاع ؟ يجمّعها ابعاداً حول

محور متحول ، هو غياب في حضور وحضور في غياب ، هو صمت فيه يتهادى النغم معنى لامتناهياً كالوجود الذي ينشد .

الشعر هو القول - ربما القول الوحيد - الذي يتخطى ذاته فيشق فسحة هي مرمى تطلع ، فيه يتعرّف المرء الى هويته القومية والانسانية . فالشاعر يرى الأشياء في سذاجة الطفل وبراءته ، يلمسها ، يشمها ، يذوقها ، يصغي الى انغامها ويسمع نشيدها ؛ فكأنه هو الذي يستلها من العدم . يؤنسنها ، يكثفها في آن تتلاقى فيه ابعاد الزمان ، وفي نقطة تتجمع فيها آفاق المكان ؛ وبذلك تتلاشى عطالتها وتتبخر فاذا بها تحيا معه وتنمو ، تنشد وترقص .

ربما أن الأقدمين لم يروا أن للكون روحاً الا لأن قولهم كان اسطورة وشعراً : الاسطورة تروي قصة نشوء المعنى ، نشوء الوجود نظاماً هو نظام المعنى ؛ والشعر يستعيد القصة لحناً فيخلق عالماً انسانياً يتخطى في فائض دلالته الانسان ، يحيل إلى عالم آخر يرتد الى هـذا العالم ليسمو به . فبالاسطورة والشعر انتصر الانسان على ثقالة المادة وعلى فوضى الغرائز ، انتصر على السديم كما ينتصر اليوم عليه بالعلم ؟ انتصر وما يزال . . . فالقول الذي يتخيل ينشد ، كالقول الذي يحلل ويصوغ القوانين ، كالسلاح الذي يقاوم ؛ كلها تستثير الطاقات الكامنة في الشعب ، وتبدعها فسحة نامية تمتص الدخيل ، تمتص الغرائز الهائجة فتخضعهـا لارادة التحرر .

* * *

لم يكن الشعر - يوم كنا شعراً - لم يكن « بسيطاً » ولا « معقداً » ، فالبسيط تبسيط من شأن النثر ، والتعقيد - وهو أيضاً نثر - من شأن العقول

المتردية . بل كان يقول ، يقول ما هو كما هو ، يقول حركة التطور الخلاق، ينمو معها وينميها معه . ذلك هو كلام التاريخ يحول الوجوب الى وجود والوجود الى وجوب ؛ وما تبقى تلفظه الحياة وتلقيه خارجها رماداً تذروه الرياح .

شعرنا اليوم المقلّد منه والمجدّد — يعيش على فتات ذلك القديم ، يعيده زخرفاً لفظياً ، أو يستدعيه ظلاً ، يشوه أكثر مما يبدع ، فيخفق في الحالتين ، تعوزه الشفافية ، يعوزه « البيان » : جسم لم تستقر فيه روح فتبعثه كائناً سوياً.

ذلك أن ما كان لا يمكن أن يكون . وانما استعادة القول هي ابداعه فسحة فيها يقرأ ما هو حاضر بحضور دائم ، يتخطى الصيرورة ليرتد اليها صيرورة جديدة هي استكمال ما يتكامل الى الأبد .

يوم كنا شعراً كنا معنى التاريخ ، و كنا عطاء .

يوم ذاك كان وجودنا نيراً ، لا « يعاني » الحدث بل ينشئه تطلعاً ويقرؤه دلالة ، أو عرفنا عصراً عانينا فيه ما نعاني اليوم ؟ لكننا — ويا أسفي — معاناة الطفيليات تعيش على فتات الجسم السليم، عالمها وقائع ، كالوقائع ، صماء لا تبدي ولا تعيد .

الحادثة ، كالواقعة ، قاهرة مستأثرة ، يعيشها المرء ويلتصق بها فتستبقيه عند حدودها ، بصره كفيف . أما الذي يقرأ الحدث فيستبعده افقاً امتداده بنسبة صفائه . فالذي يعرف العهر ليس العاهر ، بل الذي تحرر نظره من الدنس فأصبح صافياً ، يعكس بنسبة صفائه ، مفاصل الواقع ، لا يتقوم به « معاناة » بل يقوّمه معياراً ، إذ ان الواقع ليس في واقعيته ، بل في « صورته » ، تتأتى اليه ، لا منه ، بل من المعنى الذى هو قبله وبعده وفيه ، حيث يتحد ما انفصل في الزمان ، ويتقارب ما تباعد في المكان .

عندئذ يصبح القول شعراً، يقيس الوجود ، يقيسه طولاً وعرضاً وعمقاً، ويصبح الشعر فعلاً ومرمى : فعلاً يبني ومرمى يستقطب .

يوم كنا نقول ، كنا كذلك الارض نعمرها والتاريخ نصنعه ، و كنا نبين ، فالبيان ، هبة الرحمان للانسان ، يفتح أسرار الغيب جاعلاً من الارض سماء ومن السماء أراضين . يومها كان العربي عربياً ، عروبته بنسبة انسانيته ، فلا أرض ولا سماء ، لا جسد ولا روح ، بل إنسان بلء قامته الانسانية ، ولم نكن بحاجة الى مترجمين .

هذا البيان كان لنا كله ، مجاناً نأخذه ومجاناً نعطيه، ثم اغتصبه الدخيل ، اغتصبه وامعن ، اغتصبه فأصبح وجودنا ذكرى للعبرة وللتاريخ ، لا ذكراً يؤكد حضوراً في التاريخ .

فالسؤال المطروح علينا اليوم - العامل منا والكاتب ، الفلاح والمفكر ، السياسي والعالم ، كنا على حد سواء - السؤال الوحيد الذي يلخص ما مضى وما يلي ، هو بعث هذا الحق ، بعث الحيـــاة من الموت ! سؤال هو علامة استفهام كابية تغلف العربي أرضاً وتاريخاً ، فتضعه بين الوجود واللاوجود .

ولقد ترجم شعر العودة - فرض نفسه على المترجمين - لأنه سبر بعض أغوار السؤال .

فبيانه أبلغ من بيانات السياسيين ، وتعليقات المعلقين ، وايديولوجيات المفكرين . هذه أقرب الى العطالة منها الى القول ، أما هو ، فان قلّد وقصّر في الكثير الكثير مما كتب ، فقد أفصح في مقطوعات أعطت الكلام - بعض الكلام - الى أربابه ، والحق - بعض الحق - الى أهله ، انتزعته من الغاصبين .

القول في البدء ، والقول ـ البدء فعل ، يتخلى عنه المرء فاذا به في أرذل العمر ، ويسترده فإذا به عمر ، عمر الانسان يتملك التاريخ سيده .

تلك هي الثورة قول ـ فعل ، قول يتحول لتوه الى فعل .

لم يُترجم شعر العودة لانه تحدث عن الثورة ، أو تغنى بها ، أو ضمن قصائده مفاهيمها وصورها ومعانيها ، بل لانه فعل يذكّر فيعيد .

ان شعر العودة لا يتفيأ في ظل الكفاح المسلح ، كما يظنون [1] بل هو هذا الكفاح ، عود على بدء ، بدء هو مكان العربي تحت الشمس . ببعثه ، لا في فلسطين وحسب ، بل حيثما تبعث الحياة نصراً على الموت ، اليوم والامس ، غداً والى الابد . والحياة ذكر ، والذكر « ينفع المؤمنين » .

قلت في مطلع هـــذا البحث ان الذي استدعاه عملية تقنية خالصة هي المقارنة بين نصين فرنسيين وأصلها العربي ، نصين لكل منها هدفه ، يحدد ، لا اختيار القصائد وحسب ، بل التعابير والمفردات ، أو بشكل أدق ، كل منها بمثابة موقف يظهر في التركيز والاداء والايقاع .

فالشاعر المغربي يتوجه بمجموعته الى قارىء يستجيب أو يجب أن يستجيب لنداء الكفاح العالمي ضد الاستغلال والاستعمار والطغيان ، كفاح تشكل الثورة العربية بعامة والفلسطينية بخاصة فصيلة من فصائله الاساسية . ولقد طبع كتابه ، بآن واحد، في دارين للنشر ، كما رأينا : الأولى ، مغربية طليعية ناشئة، والثانية فرنسية ناشئة أيضاً ومتخصصة بنشر شعر العالم الثالث . مما يدل على أنه يتوجه بترجمته ، من جهة الى جمهور عربي أليف الفرنسية ، يشترك من خلالها

---

(١) أدونيس ، في مجلة مواقف العدد ١٤

بنضال شعب هو بالنتيجة شعبه، ومن جهة أخرى الى اليسار الفرنسي ، أو بصورة أعم إلى أحرار العالم، يطلعهم بواسطة الشعر الفلسطيني ، على معنى ثورتنا وتصميمها على الصمود حتى النصر . ويبدو - وهذا امر طبيعي - ان الشاعر اللعبي قرأ هذا الشعر في ضوء مشكلاته الخاصة ، فهو يناضل ، من موقعه الاجتماعي ، في سبيل تحرر قطره سياسياً واجتماعياً ، من كل استبداد طبقي ومن كل ارتباط خارجي.

ولهذا يعطي لمجموعته اسم « شعر المعركة » ، فيكتب لها مقدمة ضافية يشرح فيها ظهور الشعر الفلسطيني و كيف فرض نفسه على الجمهور العربي بعد الخامس من حزيران، من إذاعة دمشق أولاً ، وفي بقية العواصم العربية بعدها، وأخيراً على الرأي العام العالمي .

فالمجموعة فعل ثوري ، ركزت ، تعبيراً وموضوعات ، حول محور واحد هو الكفاح المسلح وما يلزم عنه من مواقف ونتائج ، بحيث يتتبع القول الشعري وقائع المعركة ويصفها ويتغنى بأبطالها وبطولاتها : الفلاح في أرضه يصونها وهو يحرثها ، السجين في سجنه يتحدى السفاح ، الفدائي يترصد العدو لينهكه ، الخ، والمرء عليه ان يعتمد على طاقته يضعها في خدمة الشعب ، هذا يبقى وهو فان، اذ ان قرارات المحافل الدولية ، ولدت ميتة ، فالشاعر يرفضها ليستلهم الثورات : كوبا ، فيتنام ، الزنوج ، اسبانيـــا ، الخ او يناشد الشعراء (يوفتشنكو) والكتاب (سارتر) الخ ليعيروا الثورة العربية ما تستحقه من اهتمام ، كما يناشد الأنبياء والمرسلين عل السماء تمنح الشعب ما حرمته اياه الارض.

وتصبح الذكرى في هذا المنظور حادثة وقعت حقاً في معظم الحالات ، يستدعيها الشاعر فتوحي بعنفها ، كما في قصيدة الزياد عن سرحان العلي - عربي

من صفد نسف أنابيب البترول عام ١٩٣٦ - حيث يقتصر الشاعر على سرد القصة نظماً يستمد شاعريته من عراك الفدائي مع القوة الغاشمة يصرعها وهي تصرعه.

انها ترجمة ملتزمة لا تعنيها بالدرجة الأولى الدقة العلمية في اداء الأصل ، كما يقول المترجم ، بل المردود ان صح التعبير ، او بشكل ادق ، اشراك القارىء في معركة ساحتها رحاب العالم ، ويجب أن تستثير « الغضب الساطع » والحقد على الطاغية ،يجب ان تستثير كل عاطفة تلهب الانسان حماساً ليؤدي دوره في الثورة ، لأول مرة في التاريخ تستثير هذا التاريخ طولاً وعرضاً وعمقاً .

ويشرح المترجم في مقدمة المجموعة وفي ملحقها، وضع العربي في اسرائيل . انه (مواطن ؟!) من الدرجة الدنيا ، تطوقه الأحكام الاستثنائية ، وتخضعه السلطات المستبدة لعملية « غسل أدمغة» ، فتجبره على الاختيار بين احد امرين، كلاهما بالنتيجة واحد : التهويد أو الهجرة ، أي الاندثار .

وفي الملحق حديثان مسهبان ، الواحد لمحمود درويش والآخر لسميح القاسم ، ومقتطفات من دراسة للدكتور انيس الصائغ عما ينشر في الأرض المحتلة من كتب عربية وهذه الوثائق تبين ان العربي «هناك » ، مقطوع الصلة بتاريخه الماضي والحاضر . فهو ، طالباً ، مجبر على دراسة التوراة (من وجهة نظر اسرائيلية طبعاً) والتراث الصهيوني ؛ مثقفاً ، متهم حكماً ، وفي كل الأحوال ، وكائناً من كان ، يطوقه الحكم العرفي بألوان القسر والامتهان ، فيعزله ويحد من نشاطه بحيث تذبل قدرته على الابداع وتتلاشى تدريجياً ، طاقة مهدورة . أما الشاعر فوضعه اكثر احراجاً ، اذ ان كل بادرة تبدر منه مشبوهة أصلا ، وكل كلمة عربية يكتبها جرم يؤدي به الى زنزانات (الدامون) أو غيره من السجون حيث يفقـــد كل صلة بعالم الأحياء . فاما الصمت واما الانصياع لإرادة الطغيان ، كلاهما الفناء ذاته .

يرسم اللعبي هذه اللوحة القاتمة والصادقة ، قاعاً يفلت منه الشاعر في تجاوبه مع الشعب فيضيف ما خلاصته : ان الشعر الفلسطيني الذي نمت اداته التعبيرية في لهيب المعركة قد أنقذ ، في الوقت المناسب ، الأدباء العرب من المناقشات الفارغة التي كانوا يتعثرون فيها، حول الالتزام والطليعية ومشا كل تجديد الكتابة ، كما انه هدم بعنف الثنائيات والمواقف المجردة التي كانت تربكهم : الشرق أم الغرب ؟ القديم أم الجديد ؟ المعطيات المادية للنظام الروحي ، النظرة الانسانية ، الخ ، ففتح بذلك للبحث وللابداع آفاقاً جديدة ، وهو اخيراً قد وضع الادباء تجاه موضوع النزاع الحقيقي ، ألا وهو أن يقرروا ما اذا كانوا على استعداد أم لا ، للانخراط في الواقع الحي ، واقع الجماهير المستغلة ، ان يسهموا أم لا في عملية ظهور انسان عربي جديد قادر على مجابهة العدوان اللا انساني ، داخل بلادهم وعلى مستوى الشعوب المستغلة [1] .

ويضيف في ذيل المقدمة محدداً نهجه في انتقاء القصائد وفي ترجمتها فيقول ما خلاصته أيضاً : هذه المجموعة تشذ عن العرف الذي درج عليه المستغربون . فهؤلاء يتقدمون بترجماتهم الى الصالونات الباريسية ، تتعرف فيها هذه الى الفولكلور العربي أو تستمتع بالاهتزازات الخالدة لـ (الروح العربية) ؛ أو يتقدمون بها الى جمهور آخر ، هو جمهور هواة « مختارات الشعر العالمي » ؛ أما هذه المجموعة فتتوجه الى الذين يستشعرون ظهور ثقافة عالمية جديدة ، ثقافة ثورية ، للأدب

* * *

---

(١) عبد اللطيف اللعبي ، شعر المعركة الفلسطيني ، الطبعة المذكورة صفحة ٢٧ راجع لمزيد من الايضاح : محمود درويش ، شيء عن الوطن ، دار العودة بيروت ١٩٧١ بخاصة الصفحات ١٩٠ - ٢٠٧ .

العربي محله فيها ، وكلمته يقولها بشأنها(١) .

والمترجم الفرنسي ، هو ايضاً ، شاعر على طريقته ؛ ينتمي ، على مايبدو ، الى مستعربين تخطوا ، من منطلقاتهم ، الوجه التزييني والمسرحي لأدبنا ، ليستجلوا انسانيته وروحانيته .

لم يفته الوجه النضالي للشعر الفلسطيني ، وانما دمجه في « كلية » اخرى منها يستمد دلالته . وهذه الكلية هي موقع المترجم واشكاليته ؛ كلاهما يوجه الانتقاء ويعين مرماه . فالدواوين الثلاثة التي اختار منها : « عاشق من فلسطين » « آخر الليل » ، « الحبيبة التي تنهض من نومها » (تضاف اليها ثلاث قصائد من ديوان « أوراق الزيتون » كلها لمحمود درويش تتركز عند المترجم حول « ازهار الدم » عنوان المختارات ، وهو ، كما رأينا ، أيضاً . عنوان مجموعة من قصائد « آخر الليل » ، أي حول مذبحة كفر قاسم التي تكثف المأساة الفلسطينية ، أو حول مذبحة هي ذبيحة ، كما يرى المترجم .

وقد وضع للمجموعة مقدمة صغيرة تروي القصة ذاتها من خلال حياة محمود درويش : قريته المدمّرة ، هجرته ، عودته الى الوطن ، تشرّده ، سجنه ، غربته في وطنه ، وبالتالي طريقه الى الشعر ، أي معركته . ويوضح في هذه المقدمة المحور الذي جمّع فيه قراءته ، فهو مزدوج : من جهة استرداد الكلام ، اغتصابه من مغتصبيه حقاً ، هو الذي يؤسس حقوق الانسان ؛ ومن جهة أخرى كلام المأساة ، مأساة شعب يؤكد في قلب الموت ايمانه بالحياة . فالانسان الذي يتكلم يسترد انسانيته ، اذ يحطم حجب الصمت الكثيفة ، طوّقته بها خرافات الأجداد (الموروثة من عصر الانحطاط) كما طوّقه بها العدو .

---

(١) المصدر المذكور صفحة ٣١ .

إن شعر درويش ، كما يقول المترجم ، قصة اسطورية أو دراما مقدسة ، الفعل فيها هو صراع الحياة مع الموت [١] .

الحياة والموت في وطني المؤله توأمان (درويش)

ويجب ، فيما أرى ، أن يضاف مستوى ثالث يكمل السابقين عامودياً ، وهو حركة الاسطورة ذاتها ؛ حركة هي سلسلة تصعيدات فيها تمتزج احداث حياة الشاعر مع احداث تاريخ شعبه القريب والبعيــد في سلسلة من الاستحالات تحولها كلها إلى عالم من الرموز حيث تأخذ القصة شكل حوار بين الحبيب وحبيبته : حبيبة حضورها غياب وغيابها حضور ، حتى لكأنها الروح يستردها الشاعر لتفلت منه وتفلت منه ليستردها .

فشعر محمود درويش ايقاع على مستويات متداخلة ، الواقع نقطة استنادها وحسب ؛ وكان المترجم يبحث مع الشاعر في الحادثة عن « مرها » الانساني وفوق الانساني . فليست الحادثة ، كما عند اللعبي ، في مباشرتها ، توحي بكثافتها ، ويجب على القارىء أن يعيشها ليدرك ، ضمنها ، صراع الانسان مع اللاانساني ؛ بل هي في مرماها يتخطى الصراع مع هذا العدو او ذاك ليصبح ، في نهاية المطاف ، صراع الوجود مع اللاوجود .

ولهذا يختلف الاداء ، يختلف الايقاع بين المترجمين . فقد ركّز اللعبي على الصورة تصفع القارىء ، بينما اختار اوليفييه كاره الرمز الديني : المنـبر والصليب ، الذبيحة والبخور ، الصلاة والحب ، الخ . الاول يشدّد على صلابة الانسان ، يربطه قولاً بالزمان ، ويضعه فعلاً بمعزل عنه ، الثاني يلح على هشاشة

(١) سنبحث في الفقرة التالية من هذه الدراسة التفسير الاسطوري فنناقشه .

الانسان وعلى هروب الزمن ، حتى لكأن الوجود عنده يتوسع ويتقدّم بفعل ارادة تفوقه .

كلاهما شاعر على طريقته ، كما قلت ، كلاهما برهن في كتاباته السابقة [1] وفي ترجمته عن موهبة حقيقية في تحسس فنية الشعر وأدائه ونقله الى اللغة الأجنبية. فقد ترجم اللعبي بعض مقطوعات درويش وغيرها[2] ترجمة رائعة تحاذي الاصل. وهو ينظم (ضمن الحدود الضيقة التي اطلعت فيها على شعره) على أحدث أساليب الشعر الفرنسي . ومع ذلك فقد اختار القصائد السهلة ، تعبيرا ومعنى ، أدّاها في جمل موجزة مشبعة بالحماس ، لاهثة ، أقرب الى النثر منها الى الشعر ، أحياناً تماثل نثر الصحف اليومية ، عند سرد الخبر العادي ، فأفقد الاصل فنيته ليضعه بمتناول القارىء أي قارىء كان .

اللعبي يتحرّى الوضوح الكامل ، يفضله على العمق ، بحيث تشف عبارته القصيرة في أغلب الأحيان ، عن المعنى شفافية تطمس ظلاله . وينتخب ، لهذا الغرض ، القصائد التي تتلاءم مع هدفه . فقد رجّح مثلا ديوان درويش (يوميات جرح فلسطيني) على ديوانه (آخر الليل) الذي هو محور مجموعة المترجم الفرنسي، لأن الأول ، أحياناً، أكثر مباشرية من الثاني الطافح بالرموز. كما أنه استبعد من قصيدة درويش (نشيد الرجال) الفقرات القوية فنياً لينقل الفقرات الحماسية . ويبدو بالنتيجة أن شعر سميح القاسم وتوفيق الزياد يتفق مع غرضه أكثر من شعر درويش .

---

(١) لاوليفيه كاره كتيب منشور بالفرنسية تحت اسم مستعار (جان اوليفيه ، استحالات يوفان) نثره يجاري الشعر ويفوقه أحياناً .

(٢) المقطوعة الاخيرة من قصيدة درويش (عاشق من فلسطين) ومقطوعات أخرى ، ولكنها قليلة .

والكلمة (صورة أو بنية). يورد هذا الرأي في مقال مستقل عن الشعر الفلسطيني(١) ثم يضيف ما خلاصته : ليس مؤكداً أن تأثير الكتاب المقدس هذا كان واعياً، ولكن التجربة المعبر عنها هي على درجة من التشابه تستوجب لغة من المعدن ذاته . فتجربة الموت بعثاً أساسية لدى الكتاب الفلسطينيين المقيمين في الأرض المحتلة تدل على ذلك أيضاً مسرحية توفيق فياض (بيت الجنون) وقصة لاميل حبيبي .

ويبدو لي أن المترجم الفرنسي صب من ماء المعمودية على رؤوس الكتاب الفلسطينيين اكثر مما يجب . فسميح القاسم يصدر ديوانه (أغاني الدروب) بآيات من القرآن الكريم (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .) يمكن أن تكون أيضاً ذات قيمة تخطيطية إذا انطلقنا من البنيوية لدراسة شعر العودة . ولسوف أعود على هذا الموضوع في الفقرة التالية .

والواقع ان الفارق بين المترجمين هو الخلاف القائم في صميم الفكر الانساني حول « القول » : أهو وسيلة للعمل ، ام انه بذاته فعل ؛ او هو التعارض بين اللوغس والبراكسس (في لغة الاغريق الذين كانوا اول من صاغه) .

فمختارات الصعي ومقدمته والملحق والتعليقات ، كلها تحمل طابع الواقعية الاشتراكية ، حيث القضية هي الغاية والقول وسيلة من وسائلها ؛ حيث

---

(١) مجلة سياسة اليوم ، عدد أيلول – تشرين الاول ١٩٧٠ ؛ مقال لاوليفيه كاره بعنوان : الشعر الفلسطيني في الأرض المحتلة أو الكلام عملاً صفحة ٦٢ .

Politique aujourd 'hui septembre - octobre 1970

يتحدث السلاح فينتهي دور القاتل (١) . لابل ان الحياة والموت هنا ـ حياة وموت هذا الفرد او ذاك ـ هما ايضاً وسيلة غايتها الشعب : الفرد يتلاشى والجماعة باقية ، وعلى الفرد ان يذوب مسبقاً في المجتمع .

اما اوليفيه كاره فيستبقي القول قوة فاعلة . فالحياة والموت ـ وهما الحدثان الاساسيان اللذان تتحدد بالنسبة اليها المصائر ـ هما مايتقوم به القول الذي ينقلها الى مستوى التعبير دون ان يستنفدهما ، لا قولاً ولا عملاً ، وهو يصدر ترجمته لديوان (آخر الليل) بكلمة لمحمود درويش اوردها هذا الاخير في حديث له مع الاستاذ محمد دكروب بصدد هـذا الديوان : « في الحوار القاسي او الصراع بين الموت والحياة انتصرت دون ان اجعل ايديولوجيتي تتدخل « ظاهرياً » (٢) .

أهو الخلاف بين الادب الملتزم والادب للادب ؟ كلا . والواقع ان كلاً من المترجمين يتحدث من افق يختلف جذرياً عن الافق الذي يتحدث منه الآخر ، فطرح المسألة بهذه الصيغة الكلاسيكية قد تجاوزه الزمن ؛ وهو يحجب عنا حقيقة النصين وحقيقة اصلها العربي . ان القول الاصيل يطرح على المترجم وعلى القارىء وعلى الباحث سؤالاً ، او بالاحرى اسئلة أكثر جذرية : من اين

---

(١) راجع ترجمته لقصيدة فدوى طوقان (الفدائي والارض ـ صفحة ١٠٣ وما يليها من الترجمة الفرنسية) فهي تعبر عن فكرته .

(٢) الواقع ان او ليفيه كاره اغفل كلمة (ظاهرياً) . ولكني شخصياً لم افهم المقصود منها الا على ضوء عبارة واردة في النص ذاته : « ولعل التزامي هنا لم يعد مبدأ او وجهة نظر او طريقة ، وانما صار نبضاً في الدم . شيء عن الوطن صفحة ٢٥٥ ـ ٢٥٩ . ولكن لا ادري ما اذا كان هذا الشرح شرحاً حقيقياً ، ام طريقة شعرية في تجاوز المسألة المطروحة .

يستمد هذا القول سلطانه ؟ ما وجوده ؟ ما نظامه في الوجود ؟ اين هو موقعه منه ؟ وعندئذ يفقد التعارض بين الالتزام واللاالتزام معناه فيبدو باهتاً .

ولكن اذا علقنا هذه الاسئلة على أن نعود اليها ، فثمة اسئلة اخرى تثيرها صناعة الترجمة ذاتها ، وهي ان الترجمة استعادة (او قراءة) من جهة ، ومن جهة اخرى حوار مزدوج : مع النص ومع القارىء . كلاهما (الاستعادة والحوار) يستند الى اعادة (واقصد بها الامانة المطلقة في اداء الكلمة والعبارة والنص) هي المجال (المادي ان صح التعبير) للقاء بين الأطراف الثلاثة : النص والمترجم والقارىء .

يوم اخفق مؤلف الكراتيلوس في بحثه عن اللغة الطبيعية[1] تلك التي تعطي عن الموجودات صورة كالأصل ، تلك التي يجب أن تكون قد اشتقت منها بقية اللغات - يوم ذاك تبين ، مرة ولكل مرة ، ان تحقيق ترجمة مماثلة للأصل امر متعذر ، لا بل مستحيل ، فكل ترجمة ، كل تعليق ، كل اقتباس او تلخيص او شرح او اختيار ... ينطلق من موقع هو هدف ، وخير دليل نجده في النصين اللذين نحن بصددهما ، اذ ان كلا منها ، كما رأينا ، وجهة نظر في شعر العودة ، هي قراءة وترجمة بآن واحد : ترجمة لانها تؤدي اصلاً ، وقراءة لانها توجه وتفسر ، فنص اوليفيه كاره مثلاً قلما يجاري الأصل العربي تماماً ، من حيث البيان : تارة

---

(١) افلاطون ، حوار الكراتيلوس الذي ينتهي برفض نظرية اللغة الطبيعية ، وعكسها ، نظرية اللغة اصطلاحاً خالصاً . وبالرغم من هذا الاخفاق ، فقد اعاد البحث مفكرون من آفاق مختلفة وفي عصور متباينة ، منهم عندنا المرحوم زكي الارسوزي . مما يدل على ان المسألة ما تزال مطروحة لان الاعادة ملازمة للاستعادة .

يفيض عنه فيبدو امتن[1] ، وتارة يحاذيه[2] ، وغيرها يقصر عنه[3]. مما يدل على ان المترجم قرأ وترجم ، اذ ان المقطوعات التي استهوته غنية بالايحاءات ، تذكّر ، عن غير قصد من الشاعر ببعض عيون الشعر العالمي . وهنا نلاحظ ان الاعادة متداخلة مع الاستعادة كلياً بحيث ان الباحث وحده يستطيع ، بواسطة التحليل ، ان يميز بينهما بعض الشيء .

ومع ذلك فالاعادة هي النقطة التي يجب أن ننطلق منها عند تقييم الترجمة تقنياً ، او بالأحرى عند البحث ، فيها ، عن مصادر الخطأ والانحراف .

والواقع ان هذا التقييم عملية مربكة ، اذ ان الذي يقوم بها يجعل من ذاته حكماً ، وكأنه معلم ، والمترجمون طلابه ، مع ان العكس هو الصحيح ، لان الترجمة بذاتها ولذاتها ـ اذا صح وكان بالامكان اعتبارها على هـذا الشكل ـ الترجمة عملية تقنية ، شأنها شأن كل تقنية ، لا وجود لها في المطلق ، بل هي وسيلة لغاية ، هي هنا القراءة ، على صعيدها يتعارف الناس وتتحاور الثقافات .

ولكن طالما اننا انطلقنا من مقارنة ترجمة بأصل ، فلا غنى لنا عن ابداء بعض ملاحظات قد لاتخلو من فائدة .

ثمـــة توازن صعب التحقيق بين الامانة للنص والقراءة (بين الاعادة والاستعادة) توازن يختل فيتطرأ الخطأ الى الترجمة بنسبة اختلاله .

فقد يقوي المترجم لفظة او عبارة ليدعم فكرته ، كاوليفيه كاره الذي ترجم (صلى) في بيت درويش (أبي عليها صلى وصام) ب (بارك) مع انه

---

(1) كما في ترجمة قصيدة (حبنا) وقصيدة (لاتنامي) والمقطوعة السادسة من قصيدة (قصائد عن حب قديم) الخ .

(2) كما في ترجمة قصيدة (في انتظار العائدين) وقصيدة (صلاة اخيرة) الخ .

(3) كما في ترجمة قصيدة (الى امي) وقصيدة (خواطر في شارع) الخ .

ترجمها في موضع آخر بـ (صلى) وقد يضعفها للغرض ذاته كاللعبي يترجم (يحب ذكر الله) بـ (يحب الصلاة) في قصيدة درويش(رسالة من المنفى) . وتلك هي القراءة بالمعنى الحرفي للكلمة ، الأمثلة عليها كثيرة، احياناً مقصودة ، واحياناً عفوية :

منها عند اوليفيه كاره ، على سبيل المثال لا الحصر :

(الانتباه) يقابلها بالفرنسية (البال) (قصائد عن حب قديم لدرويش)

(الحجر) يقابلها (الحصاة) (قصيدة ابي لدرويش)

(هوى) يقابلها (حنين) (جندي يحلم بالزنابق لدرويش) (جفاك) يقابلها (سوء تفاهم) (احبك اكثر لدرويش) .

عند اللعبي ،على سبيل المثــــال لا الحصر ايضاً :

(اقول للحلوة) يقابلها (احضر للفتيات الجميلات)

(المشردون) يقابلها (المنفيون) (رسالة من المنفى لدرويش)

(مهرجان) يقابلها (تظاهرة)

(الخليفة) يقابلها (المعلم)

(رائع) يقابلها (عبقري) (يوميات جرح فلسطيني لدرويش)

(السيد) يقابلها (الذي يقول بالعدل) (رسالة إلى الله لسميح القاسم)

(أسى) يقابلها (قنوط) (رجوعيات لتوفيق الزياد)

هذه كلها اجتهادات في القراءة ، تبدو على شكل اوضح في العبارة أو في المقطوعة حيث يعمد المترجم الى التقديم والتأخير ، الى الحذف والاضافة ، الى تقليص الجملة او الى تمديدها بحيث تحرف الترجمة النص الاصلي عن معناه ، تقويه او تضعفه . فاللعبي يترجم بكلمة واحدة (تبار كنا) ، بيتين كاملين لدرويش من قصيدة (رسالة من المنفى) هما :

تدعو لنا ...

بالخير ... والشباب ... والثواب !

كما انه يسقط من القصيدة ذاتها كلمة (وجد) وعبارة (ما ضاق بي) والامثلة على ذلك كثيرة في النصين الفرنسيين . فاوليفيه كاره يضعف بترجمته ، قصيدة (خواطر في شارع لدرويش) ولكنه يحاذي الاصل ، بالرغم من التصرف، في ترجمة المقطوعة الاولى من قصيدة (الحبيبة تنهض من نومها) .

نقتصر على هذه الاشارة العابرة لان ايراد النصوص عن هذا الجانب من الموضوع لاينتهي .

ثمة مصدر التفاوت بين النصين (العربي والفرنسي) اهم مما سبق مرده الخلاف في وسائل « البيان والتبيين » بين لغتين لكل منها وسائله التعبيرية وطبيعته . ففي حين تتجنب اللغات الغربية تكرار اللفظة الواحدة ، تعمد اللغات السامية ، على ايجازها وبسببه ، اليه ؛ فالتكرار ، فيها ، يرسم ظلال المعنى وايقاعه لوحة مرئية تجسمه حسياً ، كما في بعض اسفار الكتاب المقدس ، ومنها الزبور بخاصة . ولقد بلغ هذا الاسلوب في القرآن الكريم اعلى مستوى يمكن ان يبلغه . ولكن استعماله شائك يعرض الكتابة للركاكة والاسفاف اذا لم يكن الكاتب من مقياسه . ولهـــذا قلما يستعمله المحدثون والمجددون . اما درويش فله في هذا الميدان جولات موفقة منها :

كنا ... وقصة حبنا ... وكان ...

عساني اصير الهاً

إلهاً اصير (الى امي)

كانت لنا خلف السياج

ليمونة ... كانت لنا (اغنية الربيع)

كلها ضعيفة في الفرنسية .

وهناك انماط اخرى من التعبير خاصة بالعربية اسقطها المترجمـــان او نقلاها بشكل ركيك منها (كان ياما كان) و (يا انت) و (قل مع القائل) الخ.

وعلى العكس ، فقد افاد اوليفيه كاره من الايجاز الخاص بطبيعة اللغة الفرنسية فالت عبارته محاذية للعبارة العربية ، واحياناً اقوى منها ، كما في :

اصيح

اعيدوا لنا بيتها

اعيدوا لنا صمتها

اعيدوا لنا موتها ... (درويش حبيبتي تنهض من نومها)

حيث حـــذف (اعيدوا) فاستقام الايقاع الفرنسي . ولكنه اضعف العبارة العربية (وكانوا هادئين) عندما ترجمها مرتين بكلمة (بهدوء) (قتيل رقم ١٨ لدرويش) .

والامثلة هنا ايضاً كثيرة عند المترجمين .

ويبـدو لي ان الشاعر عبد اللطيف اللعبي ، في حماسته للتعريف بمعركة الأرض المحتلة وبشعرها قد تسرع في القراءة وفي الترجمة فكثرت عنده الخطيئات منها (اسمالها) قرأهـا (اسماءها) و (قبّرة) قرأها (مقبرة) في (يوميات جرح فلسطيني)

ومن خطيئات الترجمة عنده على سبيل المثال لا الحصر

(في حيلّ) اصبحت (متعبين)

(حبيبة) اصبحت (هوى) (يوميات جرح فلسطيني)

(للحقيقة) اصبحت (للحرية)

(شكلاً للوطن) اصبحت (جغرافيا) (العصافير تموت في الجليل لدرويش) . (الارض الصريعة) اصبحت (خريطة العالم) (صوت ضائع في مهرجان لدرويش)

(آمنا) اصبحت (صلاة)

(المتزه) اصبحت (على عرشه فوق الجميع) (رسالة الى الله لسميح القاسم)

(الجليل) اصبحت (المحبوب) (قصيدة قميصنا البالي لسميح القاسم) وغيرها وغيرها في المفردات وفي العبارات .

ونجد مثل هذه الخطيئات عند اوليفيه كاره ، منها على سبيل المثـــال لا الحصر ايضاً :

(يدعي) اصبحت (يهم)

(يكبر) اصبحت (يشيخ) (قال المغني لدرويش)

(سهر) اصبحت (سحر) (اهديها غزالاً لدرويش)

(عار) اصبحت (حياه) (لاتنامي لدرويش)

(من اين تعبر) اصبحت (من اين تخرج) وغيرها وغيرها .

وقد فاتت اوليفيه كاره بعض التقاليد العربية فترجم :

(زين الشباب) بـ (زينة) المقصود ابو فراس الحمداني في بيته المعروف

(زنابق شمعية) بـ (زنابق من البلاستيك)

(تيممي) بـ (ذوبي كالبحر)

(رضوان) بـ (الممعن في الرضا او العذوبة)

ويتناول التحريف العبارات أكثر مما يتناول المفردات . فاللعبي أسرف في التصرف والحذف ليقرب النص من ذهن القارىء الاجنبي (مختارات من يوميات جرح فلسطيني بخاصة) في حين ان اوليفيه كاره استلهم حصيلته الثقافية فاضفى برفق على شعر محمود درويش نفحة اجنبية [1] احياناً زادته رونقاً، واخرى طمست معالمه ، وفي كل الاحوال بدلت في جماليته التي هي جمالية عربية خالصة .

* * *

قلت : الترجمة استعادة ؛

وهذا شأن كل قول انساني ، في ماهيته تاريخي يتخطى ، بنسبة اصالته ، التاريخ ليصبح دلالة هي دلالة الانسان و « الانساني » ، على صعيدها يتعارف البشر . فما ذكرت من تصرف وثغرات وإضافات ... وخطيئات ، ان هي الا هنات من مستلزمات صناعة هي اداة غايتها اللقاء والحوار . ويكفي المقاومة الفلسطينية وقولها شرفاً انهما نقلا العربي من « المونولوج الى الديالوج » على حد تعبير محمود درويش ، من الحـديث المنفرد الى الحديث المشترك فالى المشاركة . فقد اصبحنا – نحن العرب – بفضلها صنواً في الحوار الانساني الذي اقامته ثورة النصف الثاني من القرن العشرين ؛ او ، في ادنى الحدود ، سلكنا الطريق المؤدية الى هذا الحوار، واصبح لنا صوت يُسمع ، وكلمة تُردد ، وزنها بوزن صمودنا للدخيل ؛ اذ ان الكلام المسترد ، على حد تعبير اوليفيه كاره ، ليس كلام شعراء الارض المحتلة وحسب ، بل هو كلام العرب من الخليج الى المحيط . فالصمود للتشريد وللتعذيب جلا ملامح الانسان العربي واقحمـه في التاريخ العالمي .

---

(١) راجع مثلا الابيات قبل الاخيرة من قصيدة (قمر الشتاء) في النص الفرنسي.

قلت ايضاً : الترجمة حوار ؛ هذا الحوار مجاله القول ذاته ، يتناسب مع الفسحة الانسانية التي يشقها ويصبح معها وبنسبتها فعلاً .

وفي استجلاء بعض خصائص هـذا القول (على أن نعود الى فسحته) ندرك الصعوبة الأساسية في الترجمة ، والهدف الخطير المتوقع منها تحقيقه .

القول الأصيل ـ منظوماً كان ام منثوراً ـ شعر ، ينطوي على مفارقة هي كونه اعسر النصوص ترجمة حتى يرى البعض الامر مستحيلاً ، ومع ذلك يجب أن يكون اسهلها طالما انه القول الانساني بالذات ، ذلك انه يؤلف بين حدين متعارضين : الفردية والكلية (او العالمية بتعبير عم ، وان كان غير دقيق) كلاهما من طبيعته : فردي لانه ينطلق من موقع ؛ وكلي لانه الانسان يبحث عن صورته، انه لسان ، واللسان ـ وسيلته اللغة ـ هو الذي يشد البشر بعضهم الى بعض.

هذه النقطة الدقيقة التي يستحيل فيهـا الفردي الى كلي ، والكلي الى فردي ، هي موطن الترجمة او حجر عثرتها ، موطن ، اذا فصل احد حديه عن الآخر ، تعذر النقل ، وفي الحد الاقصى امتنعت الترجمة . فباطلاق المعنى ، الفردي دون الكلام والكلي بعده : الاول هو الاحساس الذاتي لا يعرفه الا صاحبه في الآن ؛ والثاني هو التجريد الخالص ، كما في الرياضيات ، لغتها تلغي اللغة اذ تجعل منها رموزاً سيان كتبت بهذا الشكل ام بذاك .

ومن ثم ... فالقول الاصيل تجربة فريدة من نوعها تفجر ، بسبب ذلك، ذاتها لتصبح تجربة جماعة او عصر ... تجربة انسان ، ولهذا كان على المترجم ان يتقمص شخصية من يترجم فيقتحمه في صميم تراثه ، وبذلك يتمثل الموقف الانساني لجماعة ثقافية اخرى او لأمة ، يتمثله ويجعله جزءاً لا يتجزأ من موقف جماعته وامته. وبهذا يتحقق حوار الثقافات على اعلى المستويات .

لقد قضى ماسينيون عمره يقرأ الحلاج ويترجمه ويعلق عليه ، ولا ادري عندما اقرأ الصفحات التي كتبها هذا الانسان الفذ - عبقرية وعلماً موسوعياً وصوفية - لا ادري ما اذا كان حلاجه عربياً ام فرنسياً ، اذ ان ماسينيون استنبط من الحلاج - من الحلاج وحده - روحانية الاسلام برمتها وصهرها في التراث الفرنسي .

وقبله بكثير قضى اجدادنا قروناً يقرؤون ارسطو ويترجمونه ويشرحونه، فكان عملهم هذا نقطة تحول في تاريخ الثقافتين العربية والغربية .

فاين نحن الآن من هذه المنجزات الحضارية العظيمة ؟ لقد سلخنا قرناً ونصف قرن من عمر امتنا نلهو بفتات الاجنبي ، نعتقد ان الثقافة كالموضة ، آخر ازيائها احسنها . ذلك هو العقل المتخلف يقف عند القشور .

ولكن حياة الامم لاتقاس بالسنوات والقرون، ولا بعـــدد المترجمين والمؤلفين ، ولا بالمشروعات الجزئية تضعها هذه الادارة ، او تلك ، وانما بالعمل العظيم ينبثق من الاعماق حياة تزيح دفعة واحدة الطفيليات وتسحقها . ولقد برهنت امتنا في الارض المحتلة انها ماتزال من هذا المقياس . ففي فترة لتتجاوز السنوات العشر قليلاً شق شعراء بعدد أصابع اليد الواحدة ، شقوا لنا الطريق الى العالم. نقطة انطلاق جزئية هي،ورب جزء اقتطع من الكل ليصبح كلاً . . .

في السيكولوجيا السياسية

مهدي دخل الله

مقدمة ...

على الرغم من أن السيكولوجيا الاجتماعية والسيكولوجيا السياسية هما علمان حديثا العهد ، فلقد وضع الفلاسفة القدماء وفلاسفة العصور الوسطى حجر الاساس لهما وللعديد من العلوم الاجتماعية والانسانية الاخرى التي تضمنتها فلسفتهم واستوعب بداياتها فكرهم. ولكي نبدأ البحث في السيكولوجيا السياسية لا بد لنا من أن نفهم العلاقة بين السلوك الفردي ، ويهمنا هنا منه السلوك السياسي ، وبين الوسط الذي يشرط سلوك الفرد ويحدده ويعطيه معناه .

لقد شغلت العلاقة بين الفرد والوسط فكر الفلاسفة منذ فجر التاريخ ... فهذا أفلاطون قد لاحظ

أن المجتمع ضروري للافراد ، ورأى أرسطو أن الانسان كائن اجتماعي وسياسي بطبيعته، كما أقر هوبس متأثراً بأفلاطون أن الناس يحتاجون للتجمع لاشباع حاجاتهم ، وأن هؤلاء الناس او الافراد بطبيعتهم أشرار مما يجعل مجتمعهم ساحة قتال يحارب فيها (الجميع ضد الجميع) على حد تعبيره . أما جان جاك روسو فلقد اعتقد ، كهوبس ، أن الناس يكونون المجتمع عن طريق العقد الاجتماعي ، ولكنه خالفه في تفسير طبيعة البشر فلم يوافقه على الطبيعة الشريرة التي وصمهم بها .

وبين فلاسفة العصور الوسطى ، يعتبر ابن خلدون أول من أعطى الظاهرة النفسية الفردية بعدها الاجتماعي الكبير... حيث اعتقد أن الالفة Sociability بين أفراد الجماعة الواحدة مبنية على **وعي اجتماعي** ، وهذا الوعي بدوره عبارة عن نتيجة **لظواهر نفسية** كالتقليد imitation والتماثل Assimilation . وهناك قوانين وظواهر معاكسة لهذا الوعي ومبنية على الأنانية التي هي اساس الحروب والصراع في المجتمع . من هنا نرى أن ابن خلدون ربط ، بعبقرية فريدة في عصره ، بين الظواهر الفردية النفسية الموجب منها (التقليد) والسالب (الأنانية) وبين الظواهر الاجتماعية المقابلة (الالفة والصراع) .

أما كارل ماركس فلقد وجد ، باحثاً عن حل مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، أن ذلك الذي يربط الفرد بالمجتمع ما هو الا النزعة الاجتماعية عند الانسان ، لذلك فان جوهر علاقة فرد/ــ مجتمع ليس متناقضاً ومضاداً ... بل ان التناقض الموجود الآن ماهو الا نتيجة لنفي الفرد عن اجتماعيته .. فالمجتمع المعاصر يمارس ، عن طريق مؤسساته السياسية والاقتصادية الفرد فينفي وجوده ككائن اجتماعي، ويعطيه وجوداً جديداً .. وجود الكائن الأناني .. الكائن الذي يشعر بصراعه مع المجتمع .. يشعر أنه ليس هناك ما يربطه به .. ليس هناك لقاء بين مصالحه وحاجاته والمصالح الاجتماعية . وهكذا فرضت الشروط والعلاقات الاستغلالية التي يعيشها الناس في المجتمع المدني أن تصبح النزعة الاجتماعية مضادة للفرد لاجزءاً مكوناً في شخصيته، مادامت هذه النزعة تصاغ وتتحقق عن طريق مؤسسات خاصة (الدولة والطبقة) هي في وجودها ليست الا مظهراً للاستغلال وواسطة للحفاظ عليه .

من هنا اظهر ماركس الفرد منفياً من اجتماعيته .. منفياً من جوهره .

ورغم أن ماركس تكلم عن نظرية الاغتراب Entfremdung في « رأس المال » بلغة اقتصادية ؛ فلقد كان سبق له وأن شرح هذه النظرية في « مخطوطات ١٨٤٤ » بلسان فلسفي -- انتروبولوجي.. لذلك فإنه لمن الخطأ أن نحصر نظرية الاغتراب الماركسية

باطار اقتصادي .. بل هي نظرية عامة شملت الفرد من الناحية النفسية والاقتصادية والفلسفية ، وحتى في « رأس المال » نجد أن ماركس لم يعرف العمل تعريفاً اقتصادياً بحتاً ، بل ضمن تعريف معاني فلسفية – انتروبولوجية .. فالعمل ما هو ، في رأيه ، الا رابطة بين الانسان والطبيعة ، بين الذات والموضوع ، وما هو الا نشاط مدرك ينتج الانسان بواسطته ويعيد انتاج ليس الطبيعة فقط، بل نفسه ايضاً (١) .

المهم في الأمر أن ماركس ، بنظرية الاغتراب هذه ، ربط الانتروبولوجيا والفلسفة بالاقتصاد .

السيكولوجيا السياسية المعاصرة :

لم يعد الدافع لدراسة الظواهر السياسية ، في بداية قرننا هذا ، دافعاً نظرياً خالصاً هدفه تفسير الكائن السياسي homo Politicsu ، بل أضحت هذه الدراسة ذات اتجاه علمي مهمته الوصول الى السلطة السياسية او المحافظة عليها .

ومع تغير هدف دراسة الظواهر السياسية تغيرت الطرائق المتبعة في هذه الدراسة ... فأصبحت تعتمد على طرق تجريبية تتجه نحو ملاحظة السلوك السياسي للفرد « Political behaviour » لا دراسة المؤسسات السياسية ، فلقد رأى جون ديوي أن الفعل السياسي هو من نتاج الانسان ، ومهمة علم النفس هي دراسة العلاقة بين الفاعل والفعل نفسه ، وبين الظاهرة وصانعها . ولقد سبق لجراهام والس أن كتب سنة ١٩٠٨ بأن كثيراً من الباحثين في المجال السياسي يقعون في خطأ

(١) كثير من المفكرين الذين اعترفوا بالبعد الانساني لنظرية الاغتراب ، أخذوا على ماركس حصره هذه النظرية في اطار اقتصادي (العمل كإنتاج ، فقر العامل ، نفي البضاعة المنتجة عن العامل الخ ..) ولكن الحقيقة عكس ذلك .. فهذه النظرية لها عند ماركس شكل اقتصادي فقط ، أما محتواها فهو اوسع من ذلك بكثير .. ولقد أصر ماركس على شرح هذه النظرية في اطار عملية الانتاج لأنه – كعادته – احب ان يأخذ الاشياء في واقعيتها لا ان يكتفي بشرح وتفسير ظواهرها فقط .

كبير حيث « يحللون المؤسسات السياسية ، ويتجنبون تحليل الانسان »[1]

ومن الصعب جداً ، في الحقيقة ، الاعتماد على دراسات الباحثين في ربط علم السياسية (البوليتولوجيا) بالسيكولوجيا لاعطـــاء المشكلة صورة كاملة وواضحة ، لا بسبب هزالة هذه الدراسات وندرتها فقط، بل بسبب التعقيدالذي تتصف به هذه المسألة وعدم التجانس الذي يصبغ أجزائها .... ورغم ذلك فاننا لابد وان نعثر على بعض الدراسات التي تلقي ضوءاً ، خفت نوره او سطع ، على مادة بحثنا هذه .

لقد تأثر الكثير من علماء السياسة وعلماء النفس بنظرية التحليل النفسي (Psychanalye) الذي وضع أسسها سيجموند فرويد ، ويعتبر هارولدلوسويل ، وهو من المتأثرين بفرويد ، من الأوائل الذين حاولوا وضع نظام او نظرة كاملة للعلاقة بين السيكولوجيا والبوليتولوجيا . لقد افترض لوسويل ان الفرد الذي يهتم بالسيادة هو ذلك الذي يربط دوافعه الشخصية بالحوادث العامة حسب المعادلة:

د ← ح ← م = إ س

حيث ان د معناها : دوافع شخصية .

ح : حوادث عامة .

م : منظمة في شكل مصلحة عامة .

إ س : إنسان سياسي .

ومهما بدا لنا لأول وهلة أن هـذه المعادلة تعتبر رابطة كاملة بين الفرد

(1) Graham Walles . « Human Nature in Politcs » Boston , Hougton Mifflic 1909 .

والحوادث السياسية ، فانها لاتزال تحمل عيوب نظرية التحليل النفسي التي ترتكز عليها وتنطلق منها ، ففي رأيي انه ليس من الكافي ان ننظر الى مادة السيكيولوجيا السياسية من الزاوية الضيقة التي تسمح لنا بها نظرية التحليل النفسي وما تتضمنه من أفكار كالخيبة (Frustration) والكبت والليبدو والصلة بين الغرائز الجنسية وغرائز المحافظة على البقاء الخ . . .

واذا كان لوسويل قد نظر الى القضية من زاوية واحدة ، وانطلق من السيكولوجيا فقط ، فلقد وقع زميله روبرت لان في الخطأ نفسه ، اذ وضع نظاماً مشابهـاً لمعادلة لوسويل ، ولكن منطلقه في ذلك كان علم السياسة لا السيكيولوجيا . في محاولة بحثه لمادة البوليتولوجيا ، وجد لان أن هـذا العلم ذو مواضيع متداخلة ومتشابكة يصعب تحديدها ، فاذا كان علما الاجتماع والسيكولوجيا الاجتماعية مازالا يقابلان مصاعب جمة في تحديد موضوع كل منهما ، فان الصعوبات التي تقابل البوليتولوجيا وبالتالي السيكولوجيا السياسية هي أشد من ذلك بكثير . فالبوليتولوجيا تتجه دائماً لتحديد ومعالجة مشاكل معينة في خضم علاقات اجتماعية معينة قبل أن تتجه الى تنظيم نفسها كعلم ، لذلك فإن لان يرى أنه من الصعب وضع تعريف شامل لهذا العلم .

وفي نهاية دراسته بعنوان (علم السياسة والسيكولوجيا) التي تضمنها كتاب كوش (دراسة في السيكولوجيا كعلم) حاول لان أن يضع إطاراً للتحليـل البوليتو سيكولوجي ، فهو يربط علم السياسة بالسيكولوجيا بالنموذج المعروف :

S — O — R
(Stimulans) — (Organism) — (Reaktion)

حيث S تعني محرض وهو الوسط .

و O تعني العضو وهو الانسان .

و R رد الفعل أو القرار .

ونرى أن العملية الرئيسية هنا هي عمليـــة اتخاذ القرار ، وهي متعلقة بالخصائص النفسية للانسان وبالوسط . ويضع لان تقسيماً اصطناعياً للوسط ، فهو في رأيه قسمان: وسط اجتماعي عام (غير رسمي)، ووسط حقوقي يتضمن المؤسسات السياسية والادارية جميعها ، حيث يقبع اكثر متخذي القرارات المؤثرة ، ومن هذه المؤسسات تصدر القوانين التي تحدد بعض أنواع السلوك الانساني ... وهنا يلاحظ لان أن القانون ليس هو الذي « يحدد سلوك الناس ، بل مدى ادراكهم للقانون هو الذي يوجه سلوكهم، والادراك ، كما هو معروف من دراسات كثيرة يقع تحت تأثير التقييم الداخلي وفي الرغبة في اشباع الحاجات الخ ... »[1] .

ويربط الوسط السياسي الموضوعي بالإدراك الذي هو حادثة نفسية معقدة، ذاتية الى حد ما ، يحاول لان أن يرسم صورة للعلاقة بين السياسة وعلم النفس ، كما أنه ، انطلاقاً من المكانة الهامة للإدراك في عملية اتخاذ القرار ، رأى أن من أهم الحوادث النفسية ـ السياسية تعتبر العمليـــات العكسية ، حيث يؤثر صاحب القرار على وسطه ... كما اعتقد لان أن أخصب المجالات للدراسة البوليتو ـ سيكولوجية تعتبر الآراء ، القيم، مدى معرفة الفرد لوسطه السياسي، الشخصية الخ. . ومما يؤسف له أن لان ، رغم تعمقه في البحث عن الطريق المناسب لربط العلوم السياسية بعلم النفس ، لم يستطع التخلص من النظر الى القضية من

---

(١) S . Zoch ; «Psychology : A study of a Science » N. y. Mc - Graw Hill 1963 .

زاوية واحدة فقط ، هي زاوية البوليتولوجيا ، فهو لم يأخذ من علم النفس إلا أبحاثاً قليلة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالحياة السياسية ، ونسي مجالات أخرى هامة ، رغم أنها لأول وهلة تبدو بعيدة عن مجال بحثنا ، كما أن لان ، وخاصة في نهاية دراسته ، لم يستطع التخلص من طريقة التحليل النفسي الفرويدوية ، ولا سيما عندما يرى ، في بحثه عن الأبعاد النفسية التي تدفع المرء الى اتخاذ قرارات سياسية معينة ، ان رأي المرء في السياسة الخارجية مثلاً متعلق بالعقدة النفسية - الجنسية .

السيكولوجيا السياسية في العالم الاشتراكي :

تحت تأثير المفهوم الستاليني للايديولوجية الاشتراكية ، توقف تطور العلوم الاجتماعية توقفاً ملحوظاً في الاتحاد السوفييتي واوروبا الشرقية ، فلقد اعتقد العلماء السوفييت ردحاً من الزمن أن السيكولوجيا السياسية علم بورجوازي هدفه القضاء على الوعي الطبقي عند البروليتاريا ، لذلك فان المراجع الاشتراكية في هذا المجال قليلة ، إن لم تكن معدومة ، يستثنى من ذلك بعض أعمال علماء الاجتماع البولونيين الذين توجهت دراساتهم نحو ملاحظة السلوك السياسي للناس وخاصة وقت الانتخابات . كما ظهرت بعض الأعمال القيمة في مجال التسيير الذاتي العمالي في يوغوسلافيا .

وفي السنوات الأخيرة ، وعلى أثر التطور الذي حظيت به الدول الاشتراكية ، وخاصة بعد التخلص من الروح الستالينية في العلوم وفي العلاقات الاجتماعية والسياسية ، توجهت أنظار الباحثين السوفييت الى هذا العلم الحديث العهد وبدأت دراساتهم فيه[1] ، ويعتبر كتاب ب . د . باريغين «السيكولوجيا

---

(١) من الجدير بالذكر أن الباحثين الاشتراكيين عقدوا في مدينة جيني عام ١٩٦٥ مؤتمراً علمياً لدراسة موضوع « الاشتراكية وعلم النفس الاجتماعي » .

الاجتماعية كعلم ، من أخصب الأبحاث في هــذا المجال ، فهو يعرّف مادة السيكولوجيا السياسية بما يأتي : « تحت علم نفس الحياة السياسية نفهم تحقيق ذلك القسم من علم النفس الاجتماعي ، ليس فقط الفردي ، بل الجماعي الجماهيري، الذي يتعلق ويرتبط بالنشاط السياسي ، أي بماهية سلوك الناس في هذه الحالة السياسية أو تلك ، أو في التجمع السياسي و كيفية تنظيم المجتمع » ..

ويتضمن تعريف باريغين هذا ثلاث نقاط هامة :

١ - تأثير الوضع الاجتماعي على صياغة الرأي السياسي .

٢ - تأثير النشاط السياسي والتنظيمات على تشكيل السيكولوجيا الاجتماعية .

٣ - تأثير اشكال السيكولوجيا الاجتماعية المختلفة (الجماعية والجماهيرية) على تشكيلات وحركة الحياة السياسية للمجتمع .

ومما يؤسف له أن باريغين لم يتابع تحليله المنتج هـــذا ، بل اكتفى بإعطائنا هذا التعريف الشديد العمومية ، وهو لايزال يتأرجح بين طرفين بعيدين هما سيكولوجيا الفرد وسيكولوجيا المجتمع .

المفهوم السيكولوجي للظواهر السياسية :

انطلاقاً من المعطيات والدراسات التي نملكها ، لانستطيع بحال من الأحوال اعتبار السيكولوجيا السياسية علماً قائماً بذاته ، فهي مازالت في مهد تطورها ،عبارة عن ناحية تطبيقية في السيكولوجيا العامة ، تماماً كالسيكولوجيا المدرسية والصناعية والدعائية الخ .. فهي بالتعريف : « ذلك المجال التطبيقي في علم النفس ، الذي يساعدنا على دراسة الأبعاد النفسية للظواهر السياسية » (١)

(1) Siber : « O predmetu politicte psichologije » p. M. 3/69. Zagreb.

فالسيكولوجيا السياسية بهذا المعنى عبارة عن أحد جوانب علم النفس العام ليس إلا ... وهي محددة ومختصة بالظواهر السياسية ... فكلما ازداد اهتمام الفرد بالسياسة في مجتمع ما ، كلما اتسع مجال السيكولوجيا السياسية ، وهذا يفسر لنا تطور هذا العلم في المجتمعات الراقية بالذات حيث أصبح كل فرد تقريباً يرى بالحوادث السياسية هدفاً لفضوله ولنشاطه اليومي .

إن تعريفنا السابق للسيكولوجيا السياسية لايرينا بوضوح، رغم شموله ، العلاقة بين الظواهر السيكولوجية والسياسية ، فمن الصعب جداً ايضاح الرابطة المتبادلة التي تصل الحوادث السياسية بالمجال السيكولوجي ، لذلك فسنكتفي بالبرهان على أننا أخذنا هنا أقرب الأطر إلى الواقع :

ينقسم المفهوم السيكولوجي للسياسة إلى قسمين :

١ - مفهوم نفساني فردي : وهنا نعتمد على دراسة المعنى الضيق لتلك الخصائص النفسية التي تتعلق بنشاط الفرد السياسي(كالعدوان ، وحب السيطرة، والتصلب بالرأي ، والتعصب ، والخضوع الخ ...) .. ولقد اعتقد بعض الباحثين ومنهم ميلبراث أن خصائص الشخصية السابق بمعناها الضيق تؤثر على نشاط الفرد السياسي وتحدده (١) .. بينما اعتقدآخرون وعلىرأسهم كامبيل أن هذه الخصائص تؤثر فقط عندما يكون الفرد منخرطاً تماماً في الحياة السياسية (٢) .

وفي رأيي أن المفهوم النفساني هذا ، على الرغم من أهمية المعلومات التي يعطينا إياها ، يبقينا في دراسة المشكلة على مستوى فردي فقط ، بعيدين عن

---

(1) L. Milbrath ,« Political artipeiPation » Rand - Mc Nally co. 1966,

(2) A. CamPbell « The Passive Citizen » Acta Sociologica - Scandina vian - Review of Soc. vol. 6 Fasc, 1 - 2 / 62.

الحوادث السياسية الهامة ، لأنه من المستحيل حصر كل نواحي السيكولوجيا السياسية في هذا المجال الفردي الضيق .

٢ - مفهوم سياسي عملي : وهنا نوجه انتباهنا إلى النشاط السياسي ، وإلى تلك الخصائص النفسية التي تحدد نوع واتجاه وحدة هذا النشاط ، وهذه هي في الحقيقة مادة السيكولوجيا السياسية ...

عندما نحاول ملاحظة تلك الصفات الشخصية التي تحدد نوع النشاط السياسي ، يجب علينا أن ننطلق من اعتبار هذا النشاط شكلاً معيناً من أشكال النشاط الاجتماعي، محدوداً بتلك الصفات الفردية التي يؤثر عليها الوسط الاجتماعي. ومن أبرز هذه الصفات التي تهمنا في دراسة السلوك السياسي للفرد هو الرأي ... وهنا نجد انفسنا وقد التقينا مع ايسنك Eysenck في اعتقاده أن دراسة الآراء السياسية كتراكيب طويلة الأمد ، ناتجة عن التجاذب والفعالية المتبادلة بين الفرد والوسط ، يعتبر الموضوع الأول والأهم للسيكولوجيا السياسية .

يعتبر الرأي أساس التركيب النفسي للفرد وهو محدد بالوسط الاجتماعي، لأنه يتكون عبر التجربة، لا التجربة الفردية فقط، بل التجربة بشكل عام، وهو يتضمن العائلة والمدرسة والقيم التي تنبع من مجتمع ما وتؤثر على أفراده ... ولكن هذا لايعني مطلقاً أن الفرد يلعب دور العامل المنفعل ليس إلا ... بل إن العلاقة بين الفرد والمجتمع مبنية على تفاعل Interaction متبادل ، حيث يحدد الوسط التركيب الشخصي للفرد ، ولكن شخصية الفرد الذاتية نفسهاتعين إدراك هذا الوسط وطريقة فهمه .

إن من أهم المشاكل التي تطرح أمام السيكولوجيا السياسية مشكلة العلاقة

بين رأي الفرد وفعله وبين اعتقاده وسلوكه... ولقد لاحظ كثير من الباحثين في هذه القضية أن تصرف فرد وسلوكه لايجب أن يكون في جميع الأحوال نتيجة لرأيه واعتقاده ، ففي كثير من الأحيان لاحظ الفاحصون عند طرحهم الاسئلة على مفحوصيهم أن هؤلاء يجيبون اجوبة كثيراً ماتكون موافقة لتوقع الفاحصين، كما انهم يحاولوا ان يبتعدوا عن تلك الاجوبة التي تعارض قيم المجتمع وقوانينه وعاداته وتقاليده ... كما تعتبر **الحاجة الواقعية** من اهم مايؤثر على التصرف ، فتمنع الرأي من تأثيره التام على السلوك ، لذلك فلابد لنا ، في تحليلنا للسلوك ، من أن نهتم **بالحاجة** كعامل حاسم في تحديد هذا السلوك وتوجيهه . والحاجة بمفهومنا هنا هي عبارة عن اختلال التوازن البيو - سوسيولوجي ، واشباع الحاجة هو إعادة هذا التوازن ... ولكن الإشباع نفسه مقيد ومشروع بالحدود التي يسمح بها الوسط الاجتماعي ، لذلك نرى أن السلوك ، سواء كان نتيجة الرأي أو الحاجة ، محدد قبل كل شيء بالوسط الاجتماعي ، وخارج هذا الوسط لايمكننا دراسة السلوك ولا دوافعه (الحاجة ، الرأي ، الاعتقاد الخ) ...

إن أول فرضية في دراسة أهمية الحاجة للسلوك السياسي هي أن الأفراد الذين يملكون حاجات متشابهة غير مشبعة (توازن بيو - سوسيولوجي مختل) ويبحثون دائماً عن طرق اشباعها ، أو الذين يملكون حاجات متشابهة مشبعة (توازن بيو - سوسيولوجي تام) ويحاولون دائماً المحافظة على إشباعها ، لهم دائماً سلوك متشابه في حالات سياسية واجتماعية متشابهة ، وبالطبع لايحق لنا ان نقبل هذه الفرضية بمعناها المطلق ؛ لأنه وفي كثير من الأحيان ، تنتج الحاجة نفسها سلوكاً مختلفاً ، كما أن حاجات مختلفة تنتج سلوكاً متشابهاً .. هذا يرينا أنه من الصعب وضع السلوك الانساني ضمن قوانين حتمية رغم أنه ليس من المستحيل

أبداً دراسته دراسة علمية واستنتاج قوانين عامة تصلح لأكثر الحالات تجانساً . ومما يدعو للأسف أنه لاتوجد حتى الآن دراسات أوسع في بحث فرضيتنا السابقة واستخلاص نتائج أعمق وافضل مما لدينا .

لو اننا استقرأنا البحوث السيكولوجية السياسية لوجدنا أن كثيراً من الباحثين يهملون دراسة الحاجة كعامل مؤثر في السلوك ، ويهتمون اكثر الاهتمام بالرأي والاعتقاد كعامل أقوى في توجيه رد الفعل وتجديده ، وهم يوضحون ذلك بأسباب منها :

- السبب الاول ذو طبيعة منهجية : وهو أنه من الصعب جداً قياس الحاجة وشدتها Intensity [١] .

- السبب الثاني نجده في الصلة المباشرة والقوية بين الدافع والرأي ، مما يجعل من الأفضل دراسة الرأي ، واهمال دراسة الحاجة ، كما أن الرأي يعتبر الجواب العلمي ورد الفعل المتعلق بمجموعة ما من الأشياء أو المواضيع او الاشخاص ، وبهذا المعنى له التأثير الأكبر في توجيه السلوك ... وإذا كانت الحاجة في عملية الاشباع وإعادة التوازن البيو - سوسيولوجي تأثر على تكوين الرأي نفسه ، فان الرأي من جهة اخرى وفي كثيرمن الأحيان يكوّن الحاجة[٢] .

---

(١) راجع في هذا مقالاً كتبه ماك ليلاند بعنوان « طرق قياس الدوافع الانسانية » في كتاب « الدوافع في الخيال والفعل والمجتمع » .

(٢) لنأخذ المثال التالي على ذلك : إن الرأي الايجابي لصالح ناد من الاندية الرياضية ليس نتيجة الحاجة لرؤية مبارياته ... بل العكس هو الصحيح ... إن الحاجة لرؤية مباريات هذا النادي هي نتيجة الرأي الايجابي المسبق نحوه . لايحق لنا ان نأخذ هذا المثال بمعناه المطلق ، لأن الرأي الايجابي نفسه قد يكون نتيجة لحاجة ما ... كأن يعجب الفرد بالنادي الذي يعجب به اصدقاؤه (الحاجة الى الموافقة وقبول قيم الجماعة) ...

- السبب الثالث نجده في البعد الزمني لكل من الرأي والحاجة... فبعض الحاجات ما هي إلا نتيجة للحالة الوقتية التي يتعرض لها الفرد أو الجماعة، وبإشباع هذه الحاجات المؤقتة ينقطع تأثيرها على صاحبها .. أما الرأي فهو تركيب دائم يصعب هدمه أو تغييره.

وحول تعريف الرأي اختلف الباحثون، وأفضل التعاريف هو أن الرأي «تركيب مضمر ناتج عن التجربة ويؤثر على معرفتنا وشعورنا ونشاطنا بالنسبة للحوادث والأشياء والمواضيع التي حولنا أو في داخلنا»[1].

وفي نظرتنا للتعريف السابق، نرى أن للتجربة المكان الأهم فيه، ومعنى التجربة هنا عام يتضمن الأسرة والقيم الاجتماعية التي تؤثر على الفرد وخاصة حين تربيته وأثناء عملية تكييفه الاجتماعي (Socialization)، وهذا لا يجب أن يعني أن الوسط الاجتماعي يؤثر تأثيراً مطلقاً على الفرد ... بل إن الرأي، كرد فعل سلبي أو إيجابي نحو الأشخاص، هو نتيجة للعلاقة القائمة على التفاعل المتبادل بين الفرد والوسط ... فالوسط، كما سبق لنا وقلنا، يحدد تركيب الشخصية، ولكن الشخصية نفسها تؤثر على كيفية فهم وإدراك الوسط الاجتماعي أو السياسي... فما يدركه الفرد (ذاتياً) يؤمن بوجوده (موضوعياً)، لذلك فلا يهمنا فقط دراسة تلك الظواهر الموجودة فعلاً في الوسط السياسي لفرد ما، بل يهمنا أيضاً ما يعتقد هذا الفرد أنه موجود، يهمنا إدراكه لوسطه السياسي... وفي هذا كتب والتر ليبمان: «كثير من الأشياء لا نراها أولاً ثم نعطيها تعريفاً، بل نعرفها أولاً ثم نراها... فنحن نأخذ من العالم الخارجي تلك الأشياء التي سبق

---

(1) Siber Ivan • O Predmetu Politicke Psikologije • Politicka msaoi 3/69. Zagreb - Yugoslavia .

لوسطنا الحضاري وأن عرفها لنا ، [1] في شرحنا السابق تعرضنا للمشكلة الأولى الهامة التي يتضمنها موضوع السيكولوجيا السياسية ، وهي قضية تتعلق بمعرفة تلك الخصائص التي يحملها الفرد والتي تؤثر على سلوكه السياسي . بقي أمامنا أن نتعرف على المشكلة الثانية ، ماهية السلوك السياسي نفسه ...

لا بد لنا لنفهم السلوك السياسي من أن نحدد معنى كلمة (سياسة) نفسها ... تعتبر السياسة ، بلا شك ، حقيقة لا بد منها في الوجود الانساني ، فكل فرد منا في أي مكان يعيش وضعاً سياسيا معيناً داخل تركيب سياسي عام معين ... وفي مجتمعنا المعاصر نستطيع أن نتعرف على التركيب السياسي لمجتمع ما ، وكما يعتقد الباحث البوليتولوجي اليوغسلافي ن اسمايلاكيش ، عبر دراسة ثلاث مجموعات من القضايا :

١ – قضية العوامل السياسية .

٢ – قضية العلاقات السياسية .

٣ – قضية الأشكال السياسية [2] .

ويبدو هنا أن قضية العلاقات السياسية تعتبر أهم ما في هذه القضايا ، لان العوامل السياسية (القضية الأولى) والأشكال أو النماذج السياسية (القضية الثالثة) ما هي إلا وسيلة لتغيير نوعية العلاقات السياسية أو المحافظة على هذه النوعية وحمايتها من التغيير (التيار الثوري والتيار المحافظ في المجتمع) ... ويرى الباحث داهل أن أكثر المختصين يتفقون على أولوية العلاقات السياسية في كل تركيب سياسي .

---

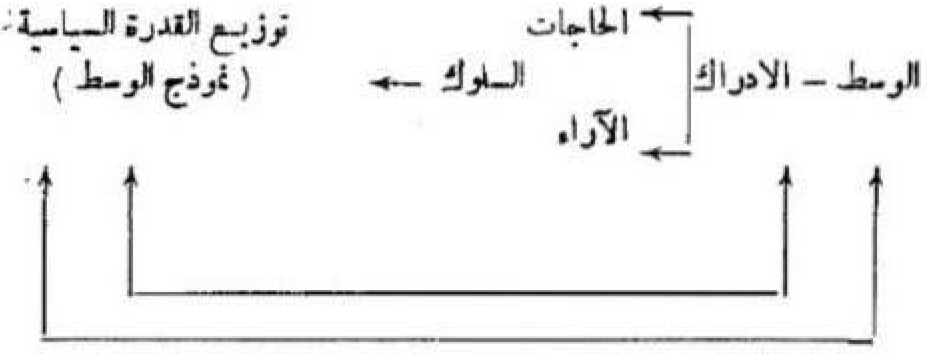
(1) W. Lippman « Public Opinion » The Macmilan Co 1961. N. Y.

(2) N. Smailagic « Epohalna valendcija politike» Politicka misao 3/65. Zagreb - Yugoslavia .

وفي تعرضنا للعلاقات السياسية لا بد لنا وأن نتعرف على مفاهيم صعبة التحديد كالسلطة والحكم والقوة والقدرة والتأثير الخ . . . وسنتوقف هنا قليلاً عند مفهوم القدرة Power لأنه يعتبر من أهم المفاهيم في الدراسات السياسية ، فالقدرة موزعة في المجتمع توزيعاً غير متساو بين أولئك الذين يسيطرون على السلطة وأولئك الذين ليس لهم في السلطة يد .... ومن أهمية القدرة سننطلق نحو تعريف لاسويل للعلم السياسي بأنه « علم تجريبي يبحث في توزيع القدرة السياسية ، أما السلوك السياسي فهو كل نشاط هدفه الاستيلاء على القدرة السياسية » ... وهذا التعريف ، رغم نقصه في وجهة نظر بوليتولوجية لكونه ينطلق من مفاهيم المدرسة السلوكية Behaviourism ، إلا أنه جيد من ناحية سيكولوجية – سياسية ، فهو يربط لنا السلوك كظاهرة سيكولوجية ، أو ذات بعد سيكولوجي على الأقل ، بالقدرة كظاهرة سياسية - اجتماعية ، ويرينا أن هدف كل سلوك سياسي هو تغيير توزيع القدرة في المجتمع ، أو المحافظة على التوزيع الراهن ، لذلك فاننا نتفق مع لاسويل بأن السلوك السياسي هو كل سلوك هدفه تغيير أو المحافظة على نموذج توزيع القدرة السياسية في المجتمع .

نستطيع الآن أن نشرح العملية السيكولوجية – السياسية السابقة باختصار على الشكل التالي :

إن الفرد ، وعلى أساس تفاعله Interaction مع الوسط ، يكون آراء ومفاهيم معينة . ويحصل على تراكيب وطرق معينة لاشباع حاجاته ، وهذه الآراء والحاجات هي التي توجه وتحدد النشاط (السلوك) السياسي وبالتالي توزيع القدرة السياسية . وهذا التوزيع ما هو إلا نموذج للوسط الذي يعيش فيه الفرد والذي يؤثر على رأيه وحاجاته ويحدد سلوكه . . . والشكل التالي يوضح لنا العملية والعملية العكسية السابقة :



مما سبق نرى أن ما يهم السيكولوجيا السياسية ويشكل موضوعها هي القضايا الآتية :

- مدى ونوعية ادراك Percepion الفرد للوسط السياسي .
- ما هي الحاجات الغير مشبعة عند الفرد .
- ما هو رأي الفرد بوسطه السياسي .
- ما هو السلوك الذي ينتج عن كل ما سبق .

في الحقيقة لا نستطيع أن نقف في وجه الاتهامات القوية التي تقول أن تحديدنا السابق لا يمكن أن يشمل كل ما يتعلق بالبعد النفسي للظواهر السياسية . . . هذا صحيح . . ولكن سبق لنا في البداية أن قلنا بأن للسيكولوجيا السياسية تعريف واسع وغامض وغير محدد ، وأنها في شروطنا الحاضرة على الأقل ـ لا يمكن أن تشمل كل العوامل النفسية المتعلقة بسلوك الفرد السياسي ... ولكننا حاولنا هنا جاهدين ، وفي إطار تعريفنا للسيكولوجيا السياسية كبحث في دراسة الأبعاد النفسية للظواهر السياسية ، أن نلقي الضوء على بعض العلاقات والقضايا في هذا المجال .

مراجع هذا البحث :

أولاً باللغة العربية :

١ - «المدخل الى علم النفس الجماعي» للدكتور شارل بلوندل - منشورات جماعة علم النفس التكاملي - القاهرة ١٩٥٣ .

٢ - «ما فوق مبدأ اللذة» سيجموند فرويد - ترجمة إسحاق رمزي - دار المعارف بمصر .

ثانياً باللغة الكرواتية - الصربية (اليوغسلافية):

1 — Politicka misao. b. 3/65. , 3/69. Zagreb —

2 — Ante Fijamengo « Osnove Secijologije » 1966 . Zagreb.

3 — Grupa autora « Socijalna psikologija » 1966 Beograd.

4 — Marx Karl « Rani radovi » 1967. Zagreb.

ثالثاً : باللغة الانكليزية

1 — S. Koch ; «Psychology : A study of a Science» N. Y. Mcgraw Hill, 1963 ,

2 — W. Lippman « Public Opinion» The Macmilan co. 61. N. Y.

3 — R. A. Dahl : « Moder Political Analysis » Pretnice Hall 63 .

البنيوية واللاعقلانية

انطون شاهين

ليس للتيارات الفكرية التي تطالعنا في الآفاق الغربية في الواقع **الكلمة النهائية** في تحريك الحادثات الجسام التي تندلع بدون روية، ولا في تسيير دفة المناورات الاقتصادية، التي تزخر بها السوق الرأسمالية ، لأنها لاتأخذ سمة القيادة والمنارة المسيرة الى السبيل ، بقدر ما هي **مفسرة موضحة** تواكب الظاهرات الاجتماعية والاقتصادية ، هذا اذا لم نقل ، أنها تجر ذيولها خلف تلك الظاهرات . انها تتعلق ، بدون ريب ، بأهداب البنية الفوقية للمجتمع مخلفة أثراً طفيفاً في بنيته التحتية .

إلا أنه لاينكر على الاطلاق ، أن هذه التيارات هي الثمار الحقة - فجة كانت أم يانعة ، عقيمة أم مجدية - التي **تنبئنا بطبيعة الجذر وطبيعة التربة** ، كاشفة لنا عن **حياة البنية التحتية الاقتصادية ، عن افلاسها او غناها ، عن فوضويتها أو عقلنتها ، عن برغماتيتها أو انسانيتها .**

لقد اتسمت معظم الاتجاهات الفكرية الحديثة السائدة في الغرب بطابع لاعقلاني .

هذا أدركته البنيوية جيداً ، لذا حاولت قدر الامكان عدم السقوط في خطيئة لاتغتفر ، على هذا نرى روادها يصرحون بأن منطلقهم هو منطلق عقلاني لا تاريخي .

فما هي اللاعقلانية ؟ وما هي البنيوية ؟

تنظر اللاعقلانية الى العقل نظرتها الى شيء ثانوي . فهي ، بصورة عامة ، كل اتجاه يقلل من قيمة العقل ويحط من شأنه في ميدان المعرفة ، تاركاً في نسقه الفكري فسحة للمصادفة ، مقدماً على القالب اللامعقول على المعقول .

ثمة تيار لاعقلاني يقول ، ان العقل عاجز عن ادراك المعرفة أو قادر على ادراك جزء منها . وهذه النظرة الى الحقيقة شكلت اتجاهات عديدة في تاريخ الفكر : من الريبية والسفسطائية والاحتمالية واللا أدرية قديماً ، الى المثالية الذاتية والوضعية حديثاً .

وثمة تيار لاعقلاني آخر يؤكد على أن الواقع يمكن سبر غوره وادراك كنهه ولكن بوسائل معرفية اخرى غير العقل . ان الحقيقة تكشف عن ذاتها بقوة الحدس . وهذا هو اتجاه الافلاطونية والمتصوفة والمثالية الموضوعية والحدسية .

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن الفلسفة الأوروبية ، والألمانية بخاصة : تدمغ الحدس منذ أيام شيلنغ ومنذ وضع كانط كتابه «نقد ملكة الحكم » بطابع الافضلية على العقل . ولم تجر أية محاولة رصينة للادلاء بأي سبب معرفي موضوعي يبرهن صحة هذه القضية ، على الرغم من أنها تنطوي على لحظة لاعقلانية . ولا ينكر أن معظم الاتجاهات الفكرية الحديثة تتضمن بعض لحظات لاعقلانية في انظمتها .

والبنيوية ، بمنطلقها الجريء تحاول التملص جدياً من شباك اللاعقلانية بسلوكها سبيل **التجريد العقلي** . ونراها تقنع بأن المسعى الحق للانسان العلمي المعاصر يقتضي فهم اللاعقلانية فهماً عقلانياً . ويتوجب على العلوم برمتها ، التي تبحث في الانسان، وبالتالي في المجتمع ، أن تدع مكاناً للامعقول في اطار نظامها ؛ على أن يكون هذا النظام ككل ، طبعاً نظاماً عقلانياً ، فيما يتعلق بطرائق البحث وفيما يتعلق بغائية قيام نسق فكري .

أخذت البنيوية منبعها من الدراسات اللغوية ، معتمدة على قول لغويين ،كالبحاثة تروبتسكوي وياكوبسون ، بأن أي تنقيب رصين يتناول دراسة أصل لغة وتطورها ونشوء معانيها لايمكن ان يتم على وجه أكمل مالم يعمد إلى تحديد طبيعة هذه اللغة تحديداً صائباً محكماً . فالبنيوية في الميدان اللغوي هي النظرية التي تسعى إلى **تحديد دالات العناصر المكونة للغة من اللغات ، مبينة أن هذه الدالات** المحددة من قبل

ألاعيب لفظية كالطباق والجناس ، **تنتظم في « بنى » معينة** يمكن الكشف عنها. والبنية هي عبارة عن مجموعة صلات أو صفات مسكوبة في قالب منتظم، وبتعبير أسهل هي، **العلامة اللامتغيرة الثابتة في موضوع معقد .**

ومن أهم ماتتميز به البنيوية شمولية بحثها .

ومن الممكن تلخيص النقاط العامة التي تتسم بها المدارس اللغوية البنيوية على اختلاف أنواعها في الصيغ التالية :

– النظر الى اللغة كنسق موحد ، مع الاحتفاظ بفكرة أن تحديد العلوم الانسانية لدى اتباع هذه العلوم نهجاً علمياً عقلانياً ، لايستند الى الفيزياء والكيمياء وغيرها ، بقدر ماينهض على فقه اللغة العام والدراسات اللغوية .

– اجراء عملية تحليل شامل لسبر غور اللغة حتى الوحدات الأولية .

– الميل نحو وصف يتجه شطر وصف **تزامني** اكثر مما يتجه شطر وصف **تطوري زمني** . وهذه نقطة هامة تشير الى أهمية تشريح ماهو لغوي وعلاقته بتخوم المجالات الأخرى الممكنة (كالمجال النفساني والاجتماعي والمنطقي ...) غير غافلين سعي هذا الميل الدؤوب الى فهم الواقعة البشرية ، لا كتكتل مظاهر ، انما النظر اليها كتنظيم لابد في البدء من وضعها في بوتقة التحليل ، لسبر غور آلية عملها . وعلى هذا نعيد تنسيق أجزائها المفككة ، بعد أن نضع يدنا على مفتاح اللغز ، بكشفنا عن البنى .

يقول **ليفي شتراوس** في كتابه « الانتروبولوجيا البنيوية » : « ليس موضوع التحليل البنيوي المقارن هو اللغة الفرنسية أو اللغة الانكليزية ، انما هو مجموعة بنى يتمكن اللغوي من التوصل اليها انطلاقاً من موضوعات واقعية تتمثل في البنية الصوتية للغة الفرنسية مثلاً ، أو بنيتها النحوية أو بنيتها الكلامية ... أنا لا أقارن بهذه البنى المجتمع الفرنسي ... انما مجموعة من البنى التي أبحث عنها في شجرة الحسب والنسب وفي العقيدة السياسية والميثولوجيا والطقوس والشعائر الدينية والفن ... »

ومما تقدم نلاحظ ان الدراسات اللغوية ، إذ تمنطقت بالنهج البنيوي ، قد توصلت الى نتائج مرموقة في مضمار بحثها . فنراها ترسم حقلاً لبحثها وطرقها ، مالبث ان اتخذ مكانة نموذج من النماذج في ميدان العلوم الاجتماعية ، الا ان المنزلة الرفيعة التي احتلتها البنيوية في وقتنا الحاضر لاتعود الى مكتسباتها في الميدان اللغوي ، بقدر ماتنبع

من كون جميع البحوث المتعلقة بتنظيم المجتمعات البشرية نظرت الى اللغة نظرتها الى واقعة أساسية لابد منها في سياق البحث السوي ، واذا كان من الصائب ان كل **مجتمع** هو عبارة عن نظام تطرأ عليه تغييرات داخلية مستمرة لا هوادة فيها ، **فلا بد أن نقرر** كما يقول البنيويون ، من أن تغير العلاقات والاشارات والرموز وتبدل المعلومات وغيرها في هذا المجتمع ينبغي أن يلقى اهمية كبرى لاتساعه وشموله جوانب المجتمع المتغير . وهنا نلمس الطفرة البنيوية في مجالها اللغوي الى مجالات حياتية اخرى، اذ أنها تستنتج مما تقدم مبدأها المنهجي الاساسي ذاهبة الى أن التغييرات الباقية التي تنال المجتمع، المتعلقة بالخيرات والخدمات (التحولات الاقتصادية) والمتعلقة بصلات القرابة **ينبغي أن تـــترجم** مباشرة او غير مباشرة **من خلال التغيير الطارىء على اللغة .**

* * *

انطلاقاً من هذه النظرة الخاطفة الى مفهوم اللا عقلانية ومفهوم البنيوية ، أرى أنه لا بد لنا من التمييز – دون الفصل – في مجال الممارسة الانسانية الحقة بين :

- **العقل التاريخي** الناظر الى الأمور بمنظار نشوئي تطوري

- **والعقل العقلاني** الناظر الى الأمور بمقاييس منطقية تتمشى والفهم السليم ، الطامح نحو كشف علاقات معقولة . وهذا الطموح يشير بوضوح، وبعد استقصاء لاغبار عليه ، الى أن كل عقلانية سائدة في الطبيعة انما هي عقلانية تتعلق بشرط او بآخر ، هي، بحسب التعبير اللوكاتشي ، عقلانية مشروطة على نحو الجملة المبتدئة (باذا) ، عقلانيـــة (اذا – فـ) .

واذا أمعنا النظر والتأمل ، نرى أن **البرهات اللا عقلانيـة** تلوح في أفق التفكير، ليس لدى الحط من قيمة العقل وقدرته على الادراك والحكم ، بل وايضا **لدى الافراط والمبالغة في العقلانية** ، وهذا نجده في موقف الوضعية المستخدمة المعاصرة . وتلوح تلك البرهات أيضاً لدى **عدم وجود منفذ إلى ايضاحات معقدة في نسق فكري** جاهز ، عجزت ملكة العقل عن حلها . وهذا مانلقاه تماماً في كتاب **ماكس فيبر** عالم الاجتماع الشهير « السياسة مهنة » حيث نلاحظ أنه لم يستطع متابعة عقلنة علم الاجتماع

السياسي حتى نهايته القصوى، فقال بسيطرة قوى خفية (حرفياً : آلهة) على الأرض. كما يلوح برق اللامعقول ، في مجال الحياة العملية ، إما سافراً أو مستتراً ، سافراً كقيام بعض أشخاص انتهت اليهم مقاليد الأمور بأعمال لاعقلانية تقوم على العنف والبطش والحديد والنار ، كأعمال مارا و روبسبير في طوفان الثورة الفرنسية ، وأعمال زعيم الرايخ الثالث هتلر في غمرة الحرب العالمية الثانية .

أما في العصر الحديث ، في مجتمع الرأسمالية المتأخرة والتصنيع العالي ، فقد اتخذت اللاعقلانية قناعاً مزيفاً استترت خلفه .

إن سيطرة اللاعقلانية في المجتمعات الغربية ترجع إلى أسباب اقتصادية ترتكز بدورها على أساليب المناورات والتلاعب في أمر العرض والطلب وسياسة فضل القيمة النسبي . وهذه المناورات لاتبقى منحصرة في مجال اقتصادي بحت ، إنما تمتد لتشمل مجالات أخرى . إنها تنطلق من دعاية لبيع التبغ والعطور والسجائر حتى انتخاب رئيس الجمهورية . انما في الواقع لاتكمن غاية هذه المناورات ، كما يظن معظم سليمي العقول ، في اخبار المستهلك عن أفضل عطر أو ألذ لفافة تبغ ، انما يرمي من ورائها الى استهواء عقلية الجماهير (والعمال بصورة خاصة) واشغال وعيهم في أمور استهلاكية تشكل حاجزاً فاصلاً بين وجودهم الانساني ككائن منتج وبين حياة تزخر بالمعاني ، وتبعدهم عن دائرة التأمل والتمعن وتسليم ارادتهم بالتالي لخلق مثل تلك الحياة الزاخرة اللائقة بالانسان المنتج . على هذا نشاهد ، والوقائع تثبت ما أقوله يومياً، ان فئات عديدة مختلفة ، منتمية الى مجتمعات الرأسمالية المتأخرة تنتقل تدريجياً ، بفعل وطأة القمع والكبت ، ووطأة العمل التقني الروتيني ، وصفاقة السياسة اللاانسانية المستبدة ، من حضن الدين الى حضن الالحاد الديني الى مجاهل السحر الأسود إلى مهاوي المخدرات .

في وسع المرء تعظيم النبع اللاعقلاني ، وصبغه بصبغة سحرية رمزية ، كما نجد هذا واضحاً في تيار فكري حديث يشق دربه في الأفق الأميركي على يد نورمان براون(١) ومن الممكن ، في بعض الأحوال ، الاعتماد عليه بطريقة واعية هادفة منظمة ، لوضعه في

---

(١) نبي الرؤية الأميركية نورمان براون : المعرفة عدد ١١٣ — ١٩٧١ .

خدمة أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية ، قد تكون تقدمية ثورية كما قد تكون رجعية محافظة . لكن علينا ألا يغفل عن بالنا أن **قوة اللامعقول** عندئذ – في مجتمعات تود التملص من عبء المسؤولية – **تغدو بمثابة دفع بالغيبة لتبرير** نمط اتجـاه اجتماعي أو سياسي ولتبرير الطرق المتبعة والأهداف المنشودة التي هي حقاً في نظر العقل فوضوية غير معقولة ، لا تقف أمام أي تمحيص وتدقيق ورقابة نابعة من إنسانية مسؤولة تنطلق من عقلنة الأمور بدلاً من اعتناق شريعة الغاب . تماماً – ولا ضرب مثلاً يعرفه الكل – كموقف الولايات المتحدة واسرائيل وجنوب افريقيا من قضاياهم ، قضايا سيطرة اللاعقلانية العائدة إلى الاقتصاد الاستهلاكي المتبع اسلوب المناورات وقضايا تفكك خلاياهم الاجتماعية من جراء السياسة العنصرية ، وقضايا ضربهم التقدم التحرري للشعوب المختلفة إنما وجـد ركضاً خلف تطبيق سياسية برغماتية قائمة على الفردية والأنانية والمنفعة . إنها لاعقلانية عبثية فاشية تطرح ظلها على الرأسمالية المتأخرة .

والآن لابد من القاء مزيد من الضوء على البنيوية وعلى مؤسسيها كالعلامة اللغوي **سوسور** والمفكر البنيوي **ميشيل فوكو** والبحاثة في عـلم الشعوب والسلالات **كلود ليفي – شتراوس** . ومن أفضل ما كتب حول هذا الموضوع مقالة قيمة طويلة للمفكر الألماني المعاصر **إيفو فرانتزل**[١] تحت عنوان « ملامـح من البنيوية » ، وما حثه على كتابتها هو نقل كتب المفكر فوكو إلى الألمانية ، ككتاب « تاريخ الجنون » الصادر عام (١٩٦١) واثر صدوره احتفلت الأوساط المثقفة في فرنسا بفيلسوف البنيوية بلا منازع ، وكان فوكو آنذاك يناهز الخامسة والثلاثين من العمر ويشغل منصب مدير المعهد الفرنسي في مدينة هامبورغ ، في شمال ألمانيا . وبعد ظهور كتابه هذا والاحتفاء به كعلم من أعلام الفكر البنيوي عـين أستاذاً للبنيوية في جامعة كليرمون – فيرون . كما أعلنت دار نشر فرانكفورت عن صدور ترجمات ألمانية لمؤلفات فوكو الأخرى الهامة :

---

١ – هو أديب وناقد معاصر ، ولد في دسلدورف (١٩٢٤) ، وكتب مقالات عديدة حول مشكلات الفكر المعاصر . وتتميز تفسيراته بقيمة موضوعية خاصة . بعد الانتهاء من دراسته – كان قد تتلمذ على يد الفيلسوف الكبير نقولاي هارتمان – وتعيينه معيداً للفلسفة بجامعة كالسروة ، أشرف على بعض دور نشر علمية وأدبية وعلى برامج ثقافيـة في الاذاعة والتلفزيون . من كتبه (ديكارت) و (نيتشه) .

«الكلمات والأشياء» (١٩٦٦) و «أثريات المعرفة» (١٩٦٩) . ويقول **فرانتزل** مبيناً الدافع الأساسي لكتابة مقالته : « ويبدو أن الزمن العصيب قد حان للوقوف أمام موجة التحدي المتفاقة لهذا التيار الفكري ، مما يرغمنا على مجابهة مثل هذه النظرة الفلسفية إلى الكون ، التي تناهض المعاني الانسانية مناهضة قصوى » . وقد عمدت إلى تلخيص مقالته الرائعة ، فهو يكتب :

إن كلمة « **الوجود** » السحرية التي صاغها (**كيركغارد**) والتي أسبغ عليها (**سارتر**) خلال نشوب الحرب الدامية وفي خضم المقاومة الفرنسية ، معنى جديداً غير متوقع ، قد اصطدمت ، في الوقت المعاصر بمفهوم جديد ، يزحمها ويقلص من ظلها ، ألا وهو مفهوم « **البنية** ».

ويبدو أن « البنيوية » – هذه النزعة التي ترعرعت وصلب عودها قبل حوالي العشرينات كاتجاه فلسفي جديد ، كتيار فكري بعامته – قد بلغت الذروة في الوقت الراهن . ومن العسير ، على أي حال،أن نتصور أن هذه الحركة ستقتحم مجالات أخرى غير تلك التي تبسط ظلها عليها . ومما لا شك فيه ، أن موجة البنيوية قد انطلقت من المناخ الفرنسي لتجتاح الأفق الألماني وتراها تغدو بدعة فكرية من البدع السائدة المسيطرة فالفئة الشابة من أساتذة جامعيين وقسم من طلابهم راحوا يتدارسونها في الجامعات .

إلا أن ميلاً كهذا الميل الأساسي المعاصر ، لا ينم عن تعلق بأشياء ظاهرية فحسب، بل يشير إلى أن ثمة اتجاهاً فلسفياً قد نفذ إلى حيز الوعي العام، فهو لم يبق ضمن إطار نقاش يجري بين فلاسفة مختصين . وصفوة القول إن هذا الميل يشير إلى انبثاق نظرية فلسفية لا بد للتاريخ الفكري من دفعها بطابعه ، اذ يبدو أن هذه النظرية قادرة على تفسير حاضرنا في البرهة التاريخية الملائمة ، والقاء ضوءه عليه ، بشكل يجعلنا نشعر وكأننا في تجاوب مع ما تعرض من آراء ، وكأننا نتلمس الطريق الى فهم ذواتنا من خلالها .

قد قرعت ساعة الوجودية إبان الاضطرابات العنيفة التي واكبت الحرب وأيام ما بعد الحرب ، يوم شاهد الانسان نفسه أمام مخاطر جسيمة من تشرد وهرب وسجن واعتقال مطروحاً في شاطىء العدم أمام حطام المدائن إبان كان الجوع ينهش الناس – يوم كانت المسألة تدور حول البقاء على قيد الحياة، حول الوجود العاري . وبخط مماثل نجد ان مدرسة فرانكفورت الاقتصادية قد نالت شعبية ، عندما ظهرت مجتمعات الوفرة في الغرب بانتاجية موجهة للاستهلاك بوضوح كبير ، وادت الى عدم مساواة اقتصادية واجتماعية

في العالم ، ومع وجود ظاهرة النظم الاقتصادي هذه كانت الساعة قد حانت لنشوء نظرية نقدية للاقتصاد في جامعة فرانكفورت ترفع علم الكفاح ضد الرأسمالية المتأخرة .

واذا تتبعنا آراء (**لوسيان غولدمان**) نجد ان ظهور البنيوية يتلازم مع المرحلة الحالية للرأسمالية « المنظمة » ، فنراها تود أن **تحل محل تلك الفلسفات** التي اما انها اتجهت وجهة الخوف والموت ، واما انها اتجهت وجهة آمال تاريخية متعالية **منطلقة من تفكير عقلاني لا تاريخي** . الا أن البنيوية « تختلف عن مذهب عصر التنوير العقلاني ... بالتنازل عن القيم الانسانية والانفرادية ، هذه القيم التي كان يتسم بها المذهب العقلي القديم . » (غولدمان) .

ترى ماهي البنيوية؟ والى أي ظرف يعود فضل نشوء معناها ؟ ولماذا لا نعلم الا العلم اليسير عن تيار فكري زعم لي (غولدمان) في حديث دار بيني وبينه ، انه قد احدث مناخاً فلسفياً في أرجاء فرنسا ، لم يحدثه أي تيار آخر منذ أيام (ديكارت) ، أي منذ ثلاثة قرون ؟

قد تقع اللائمة على العقبات اللغوية جزئياً . ان اللغة ولا شك ، تشكل عاملا عائقاً ، بيد انها ليست السبب الوحيد في هذا المجال . لأننا نرى مثلا ، أننا قد تعرفنا بمؤلفات (سارتر) في حينها نسبياً ، وبالمقابل نجد ان دراسات علمية متفرقة زهيدة كرست للنصوص التي تعالج الاتجاه البنيوي ليس إلا . وعلى الرغم من أن هذه النصوص تشتمل معظمها على معلومات جد" مشخصة ، يبدو ان النظرية التي انطلقت منها هذه النصوص أو التي تحاول ان تثبتها ، هي نظرية لا شخصية بنوع فريد للغاية ، نظرية **سداها التجمد ولحمتها التجريد** .

واذا أردنا ابراز الميزات العامة ، التي يتجلى بها منهج المذهب البنيوي ، هـذا المنهج ، الذي يلقى في فرنسا حالياً مكانة مرموقة ، متخذاً نهج علم نظامي ، كعلم الشعوب وعلم الاجتماع والفلسفة والتحليل النفسي وعلم الآداب ، يمكن الادلاء بهذه العلائم بخاصة :

ينطلق المفكر البنيوي من معرفته ان الادلاء بحروف في أية لغة من اللغات لا يتحدد من خلال الشيء المشار اليه (من خلال المعنى) . [هـذا] يعني أنه ليس **ثمة علاقة طبيعية ماثلة بين الصيغة الصوتية لكلمة من الكلمات وبين معنى هذه الكلمة** . هذا الأمر يثبته تعدد اللغات ، فنحن نجد ان شيئاً بعينه يمكن التعبير عنه

بلفظات ذات صيغ صوتية مختلفة كل الاختلاف عن بعضها . وهذا لا يصدق على صعيد مقارنة كلمات لغات اجنبية ببعضها فحسب ، بل أيضا لدى مقارنة كلمة تنتسب الى اللغة الأم بمترادفاتها (١) .

ان منطلق التفكير البنيوي بكامله مبني على أساس هذا التمييز القائم بين الصيغة الصوتية والمعنى . وبامكاننا اليوم معرفة المفكرين البنيويين ، مهما يكن اتجاههم ، من خلال تمييزهم بين الرمز والمغزى ، بين اللفظة والمضمون ...

ان الاشارات الدالة على معنى ما ، أي تسمية شيء من الاشياء ان هي الا اصطلاح لغوي ، وهذه الاشارات لا تعدو عن كونها رموزاً ، أحرفاً . أرقامـاً ، علامات مصطلح عليها في العلوم الرياضية ، كما أن ثمة طقوساً معينـة في بعض الأديان تلجأ الى استعمال الرمز والشيفرة لتتمكن من ايجاد لغة تفاهم مع الواقع ، بيد ان هذه الرموز لا تتطابق مع الواقع ولا تماثل . ان البيئة التي ينهض عليها الواقع الاجتماعي تغاير بنية وسائل الاتصال ، التي تقرب الصلة بيننا وبين الواقع . لكن أي نوع من العلاقات (أو البنى) القائمة بين اللفظة ومعناها ، يتكشف لنا عن حقيقة التلاؤم ؟ انها لمسألة قديمة ، لاقت أهمية كبرى في الميدان الفلسفي ، وقد تضاربت الآراء في الاجابة عنها وتشعبت ، منذ تفتقت قريحة (افلاطون) عن اسطورة الكهف الى ارساء عهد الوضعية المستحدثة وانبعاث الماركسية . ومدار الأمر في هذا الحقل ، يتمثل في الجدل السحيق حول الفكرة والواقع ، النظرية والممارسة ، الشكل والمضمون ، المبنى والمعنى . والمشكلة ليست مشكلة تدور في فلك نظرية المعرفة ، في المعنى الحصري للكلمـة ، كما ظنت الفلسفة طوال القرون الخوالي ، انما هي مسألة محورية تطمح نحو استيعاب انساني للعالم .

ان **الحافز الرئيسي** الذي فتح المجال أمام هذا النمط من الرؤية البنيويـة ، **أيقظـه اللغويون** . فالتغييرات العميقة لم تحصل فقط في الأفق الفرنسي خلال العشرينات المنصرمة ، ذلك أننا نجد ، ان الكتاب الرومانسيين ويعود اليهم الفضل الاكبر لخوضهم غمار البحوث اللغوية – كانوا ينظرون الى اللغة على انها ظاهرة تاريخية . وقد سلك **فريدريش شليغل** واتباعه نهجاً نشوئياً . وأدت الطريقة النشوئية في القرن التاسع عشر الى ازدهار البحوث النحوية التاريخية والى وضع معاجم تبحث في أصل الكلمات وتطور معانيها . فالظاهرة اللغوية لا تأخذ طابع الوضوح والجلاء ، ما لم تدرج في سياقها التاريخي ، ما لم يحدد قيمة مكانتها الزمنية بالنسبة الى اللغة الأم وبالنسبة الى اللغات الأخت .

لقد فهم اللغوي السويسري (**فرديناند دي سوسور**) تاريخ لغة من اللغات في مؤلفه « محاضرات عن العلوم اللغوية العامة » على انه ثمرة نظام متفاعل . فسؤاله الأساسي لم يعد يتلخص في « ما هو أصل لغة من اللغات ؟ » وإنما في **« ما هي بنية لغة من اللغات ؟ » « و كيف يتمكن المرء من وصف هذه البنية ؟ »** وفرق (سوسور) بين اللغة والتكلم والقدرة على التعبير . وأوضح (مانفريد بيرفيش) في المجلة الألمانية (كورسبوخ) ، العدد الخامس ، (آراء سوسور) مدلياً بمثال لعبة الشطرنج قائلاً : « ان اي عنصر من العناصر المكونة لهذه اللعبة اي الرقعة والشخوص ، ليس هو محدداً من خلال الشكل المجسم ، انما من خلال الدالة ، من خلال القيمة التي تسبغ على الشخوص ، وهذا الاسباغ عائد الى قواعد اللعبة وأصولها » .

انبعثت المفاهيم الاساسية والمنهج المتبع في الاتجاه البنيوي في مدرسة اللغويين في جنيف ، التي أرسى أسسها اللغوي (سوسور) . وقد جذب هذا المنهج أتباعاً في مدينة براغ وفيينا وفي أوروبا الشرقية وأخيراً في الولايات المتحدة . وكذلك اثرت هذه الطريقة على الحركة « النقدية الجديدة » في الادب في غضون الثلاثينات والاربعينات كما اثرت على أعمال (أرنست روبيرت كورتيوس) و (فولفغانغ قيزر) . وليس من من الممكن دفع الحركة البنيوية في فرنسا بطابع بضاعة مستوردة فات أوانها . ذلك ان المنهج المتبع هنا ، لا يطبق فقط في الميدان اللغوي فحسب ، بل يشمل ميادين العلوم العقلية والعلوم الاجتماعية كافة .

ومن جملة المكتسبات التي احرزها علم اللغة المعتمد على الاتجاه البنيوي منهجاً ، هو تأثيره حالياً على (**كلود ليفي - شتراوس**) البحاثة في علم الشعوب والبالغ من العمر ٦٢ عاماً . أدرك (ليفي - شتراوس) قيمة الطابع البنيوي بالنسبة الى الظاهرات الاجتماعية . ويرى (كونتر شيفي) ان كتاب (ليفي - شتراوس) الذي يعالج البنية الماثلة بين علاقات القرابة ، هو بحق علامة حاسمة تشير الى صعود البنيوية ولمعان نجمها في سماء الفكر .

البنية مكونة من جملة صلات . البنية عبارة عن ركيزة حالة شيء من الاشياء ، هيكلها ، انها المبدأ ، الذي تنهض تلك الحالة عليه ، وتخضع له وتتكيف به . عندما يدرس مثلا (ليفي - شتراوس) علاقة القربى الماثلة في حضارات عديدة ، محاولا اقتفاء اثر أسرار الفسق بذوي القربى ، ينهج نهجاً بنيوياً ، منطلقاً من ان تعليل وتفسير ظاهرة

التدنيس بالمحارم في مجتمع ما قد يختلف عن تعليله وتفسيره في مجتمع آخر . واغلب الظن ان ظاهرة التدنيس هذه تعود الى اعراف اجتماعية ، ومن ثم يكتشف أن مكنون واقعة التدنيس بالمحارم يتمثل في مبدأ المقايضة ، الذي يسلم به كبنية أساسية لمسلك كل مجتمع معروف ، وبالتالي فان فكرة البنية تتخذ حجماً ثابتاً ، لا يتحول ولا يتبدل مع تغير الظاهرات وتبدلها ، بل انه يبقى أساً في عملية التطور .

على هذا ، فان (ليفي - شتراوس) احرز نجاحاً باهراً ومكانة مرموقة بين صفوف البنيويين أجمع . ومالبث أن اتسع افق ابحاثه ليتناول موضوعات كموضوع التوطمية ، وفكر الشعب البدائية ... ويصطبغ ابحاثه دوماً بعملية منهجية تتكون من شطرين رئيسيين ، من تفكيك وتقسيم واعادة تركيب وتأليف بين الاجزاء . وقد حدد (رولان بارت) ذات مرة هدف نشاطه على الصعيد البنيوي بقوله : « ان هذا الهدف يسعى الى اعادة صياغة موضوع ما ، على نحو يوضح لنا ، بموجب اية قواعد يسير عمل هذا الموضوع بعد الانتهاء من اعادة صياغته » .

ان الطابع الوَسَلي الوضعي للاتجاه البنيوي هو جلي من خلال هذا التعريف ، كما هو جلي في الدراسة التي قدمها ليفي - شتراوس بتكليف من الأونسكو قبل سنوات ، تحت عنوان (رياضيات الانسان) ويرى في هذا الكتاب « انه ينبغي تثوير العلوم العقلية باتباع طرائق البحث السائدة في الاتجاه البنيوي ، تلك العلوم التي لم يعد ينظر الى امر صياغتها في لغة رياضية على انه وهم وخيال ، منذ وجود الآلات الحاسبة . ان صب الامور في قالب كمي ، والكشف عن الحجوم القابلة للقياس في خضم هذا التثوير ، واتباع المنهج البنيوي ، كل هذا يتمتع بأفضلية على المقولات النوعية . وانطلاقاً من هـذا المنظور ، فالبنيوية هي المحاولة الحاسمة الملائمة للعصر التي تسعى الى تحرير العلوم العقلية من الطابع التاريخي ، فالمسائل المطروحة من زاوية تشوئية تعد ، على الصعيد البنيوي ، مسائل عقيمة غير هامة . فالبنيوية ليست علماً تفسيرياً ، علماً يبحث عن كنه الوقائع ، انما هو علم يعتقد بوجود تركيب ثابت عن الوقائع ، تركيب يقع عليه حل رموز التصميم البنيوي لهذه الوقائع . وهكذا تحل مقارنة بنية ببنية بدلاً من الرؤية التاريخية الشاملة الى الكون . بالمقابل نجد أن السؤال عن أصل التاريخ وهدفه لايشكل بحسب النظرة البنيوية ، سوى جزء من تأملات ميتافيزيائية غير مجدية .

مما لا شك فيه ، أن البنيوية ، بتركها المقولات الواقعة تحت وطأة ميتافيزيائية ، قد اكتسبت ، في مضمار كشفها عن الوقائع ، نوعاً من النزاهة وعدم الانحياز ، واتخذت

موقفاً يكاد يكون محايداً فيما يتعلق بمكنونات حالات الاشياء ، التي تحاول الكشف عنها . على الرغم من ذلك نجد أن روح العداء ، التي تشبث في نفوس مفكرين بنيويين مرموقين، والتي يزداد أوارها يوماً فيوم ، ازاء التاريخ ومنبعه وغايته ، تشير الى أن ذلك البعاد عن المقولات الميتافيزيائية الذي من مزاياه اجراء البحث في كنف الموضوعية ، قد ارتبط لديهم بقدر لا بأس به من التحجر الفكري والعجرفة والغطرسة .

يعتز (ميشيل فوكو) قائلاً : « إن الاستغراق في بحر الأحلام الكبرى ، الساعية خلف هدف التاريخ يعد طوباوية يتيه في جنباتها التفكير المتعلق بأهداب مبدأ السببية ، كما أن الحلم بالبحث عن اصول التاريخ كان يعد طوباوية يتشبث بتلابيبها الفكر المصنف » . وهذه الأوهام الطوباوية الخيالية تنفي وجود الانسان مكبلاً في سجن ، طالما أنه لم يسبر غور البقيء في مرآة اللغة ، التي تخضع لها وجوده الزمني . ويقول (فوكو) في كتابه (الكلمات والأشياء) : « لم يصل الانسان الى ما وصل اليه ، الا بفضل خداع ذاتي » .

في مؤلف (فوكو) (الجنون والمجتمع) يبدو الجنون كظاهرة اجتماعية ، حيث لا يمكن الفصل تماماً بين الجنون والعقل ، بين اللامعقول والمعقول ، فهما قرينين متشابهين . ولا يعد الجنون ، في نظر (فوكو) ، مرضاً بقدر ما هو نوعاً آخر من أنواع المعرفة ، إنه عقل مضاد ، لا يمتلك لغة خاصة ، إنما يلوذ بصمت فريد . لذا ، نحن لا نعلم سوى ما يمليه العقل علينا حول ظاهرة الجنون ، ولا نعلم ما يمكن أن يدلي الجنون به حول العقل . وهذا الجانب الأخير يمكن وصفه وصفاً بنيوياً ليس إلا . وعلى هذا المنوال يعيد صياغة عوارض الجنون وعلائمه في كتابه المذكور آنفاً سالكاً في بحثه طريقة « التحليل والتنسيق » نازعاً من فكره زيف الاحكام المسبقة ، معتمداً على وثائق تعدو إلى القرن السادس عشر وتمتد حتى القرن الثامن عشر . ولم يسلك هذا النهج ليسرد لنا الحوادث الممتعة المسلية ، انما كي يميط اللثام من الخلفية اللاعقلانية المأساوية للوجود الانساني ويحل رمز « البنية المأساوية » التي يفرض عليها العقل بنيته العليا حاجباً امكان ادراكها . ونجد أن ، منذ أواخر القرن الثامن عشر لم تعد تتجلى حياة اللامعقول إلا على شكل ومضات خاطفة يلمع بريقها في مؤلفات عباقرة أمثال (هولدرين)

و (نوفال) و (لنيتشه) أو (أرتو) ... « هؤلاء العظماء الذين قاوموا، معتمدين على قوام وقوام فحسب ، جبروت الوجود الخلقي والعيش في كنفه أشبه بالسجناء » كما يرى (فوكو) موجزاً .

ويحسب المرء أن هنالك مفارقة ، إذ يشاهد أن (ديونيسيوس) و (نيتشه) قد رفعا الى مصاف رائدين من رواد الحركة البنيوية واحتلا أمكنة (بارمنيدس) و (ديكارت) ، اللذين يعدون أم رائدين من رواد البنيوية بلا منازع ، بيد أن هذه المفارقة الوهمية تعود الى تفسيرات ذات مستويات مختلفة . ان التبحر في الديمومة الثابتة اللامتغيرة و التمعن في قانونيتها ، وفي صدق هذه القانونية ينعكسان ، ولاشك ، على المنهج المتبع في البحث البنيوي . فيشاهد أن عملية ابراز عناصر اللامعقول وتوضيح هذه العناصر – أي العناصر المشخصة التي لم تصنفها الفئة في تنسيق محدد – تؤكد على مفهوم للواقع ، يتخذ طابعاً لاخلقياً مجرداً من كل قيمة .

أول من انتقد هذه النظرة الى العالم هو الفكر الماركسي . فالعالم الاجتماعي (هنري لوفيفر) وصف البنيوية بانها « ايديولوجية التوازن بين القوى المتصارعة في العالم الحديث » وبانها « ايديولوجية المنادأة بالبقاء على الحالة الراهنة » ، وبعضهم يقولون « انها ايديولوجية التعايش السلمي وتثبيت بنية العالم في ظلال السلام . ومن الممكن دحض رأيهم بقولنا : (ان الذين يؤمنون بهذه الايديولوجية وينظرون اليها على انها راسخة البنيان بالبرهان هم اولئك الذين يستحوذ عليهم القلق والخوف من أعاصير تغيير يقلب حياتهم ويستأصل جذورهم وهكذا يسعون أبداً إلى المحافظة على الامور باوضاعها الحالية . لاشك في ذلك ، فهذا يناسبهم ! على هذا نجدهم يتمسكون بمبدأ البنيوية الداعي الى « صب المجتمع في هياكل ثابتة » كي يحافظوا في نهاية المطاف على نظامه وترتيبه القائم) .

إلا أن ثمة فئة يسارية حاولت الاستفادة من الطريقة المتبعة في الاتجاه البنيوي . كما بالمقابل ، نجد ان معظم رواد البنيوية يشعرون بميل يجذبهم نحو الماركسية ، ونذكر منهم على سبيل المثال (ليفي شتراوس) و (بارت) و (التهوسر) و (سيباك) (وغولدمان) .

وبلغت المناظرة الذروة في الجدل العنيف الذي دارت رحاه مع (سارتر) :

يقول (فوكو) منهجماً «... ألا إن المذهب الانساني هو الذي يجب أن يدمغ بطابع التجريد ، والبعد عن الواقع ! قل ، مامعنى هذه التأوهات والآهات الصاعدة من القلوب ، وما معنى كل هذه المطالب التي ينادي بها الفرد الانساني ، والنداءات التي يطلقها الوجود ؟ إنها كلها امور مجردة ؛ هذا يعني أنها بعيدة عن الأفق العلمي والتقني ، معزولة عنه . هذا الأفق الذي يعد ، والحق يقال ، عالمنا الحقيقي . » إن هجوم (فوكو) هذا مصبوب فوق سارتر وجيله الوجودي . فالانسانية السارترية ، التي تاقت الى الحرية المنعتقة من كل قيد وسط صحاري الحطام والركام الذي خلفته الحرب الضروس الاخيرة ، والتي وقفت وقفة المدافع عن الوجود الانساني معلنة ان هذا الوجود لايزال يحمل معناه في ذاته ، وإن تهدمت عمد الانظمة التي تحيط به برمتها ، وتلاشت قيمها ، غدت ، في نظر المفكرين البنيويين الشباب ، أشياء مجردة لايمكن استيعابها .

ورد (سارتر) على هذه الهجمات الناقدة في مجلة (لارك العدد ٣٠) بقوله «إني لا أقارع وجود البنى كما لا أنادي بضرورة تحليل آليتها وسير عملها . ولكن ارى ان البنية عبارة عن برهة تحمل في ذاتها عنصر تحول من الوجهة العملية . . . » وأكد (سارتر) معتمداً على خبرته في الفلسفة الوجودية وكذلك على المعلومات التي استقاها من معين الهيغلية والماركسية « إن مايصنعه الانسان إنما هو التاريخ بعينه ، انه التخطي الفعلي لهذه البنى في خضم ممارسة شاملة كلية . وما المفكر الاصيل سوى ذلك الذي يحاول صياغة هذا التخطي في قوالب فكرية » .

على هذا لابد لنا من طرح تساؤلات هامة تحوم حول البنيوية ؟ تساؤلات تنطوي على شك يود الوصول الى اليقين .

ألا تبالغ البنيوية في قدرتها على ترجمة التغييرات الاقتصادية والاجتماعية من

---

(١) ان الصيغة الصوتية للفظة (أسد) تختلف عن الصيغة الصوتية للفظة (غضنفر) و (ليث) وهكذا . على الرغم من هذا فكلمة (أسد) و (غضنفر) و (ليث) مترادفة ، كذلك لفظة (الطريق) قد يستعاض عنها بلفظة (السبيل) او (السراط) ... بالمقابل نجد ان الصيغة الصوتية ذاتها لها معان عديدة .

خلال تحليل التغيير اللغوي ، عندما تنطلق من اطارها اللغوي لتشمل المجالات الأخرى؟ ألا تتجاوز حدودها ؟

ألا نراها تقف عاجزة عن الكشف عن الاسباب ؟

ألا نرى أنها قد حادت عن المسلك القويم العقلاني بمجرد انها تجردت من رداء التطور الزمني وخلعت عنها غلالة التاريخية غير عابئة بأصل التاريخ وغايته ؟

أليس من الافضل لو انها انطلقت من منطلق عقلاني تاريخي ؟

ألا يتضمن التاريخ البشري لفظتي الزمان والمكان ، وهل بامكاننا بنيان صرح فكري شامل وتفسير الماضي ومستقبل الانسانية بتجردنا عن المكان والزمان والتاريخية والتقوقع في برج فكري لا تاريخي ؟ !

والبنيوية مذ رسمت خطها الفكري ، نادت بالمعقول . وبهذا نراها قد تمسكت بالنقطة الاولى التي ذكرتها في سياق الموضوع ، اي العقل العقلاني ، متجاهلة العقل التاريخي . انها نادت بالعقلانية خوفاً من السقوط في ثغرات لاعقلانيـــة وقعت فيها معظم التيارات السائدة ، كما رأينا . وتجاهلت التاريخ وصراع الطبقات خوفاً من التقاء لابد منه بالاشتراكية العلمية .

ان البنيوية قـد اهملت ، ولاشك ، جانباً هاماً في خضم بحثها الكلي وهو العقل التاريخي ، الزاخر بالمعاني .

أدب

مرثية اللص الجميل

أحمد عبد المعطي حجازي
القاهرة

نشرت (المعرفة) في العدد السابق القسم الاول من دراسة الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي . وقد عرض فيه رثائية مالك بن الريب المازني لنفسه ولخص سيرة هذا الشاعر البدوي. وفي هذا القسم يستنطق الشاعر احمد عبد المعطى حجازي القصيدة ، لتروي لنا سيرة صاحبها بلغتها الخاصة .

الواقع أن القصيدة تقول هذه السيرة ذاتها لكن بلغتها الخاصة .

ولغة الشعر قادرة على أن تجرد السيرة الشخصية من شخصيتها وأن تقدمها كتجربة انسانية تعرض لكل انسان مهما كان زمانه ومكانه ، ذلك أنها تحول الخبرة الحية الى فكرة دون أن تفقدها حيويتها وطابعها الذاتي الحار .

واذا كنا قد طلبنا في السيرة أن تضيء لنا بعض جوانب القصيدة، كما هو منهجنا في قراءة الشعر دائماً ، فنحن ايضاً ننظر للسيرة في الضوء الذي تلقيه القصيدة عليها ، بل لقد فعلت أنا ذلك مقدماً ،فليست هذه الرؤية التي رأيتها في مالك الا ما أوحى به تأملي في أخباره وشعره وبالأخص قصيدته التي نتأهب الآن لدخول عالمها . لكن السيرة في النهاية تظل سيرة ، والقصيدة قصيدة . ولقد تختلف القصيدة عن السيرة وكثيراً ما يحدث . ومع ذلك يظل مرجعنا الرئيسي في فهم القصيدة هو القصيدة ذاتها ، لأنها هدفنا الرئيسي كما أنها هدف الشاعر الرئيسي . فالشعر هو الشهادة الأصدق ، وهو الحياة الأجمل التي يخلقها الشاعر على هواه ، وهو العالم الذي يراه الشاعر أكثر نظاماً ودفئاً وقرباً ، أو ليس من حقنا أن نفسر الاستهلال الشعري التقليدي عند الشعراء القدامى « ألا ليت شعري » في هذا الضوء، فنرى غير ما يراه المفسرون اللغويون الذين يقولون ان ليت شعري معناها ليتني أشعر أو ليتني أعلم جوانب السؤال الذي يطرحه الشاعر عادة بعد هذه الكلمة، ونقول نحن ان هذا هو المعنى القريب وهو معنى مقبول . لكننا نرى فيها معنى آخر يدلنا عليه أننا نفهم كلمة « شعري » هنا بمدلولها الاصطلاحي فيصبح معنى هذا الاستهلال هو « ليت الشعر الذي اكتبه هو العالم الذي أصفه » ، أو بصيغة أخرى « ليتني أبني العالم في الواقع كما أبنيه في القصيدة » .

وربما قيل لي انك تحمل الكلمات ما لا تحتمل ، وتنطق بدو القرن السابع

الميلادي بما يقوله القرن العشرون من نظريات الجمال والنقد، وأنا أقول بل أنطقهم بما تعلمته منهم وان لم يقولوه ، فالجمال هو الجمال وان تعددت اساليب الوصول اليه واختلفت صوره وأغراضه ، واشواق الروح الانسانية أشواق قديمة عرفها البدو كما عرفناها ، والأثر الفني هو افضل ناقد لذاته وأفصح ناطق عما يتضمنه من قيمة. وبقدر ما استطاعت قصيدة مالك أن تبقى لنقرأها نحن في هذا العصر ، بقدر ما تتضمن من قيم فنية وفكرية تشغل هذا العصر .

ولنعد الى القصيدة لنسأل بعد « ألا ليت شعري » عن هذا الغضى الذي تمنى الشاعر أن يبيت ليلة بجانبه يسوق ابله الفتية السراع ، والذي يكرر لفظه تسع مرات في خمسة أبيات لا يكاد يبقى من معانيها وصورها الا كلمة الغضى المتكررة ينبض ضوؤها في بؤرة كل صورة .

ألا ليت شعري ! هل أبيتن ليلة	بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه	وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى	مزار ، ولكن الغضى ليس دانيا
وليت الغضى يوم ارتحلنا تقاصرت	غصون الغضى حتى أرى من ورائيا
وليت الغضى والأثل لم يلبثا معا	فان الغضى والأثل قد قتلانيا !

والغضى شجر ينبت في الرمل ، وأوراقه صغيرة كالهدب ، وهو من أجود الوقود عند العرب ، وأخبث الذئاب ذئب الغضى .

ان الشاعر يبدأ قصيدته بهذا الترنم الحزين باسم الغضى ، كأنه يغرس محل كل لفظة شجرة حتى يكون له من هذه الشجرات التسع أكمة من شجر الغضى ، يقوم فيها مزجياً للإبل ، أو عاشقاً زائراً ، أو ذئباً فاتكاً . لكن هاهما شجرتان من شجر الأثل تظهران فجأة في نهاية المقطع فتنهيانه هذه النهاية الفاجعة

اذ يقع الشاعر قتيلاً . لقد اختلط الأثل بالغضى أو أغار عليه . فما هو هذا الأثل الذي قتل الغضى ؟

الأثل شجر عظيم ورقه عبل ممتلىء ، وجذع الأثلة طوال في السماء وخشبه جيد يحمل القرى ، ومنه اتخذ منبر النبي ، وأثلة كل شيء أصله ، والمؤثل الدائم الثابت .

فماذا قصد الشاعر بذكر الأثل ؟

ان الشراح يقولون انه ذكره على عادة الشعراء القدامى في ذكر الشجر والأماكن ، وهو هنا يذكره في مجال الحنين لوطنه .

واذا نحن صدقنا هذا القول في الأبيات الأربعة الأولى حيث يبدو الحنين صريحاً والصور منطقية . فكيف نصدقه في البيت الأخير الذي يدعي فيه الشاعر ادعاء خالياً من المنطق حيث يقول ان اجتماع الغضى والأثل قد قتله ؟

لابد إذن أن الأثل هنا ليس الأثل والغضى ليس الغضى ، وانما هما رمزان لشيئين اجتمعا فقتلا الشاعر أو هما روحان حلا في الشجرتين وتجسدا فيها .

وليس هذا التجسد مجرد حيلة فنية يلجأ اليها الشاعر ليكسو أفكاره صوراً مما يرى ويلمس . فنحن أمام شاعر نصف وثني . شاعر عربي يعيش في البادية التي كانت لاتزال في عصره تضج بالكائنات الجنية والمخلوقات الأسطورية والعقائد الوثنية التي عرفتها الحضارات السامية القديمة في شبه الجزيرة وأرض الرافدين والشام ، فلا عجب أن تعرف الأرواح طريقها إلى حياته وشعره .

ونحن نقرأ في « الغصن الذهبي » لسير جيمس فريزر ، أن القدماء اعتقدوا وما زال بعض المعاصرين يعتقدون بأن لكل نوع من الأشجار والنباتات والأعشاب روحه الخاص وأن هؤلاء القدماء قد عبدوا الشجر وتصوروه كائنات حية ، وفي بعض الأحيان ساد الاعتقاد بأن أرواح الموتى هي التي تبعث الحياة في الأشجار .

وكان أهالي حران الوثنيون، وهم قوم ساميون يحتفلون بالشهر الذي يتم فيه التلقيح من النخلة الذكر الى النخلة الأنثى ويسمونه « شهر البلح » ، وفيه كانوا يحتفلون أيضاً بأعياد زواج الأرباب والربات .

وشجرة الحياة المقدسة التي تحرسها الكائنات الجنية اسطورة معروفة لدى كثير من الساميين كالبابليين والعبريين ، وهي عند البابليين مزيج من نخلة ونبات مخروطي ، أما عند العبريين فهي النخلة فحسب .

ومن القليل الذي وصلنا من الأساطير العربية نعرف أن عرب الجاهلية عبدوا الأشجار وكانوا يدعون ما يقدسونه منها « شجر النبوءات » . ويروي الطبري أنهم عبدوا « نخلة نجران » . وكانت للعرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونهـا كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما . وكانوا يقدسون « دوحة العنوات » في مكة ويعلقون عليها الأسلحة وبيض النعام ، ومثلها « شجرة المناهل » كانوا يذبحون لها الذبائح ويعلقون في أغصانها لحوم الضحايا لاعتقادهم أن الأرواح تستقر بها . وكذلك اعتقدوا بالحماطة وتشبه شجر التين وهي أحب الشجر الى الحيات ، وبشجر العشر وكانت مأوى للشياطين . وفي الأغاني أن العُزّى هي شجرة كانت تعبد وقربها صنم منصوب . ويقول ياقوت عن العُزّى هي كانت لغطفان يعبدونهـا

(والسمرة واحدة السمر وهو ضرب من شجر الطلح) وكانوا قد بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة فبعث النبي خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق السمرة .

وفي رحلة قمت بها في سيناء شاهدت شجيرات الأثل وغيرها وقد علق عليها البدو بقايا من عظام ذبائحهم كما علقوا عليها السلاح والثياب .

فمن حقنا إذن أن نظن في أشجار مالك بن الريب الظنون ونرى أنها أشجار مسكونة بالارواح أو بالشياطين . فما هما الروحان أو الشيطانان اللذان يسكنان غضى القصيدة وأثلها ؟

انها الروحان اللذان قتلا الشاعر ، أو على الأصح قتله اجتماعها معا .

فكيف قتل مالك ، او كيف انتهت حياته ؟

الجواب في هذين البيتين اللذين يعقبان المقطع الأول وفيها ينتقل الشاعر من الرمز الى التعبير المباشر ويفسر لنا كيف قتل :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
وأصبحت في أرض الأعادي بعدما أراني عن أرض الأعادي قاصيا

وبعت هنا بمعنى اشتريت فالباء لاتلحق الا المتروك ، والمعنى أنه اختار الضلالة وترك الهدى حين اختار الغزو وصحبة سعيد بن عثمان وترك وطنه وحريته وسيرته في الفتك فسقط قتيلا .

وأنت تلاحظ أنه يرى في جيش ابن عفان وفي أرض الاعادي شيئاً واحداً ، فهو قد أصبح في الجيش كما أصبح في أرض الأعادي . وابن عفان وخراسان في القصيدة يقفان في مقابل الأهل والوطن والرفاق الفتاك . وأنت تلاحظ أيضاً أنه يرى في الخروج للجهاد والغزو ضلالة وليست هذه عواطف شاعر مسلم .

واذا كان الغضى في المقطع الأول هو الوطن كما رأينا فهو الهدى أيضاً .

وعندئذ يكون الأثل هو الانقطاع والغربة والضلالة ، وقد استجاب الشاعر لهذه الضلالة فمات في الغربة .

ولعله بالفعل كان يشعر شعوراً دينياً وثنياً بالذنب والخطيئة لأنه ترك الفتك الذي اعتقد أنه قدره وديدنه وسار في جيش الغزاة المسلمين . ولعله كان يجد في دوام تمرده نوعاً من الحصانة أو أن تمرده الدائم كان امتثالا لرب وثني يخلع حمايته على الفتاك كما كان الإله اليوناني القديم هرمز يخلع حمايته على اللصوص في الأساطير اليونانية . أو ليست التوبة في السلوك الشعبي قرينة النهاية واقتراب الأجـــل ، كما أن التمرد قرين الصبا والفتوة والقوة . إلا أن التمرد على قانون المجتمع هو تمرد على كل قانون حتى قانون الموت ، فما دام المتمرد وفياً لمنهجه في الحيـاة فهو بمنأى عن الفناء ، حتى اذا كبل يديه بالتوبة والكف الحسن فقد أعطى عنقه الموت .

لقد قتلته التوبة اذن ، قتله الامتثال والرغبة في السيرة الحسنة . قتله هذا العـــالم الجديد الذي باع له حريته ونفسه بالدراهم ، عالم المدن والسلطة والأمراء الذي حل في شجرة الأثل التي تتخذ منها دعائم البناء والتي صنع منها منبر النبي . بينما هجر عالمه القديم ، عالم الصحراء والفتك والفروسية والحرية والتمرد الذي حل في شجرة الغضى.

انهما روح البداوة وروح العمران ، أو هما الحرية والقانون وقد تصارعا كثيراً فلما استسلم الشاعر وحاول أن يجمعهما في نفسه سقط قتيلا بينهما . والعمران عند البدوي قرين الفساد ، والواقع ان هذه هي الفكرة الجوهرية في القصيدة .

والشاعر يحس بالندم حين يجتاحه الحنين في ذي الطبّسين ، وهو مكان

بخراسان الى عالمه الأول فيتذكر ُأودَ في بادية بني تميم ويتذكر صحبته فيها ، وحين يغلبه الوجد ويزفر حنيناً يتقنع بردائه خوف الملام أو احساساً بالعار .

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي بذي الطبسين فالتفت ورائيا
أجبت الهوى لما دعاني بزفرة تقنعت منها أن ألام ردائيا

والمكانان هنا – ُأود ، وذو الطَّبسين – رمزان آخران لروح البداوة وروح العمران . أما الرداء فهو الكفن الذي يتردد ذكره في القصيدة مرتين أخريين حين يوصي خليليه بأن يكفناه بردائه « وردا على عينيّ فضل ردائيا » و « خذاني فجراني ببردي اليكما » .

وإذ يتلفت الشاعر الى الوراء يبصر قرى الكرد وقد حالت بينه وبين موطنه . والفعل هنا «حالت» يتضمن المعنيين معاً ، فهذه القرى قامت حائلا بينه وبين وطنه ، وهي أيضاً أصبحت حائلة اللون باهتة فكأنما هي حياته التي بهتت ومراح روحه الذي يذبل ، وكأنه يمهد بهذه الصورة لصور موته المتتابعة بعد ذلك . وهو يعاهد نفسه على ألا يعود للغزو مرة أخرى مهما يكن من قلة ماله اذا سلم من هذه الغزوة ، فتحس بمرارة سخريته وعظيم يأسه من هذه العودة السالمة الغانمة ، خاصة وهو يصفح صفح المولى عن شخص اسمه عمرو لعله تسبب بصورة ما في دفعه للخروج الى خراسان ، ثم وهو يتبع هذا بالبيت الذي يحمل نبوءة ابنته بفقده :

أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا جزى الله عمراً خير ما كان جازيا
ان الله يرجعني من الغزو لا أرى وان قل مالي طالبا ما ورائيا
تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي سفارك هذا تاركي لا أباليا

وها هو يصدق في قراراته النبوءة ويستسلم لها لأنه يرى أن الموت جزاء

وفاق المذنب الذي أتاه بترك وطنه وأهله ورفاقه . لكنه يطلب لقوى الغيب التي أخطأ في حقها أن تعفو عنه وتغفر له، فان نجا فان يعود . ان لغته هنا ليست لغة فارس مقدام وإنما لغة خاطىء مستغفر، وهو يكرر هذه الصلاة مرتين في الأبيات الثلاثة السابقة وهو يقول « إن الله يرجعني من الغزو .. » وفي البيتين التاليين :

لعمري لئن غالت خراسان هامتي	لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فان انج من بابي خراسان لا أعد	اليها ، وان منيتموني الأمانيـا

وكأنه هو وحده الذي يخرج لملاقاة خراسان. وكأن خراسان لتأ كل انتظاراً طالبة رأسه وحده، إنه شعور من لا يرى بينه وبين هؤلاء الخارجين للغزو صلة . وان الشعور الوثني بالاثم والخوف لينضج من هذين البيتين . والبابان يشعرانك بالسجن أو الفخ الذي نصب له . والبابان أيضاً إشارة للنظام والعمران وانتفاء الحرية واختلاط الحياة بالموت كاختلاط الهدى بالضلالة واجتماع الغضى بالاثل . أليس أحد البابين باب الدخول المرهوب، وأليس الآخر باب الخروج الميئوس منه .

فلله دري يوم أترك طائعـا	بني بأعلى الرقمتين وماليـا
ودر الظبـاء السانحات عشية	يخبرن ، أني هالك ، من ورائيا
ودر كبيري اللذين كلاهما	علي شفيق ناصح لو نهانيـا
ودر الرجال الشاهدين تفتكي	بأمري ألا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه	ودر لجاجاتي ودر انتهائيـا

إنه يترحم على نفسه وبنيه ونساء قبيلته اللاتي يراهن ظباء تظهر في العشايا كالأحلام فهي كائنات لا تخضع لقوانين الواقع . والشاعر العربي كلما أراد أن يحرر كائناته الآدمية من قوانين الحياة والموت والضعف والشيخوخة نسخها كائنات أخرى ظباء وبقراً وحشياً وأفراساً ونياقاً وأسداً وشجراً وزهراً ونسوراً وعقاباً، فهو

لا يرى الحياة والموت والزمن والحب والبغض والسعادة والتعاسة الا في نفسه . الانسان وحده هو الكائن الذي يحيا ويموت ويحزن ويفرح لأنه الكائن الوحيد الذي يدرك ويحس . والشاعر العربي القديم، وربما كان الوثني العربي عامة، يريد أن يتحرر من كل هذا ، فهو يحلم بهذا الجمال اللاهي وهذه الغبطة القانعة وهذه الحياة التي لا تفكر في مصيرها، ولعله يتمنى وجوداً كهذا الوجود الذي تنعم فيه تلك الكائنات ، فهو يسبغه على نفسه أحياناً وعلى نسائه ورفاقه أحياناً أخرى أو أنه يرى فيه صورة للجمال الخالد والحياة الباقية ، فاذا كانت صورة الظباء السانحات جزءاً من صورة مركبة يتحدث فيها عن أبنائه و كبيريه (والديه) ورفاقه وهواه ولجاجاته وانتهائه فلا شك في أنه يرسم دورة الحياة من بدايتها الى نهايتها حيث تتألق المرأة الجميلة في هذه الدورة رمزاً للحياة الخصبة الخالدة .

إنه يترحم على عمره كله وعلى أبويه اللذين نهياه عن الخروج وعلى أصحابه الذين كان يعجبهم تفكه أي نادية فتركوا حمله على غاربه ، وربما كان مالك بن الريب أول شاعر عربي يترحم على لجاجاته ويراها مما يفخر به الانسان أمام الموت. انه يستحضر هذا العمر بكل ما فيه في مواجهة هذا الموت القانوني البارد .

وأنت تلاحظ أن الشاعر فيما سلف من أبيات وفيما سيأتي يكثر من استخدام صيغة المثنى (ذي الطبسين . الرقمتين . بابي خراسان . كبيري . يا صاحبي رحلي . انزلا . أقيما . . .) والظاهرة شائعة في الشعر القديم لارتباطها بشخصية الصاحبين اللذين يتوجه اليهما الشاعر بالحديث . لكنها في هذه القصيدة واضحة جداً ربما بسبب حاجة الشاعر وهو غريب وحيد الى التعامل مع علاقة حميمة كالتي تقوم بين الاثنين أكثر مما تقوم بين الجماعة ، وربما كان هذا هو

السبب الذي دعا بعض الشراح الى أن يقولوا أن صاحبي مالك في القصيدة كانا رجلا وامرأة من تميم .

لكن هذا كله لا ينقذه من مخالب الموت . لا الماضي ، ولا الأهل ، ولا الرفاق ، ولا الصاحبان. لهذا يعود فيعلن أنه أمام هـذا الموت عار وحيد محكوم عليه بخسران هذه المعركة التي لا يدخلها طروباً ممتطياً فرسه شاهراً سيفه كما كان يفعل دائماً ، وإنما يدخلها مريضاً وحيداً مغترباً :

تذكرت من يبكي علي فـلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوك يجر لجـامه ... الى الماء لم يترك له الموت ساقيـا
ولكن بأكناف السمينة نسوة ... عزيز عليهن العشية ما بيـا
صريع على أيدي الرجال بقفرة ... يسوون لحدي حيث حم قضائيا

إنما تبكيه عدة حربه، سيفه ورمحه وحصانه المتين البنيان المحبوك الجسد... إنها صورته المثالية الزاهية وقد جللها سواد الحداد وهو يرسم هـذه الصورة وقد أضحت ممزقة فالسيف والرمح في جانب، والحصان يجر لجامه الى الماء ولا يشرب في جانب . والفارس صريع على أيدي الرجال الذين يسوون لحده في جانب آخر .. بينما تبدو من بعيد نسوة السمينة جالسات في العشية (والسمينة موضع في بادية بني تميم) حيث يؤوب الرجال ويلتم الشمل وتستعد المضاجع وتكشف الصحراء عن كامل بهائها ، لكن مالكاً لا يؤوب فتحدثهن قلوبهن بما غشيه في خراسان . والواقع أن صورة الجسد الميت سوف تتكرر كثيراً في القصيدة ولكن بأشكال شتى . فهذا الجسد الذي ظهر في القصيدة ذئباً يسكن الغضى عاد فاصبح حصاناً أشقر ظمآن وأنت تعلم أن مالك بن الريب كان جميل الصورة، ثم انتهى آخر الأمر ناقة عاطلة عن الزينة . أما النسوة فيصاحبن صورة هذا الجسد دائماً

وهن يظهرن دائماً في العشية ويختفين فيها ، فمرة يلحن ظباء ، ومرة بقرات وحشيات ترعى في الظلام ، وأخرى في هيئتهن البشرية يضرمن النار أو يبكين الغائب ، وهن دائماً جميلات جمالاً وحشياً لا يبلى كما لو كن أصل الحياة وسرها الرائع الذي يربط الشاعر بينه وبين روح البداوة ممثلاً في الليل والصحراء وظلال الشجر .

ولما تراءت عند مرو منيتي ... وحل بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فانه ... يقر بعيني أن سهيل بدا ليا
فيا صاحبي رحلي ، دنا الموت فانزلا ... برابية ، انى مقيم لياليا
أقيما علي اليوم أو بعض ليلة ... ولا تعجلاني ، قد تبين ما بيا
وقوما اذا ما استل روحي فهيئا ... لي السدر والأكفان عند فنائيا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردي اليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

في هذه الأبيات الثمانية التي تعد من أروع ما قيل في موت الفارس خاصة وفي الموت عامة ، يجدر أن نلاحظ أولا طريقة مالك بن الريب في رسم صور موطن ومنازل قومه التي تختلف عن طريقته في رسم صور الأرض التي تغرب فيها ومات . إنه في الأولى يرسم صورا كالأحلام لها تحرر الخيال وغموض السحر، ففي بلاده تسنح الظباء في العشية ويرعى بقر الوحش في غبش الليل القادم ، وتضيء نار النساء المازنيات بعد منتصف الليل على الروابي فتبدو في ضوئها أشباح المها في ظلال شجر السدر ساحرة عابرة ، وهو في هذا المجال يستخدم أفعالا ذات دلالات عاطفية مثل : دعاني . أجبت . رعين . بكين . يسعن . أضاء . أما موطن غربته فصوره كثيفة خانقة . ان خراسان تطبق عليه وتغتال هامته وتبيخ بأسوارها وأبوابها على صدره ، والموت يأتيه عند مدينة مرو فيحل بها

جسده مدى الدهر حتى ليصيح بأصحابه وقد شده الموت الى التراب : ارفعوني لأرى النجم سهيلا ! لكنه يموت فيخلفونه في حفرة تهيل الريح عليها الرمـال والتراب الناعم . وهو في هذا المجال يستخدم أفعالا ذات دلالات مكانية :حل . ارفعوني . يقر . بدا . دنا . انزلا . أقيما . قوما . خطا . هذه ملاحظة . أما الأخرى فهي تلك العلاقة بين جسد الشاعر الذي يعاني سكرات الموت وبين النجم سهيل الذي لا يراه الشاعر في الحقيقة لأنه نجم يماني يرى ما بين جزيرة العرب الى العراق شمالاً وشرقاً فلا يصل الى خراسان . دائما يراه الشاعر في الخيال كأنما هو معلق النفس به فهو رمز لوطنه وهو أيضاً رمز لحريته وضربه القديم في الآفاق ، وهو روحه الضائع الذي غادر جسده المسجى في أرض الغربة . ونحن نستطيع أن نلمح في هذه الصورة أيضاً احساس مالك بالاثم عند مانعرف أن الأسطورة العربية تقول عن هذا النجم أنه كان عشارا ظلوما (محصل مكوس) على طريق اليمن فمسخه الله كوكبا .

ومما يعزز هذا الزعم عن احساس مالك بالاثم طلبه أن يغسل جسده بورق السدر ، والسدر هو شجر النبق البري الذي يتخذ ورقه غسولا وحنوطـا للموتى لطيب رائحته الفواحة . انه يريد أن يتطهر ولهذا يطلب أيضاً من صاحبيه أن يخطا مرقده الأخير بأطراف الأسنة كما يجب لفارس شجاع من شعائر الدفن الجليلة ، لكن الصورة لا تعطي هذا المعنى فحسب ، وإنما تكشف أيضاً عن رغبة خفية في تفجير الدماء أو في الثأر من هذه الأرض التي توشك أن تحتويه وتنطبق عليه . لكنه يدرك جرمه ولهذا يطلب من صاحبيه أن يغطيا وجهه بطرف ردائه ثم يناشدهما في سخرية مرة ألا يحسداه على رقعة من الأرض بطول جسده وهو الذي لم تكن الأرض ذات الطول والعرض تسعه . لكنه يعود فيعترف باستحقاقـه لهذا المصير حين يطلب منها في نهاية هذه الأبيات أن يجراه ببرده ليدفناه بعد أن

سلس قياده ، كأنما يجد في احتمال الذل تكفيراً عن الذنب الذي جناه ، فهل تفتح له هذه الكفارة باب الصفح والغفران ؟ أن احساسه بالاثم يعادل أسفه على هذه النهاية أو قل حلمه اليائس في الخلود ، هذا الحلم الذي يظل يراوده في هذه الأبيات وحتى نهاية القصيدة . فشجرة السدر التي يطلب أن يغسل بورقها هي شجرة الخلود . يقول الليث عن سدرة المنتهى التي ذكرت في حديث الاسراء أنها سدرة في السماء السابعة لا يجاوزها مَلَكٌ ولا نبي وقد أظلت النار والجنة . ويقول ابن الأثير سدرة المنتهى في أقصى الجنة اليها ينتهي علم الأولين والآخرين ولا يتعداها . وسدرة المنتهى في القرآن تقابل شجرة الحياة المقدسة في التوراة ، فالنخلة العبرية تقوم هي الأخرى في جنة عدن كما تقوم السدرة العربية في الجنة . ومالك يحلم بسهيل متمنيا أن ينسخ منه نجما يدور في الأفق الى الأبد . وهو يناشد صاحبيه ألا ينسيا عهده ، وأمه ألا تكف عن زيارة قبره رغم أنه يعلن استحالة ذلك فأين أمه المازنية في بادية البصرة من قبره عند مرو في خراسان . وهو يرى في بكاء المازنيات عليه استمراراً لوجوده والمازنيات في القصيدة رمز للشباب الدائم والخصب المتجدد .

ويستطرد مالك نادباً نفسه معددا فضائله معارضاً بها هذا الموت المهين :

وقد كنت عطافا اذا الخيل أدبرت	سريعاً لدى الهيجا الى من دعانيا
وقد كنت صبارا على القرن في الوغى	وعن شتمي ابن العم والجار وانيا
فيوما تراني في ظلال ونعمة	ويوما تراني والعتاق ركابيا
ويوما تراني في رحى مستديرة	تخرق أطراف الرماح ثيابيا
وقوما على بئر السمينة أسمعا	بها الغُرّ والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتماني بقفرة	تهيل علي الريح فيها السوافيا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما	تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
ولن يعدمَ الوالون بثاً يصيبهم	ولن يعدم الميراث مني المواليا

ما الذى يصيبه بالذعر من هذا الموت وهو الذي كان يقبل بالحرب الى من دعاه اذا بقية الخيل ادبرت ؟ وانه ليصبر على مقارعة الأقران ويكف نفسه عن ايذاء القريب والجار . وهكذا تمضي به الحياة فيوماً تراه ناعم العيش بقرب أهله ورفاقه ، ويوماً تراه فوق ظهور الخيل العتاق فاتكاً يقطع الطريق ويغتصب الرزق اغتصاباً ، ويوماً آخر تراه في رحى الحرب المستديرة يطعن أعداءه طعناً وهم حوله يطعنونه بالرماح، ولكن عبثاً فان أطراف الرماح لاتخرق الا ثيابه.

انها صورة رائعة لفارس محصن ، لا ينال منه الخوف أو الغضب أو الموت . وأبرز ما في شخصية هذا الفارس كما ترسمها هذه الأبيات هو هذا اليقين البامم من القدرة على كل شيء والبعد عن كل خطر . انه ليسرع الى الحرب ويصبر صبراً كثيراً عليها ولا يملك هذا الصبر إلا متيقن من خاتمة الصراع ، وانه عن اساءات الأهل والجيران الذين تشفع لهم الجيرة والقربى في ان يكونوا بنأى عن عقابه الشديد ، وهو يكتفي بأنه يعرف كما انهم يعرفون كيف يثأر لنفسه ويترفع عن ايقاع الثأر بهم ما دام ذلك لن يحسب عليه جبناً وانما سيعرف الجميع انه العفو عند المقدرة . وانه ليدخل رحى الحرب ولا يصف من موقفه فيها الا هذه الصورة الرائعة للموت العاجز عن ان يناله ، فالرماح تخرق ثيابه ولا تصل الى جسده ، كأنه مشمول بحماية قوى تحرسه من الموت ، او هو مشمول بحماية الموت نفسه . ألم يهب نفسه للموت حين اختار حياة الفاتك قاطع الطريق ؟ وانها صورة تشبه صورة المحارب الهوميري العظيم أخيل الذي نزلت به امه وهو طفل الى الدار الآخرة فغمست جسده في أمواه ستيكس نهر الخلود الزاخر الذي أكسب جسد الطفل مناعة ضد الموت وأصبح جلده كالدرع المصنوعة من الحديد فلا تنفذ فيه السهام ولا يؤثر فيه طعن القنـــا ولا ضرب السيوف ، إلا جزءا

واحداً من جسد أخيل لم يغمره ماء النهر هو عقب قدمه اليسرى ، ومنه سينفذ سهم المنية اليه بعد ان يدوخ الطرواديين ويهزم أبطالهم . فمن أين نفذ الموت الى بطلنا ؟

لقد نفذ اليه من يده حين قبض ثمن التخلي عن حريته وسار الى خراسان . هكذا نفذ اليه الفساد وتخلل جسده وروحه وتخلى عنه إلهه وسقطت عنه الحصانة فهو اليوم مذعور تغتال خراسان هامته وتطبق غيابات القبر عليه .

وهنا يذكر مالك نساء السمينة الجميلات على طريقته في معارضة الموت بذكرهن ، ويناشد رفاقه وأهله ومواليه ألا ينسوا عهده ، ولكل منهم نصيب من ميراثه ، فالحزن وهو النصيب النبيل للأقرباء والرفاق ، أمـــا الموالي فلهم الأشياء والأموال ، وهكذا تقسم تركة الفارس !

ومن الملاحظ ان القافية ألجأت مالكاً الى نصب كلمة « الموالي » في حين أنها فاعل ، لكنه ليس وحده الذي فعل هذا فللفرزدق بيت ينتهي بذات الكلمة وقد نصبها بينما حقها أن تجر فهي مضاف اليه :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

هكذا ينتقل مالك بن الريب من فكرته الرئيسية الأولى التي يتحدث فيها عن خطئه المتمثل في بيع حريته بالمال و كيف عوقب على هذه الخيانة بموت رخيص الى فكرة مكملة تدور حول طبيعة الجزاء وأنه كان من جنس العمل ، فالتفريط في الحرية يعاقب عليه بموت فيه كل معاني القيد والسجن . والحقيقة أن تصوير الموت كأكبر عدوان على الحرية فكرة شائعة عند كثير من شعرائنا القدامى ، يقول مالك :

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني — وأين مكان البعد الا مكانيا
غداة غد ، يالهف نفس على غد — اذا أدلجوا عني واصبحت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالد — لغيري ، وكان المال بالأمس ماليا
فياليت شعري هل تغيرت الرحى — رحى المثل أو أمست بفلج كما هيا
اذا الحي حلوها جميعاً وأنزلوا — بها بقرا جم القرون سواجيا
رعين وقد كاد الظلام يجنها — يسفن الخزامى مرة والأقاحيا
وهل أترك العيس العبالي بالضحى — بركبانها تعلو المتان الفيافيا
اذا عصب الركبان بين عنيزة — وبولان عاجوا المنقيات النواجيا
فياليت شعري ا هل بكت أم مالك — كما كنت لو عالوا بنعيك باكيا
اذا مت فاعتادي القبور وسلمي — على الرمس أسقيت السحاب الغواديا
على جدث قد جرت الريح فوقه — ترابا كسحق المرنباني هابيا
رهينة أحجار وترب تضمنت — قراراتها مني العظام البواليا

وقد اخترنا في البيت الأول أن نقرأ « لا تبعد » و « البعد » بفتح الباء لا بضمها وفكرتنا في هذا أن كلمة « البُعد » لا توحي الا بنقلة في ذات المكان ، أما كلمة « البَعد » بفتح الباء فهي توحي بمكان بعد المكان ، بمكان آخر ، أو ان شئت بلا مكان على الاطلاق ، فهذا المعنى هو الأقرب لتصور شاعر نصف وثني للموت . انه انقطاع وليس انتقالا كما يصوره الاسلام وغيره من الأديان الراقية ، ثم ان هذا المعنى يتفق أكثر مع الشعور بالخوف من الموت وهو الذي يستقيم مع بقية الأبيات .

ان الصورة التي تقدمها هذه الأبيات عن العالم الآخر أقرب الى العقائد الوثنية التي لا ترى في هذا العالم الآخر استمرارا للحياة الدنيا وحسابا اخلاقيا على ما قدم الانسان فيها من خير وشر كما نجد في الأديان السماوية ، وانما تقدم هذه العقائد الوثنية صورة كئيبة متشائمة عن العالم الآخر ، فهو عالم من الظلمة والتراب تهيم فيه أرواح الموتى التعساء بلا أمل في النجاة ولنقارن بين أبيات

مالك في الموت ووصف القبر وبين هذه الأبيات من ملحمة « جلجامش » البابلية وفيها يصف انكيدو العالم الآخر الذي دخله بعد موته :

امسك بي وقادني واوردني الى دار الظلمة ، الى مسكن « اراكلا »
الى البيت الذي لا يرجع منه من دخله
الى الطريق الذي لا رجعة لسالكه
الى البيت الذي حرم ساكنوه من النور
حيث التراب طعامهم والطين قوتهم
وهم مكسوون كالطير بأجنحة من ريش
ويعيشون في ظلام لا يرون نورا

ان الصورتين متشابهتان ، فالعالم الآخر هو مكان بعد هذا العالم ، وليس مجرد مكان بعيد أو حياة خالدة مكملة لهذه الحياة الفانية ، بل هو نهاية للحياة فلا بعث ولا رجعة ، وهو عالم مظلم ظلمة القبر الذي سيثوي فيه مالك والذي يستعير صورة رفاقه المدلجين بعد دفنه اي الراحلين عنه في أول الليل ليوحي عن رحيله هو الآخر في ليل الموت الطويل ، والتراب واحد هنا وهناك وقرارة القبر واحدة . والغريب المدهش أن قصة أنكيدو في ملحمة « جلجامش » تتشابه كثيراً مع قصة مالك بن الريب ، فأنكيدو هو الآخر بدوي متوحش ولد في البادية وشب يرعى مع الظباء والحيوان حتى أزعج الصيادين بقوته الجبارة وحمايته للحيوانات من حبائلهن ، حتى قيض له الله صياداً أراد أن يتخلص منه فأغرى به بغياً زينت له الحب والرحيل الى المدينة ، وهناك وقعت له الحوادث التي جرت عليه غضب الآلهة فحكمت بموته ، لكن هذا التشابه بين قصة مالك في يائيته وقصة أنكيدو في ملحمة « جلجامش » موضوع لمقال آخر طريف .

ولنعد الى أبيات مالك لنرى أن الموت فيها انقطاع كامل عن هذه الحياة

التي نحبها ، ان الاهل والرفاق ينسوننا ويتقاسمون ما نملكه من القديم والجديد .. وهذا في رأي مالك دليل على أننا حين نموت ننسام أيضاً أو على الأصح نصبح عاجزين عن الذكرى والنسيان على السواء ، ولو أننا كنا نعيش حياة أخرى حقاً لظللنا نذكرهم ولظلوا مثلنا يذكروننا ، فالوثنية العربية في الحقيقة لم تتصور أي عالم ما بعد الموت ، في حين أن الوثنيات السامية الأخرى آمنت بعالم آخر وإن يكن أشبه بالعدم .

ويزيد من لوعة مالك أن الحياة تبقى بعد أن نموت ، وهو يستنجد بشعره هنا كما فعل في أول القصيدة « فياليت شعري ! » هل تتوقف دورة الحياة في فلنج (اسم موضع في بادية بن تميم) بعدي ، أم تبقى كما هي . لكن الشعر لا يستطيع أن يوقف له الحياة ، واذن فهي تدور على ذات الوتيرة ، فيتجمع حي المازنيين وينزلون فلجا ومعهم نساؤهم اللائي يشبهن البقر بقرون شعرهن الفاحم المتجمع ، وعيونهن السوداء الحالمة يرعين في قلب الظلام الذي يكاد يسترهن . وعندئذ تهب عليهن ريح الخزامى مرة ، والخزامى عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهرة طيبة الريح ، ومرة أخرى تهب عليهن ريح الأقحوان وهو من نبات الربيع مفرض الورق دقيق العيدان وله نور أبيض وهو طيب الريح . فأي مرعى لين وأي عشب طري وأي ايحاءات ربيعيـــة تستثير شوق الأجساد . إن الصورة هنا لا تستثير حاسة النظر بل تستثير حاستي اللمس والشم ، ففيها معنى جنسي قوي أراد الشاعر أن يلخص فيه معنى الحياة التي يوشك أن يفقدها .

ويستدعي هذه الصورة هنا الفزع من النهاية والاحساس بقربها . هكذا يطور مالك استغاثاته بالنساء في مواجهة الموت ، فبعد أن كن يلحن في العشايا من بعيد يتحدثن أو ينظرن ، أصبحن يرعين عشب الشهوة ويتشممن أزاهيرها

المبلية ، وكأنما يريد أن يقول أن رحى الحياة التي ظنها تكف عن الدوران بعد موته لا تكف بل تزداد فتنة وجمالا . وما دامت الحياة مستمرة وماداما الآخرون باقين جميعاً فلماذا يموت هو دونهم ؟ وهذا أيضاً سؤال وثني . فالمؤمن يرى الدنيا طريقاً قصيراً للحياة الخالدة ، وامتحاناً يكشف عن نوازع الخير والشر فيه ، لذلك يقبل على الموت راضياً بمصيره العادل . أما الوثني فلا يرى الا حياة واحدة وموتاً أبدياً . وما دام الموت لا يلحق الجميع وانما يستفرد هذا أو ذاك فلماذا يلحقه هو بالذات . ان الموت مصادرة لحريته ورغبته في البقاء ، والوثني العربي يتحرر من الخضوع لهذه الضرورة بأن يقرر هو متى يموت وكيف يموت . إنه يملك حياته مادام يملك عافيته ولذلك يجب أن يملك موته ايضاً وذلك بأن ينذر نفسه للقتال ، فلكي يكون الموت مقبولا يجب أن يكون مجيداً ، لكن هاهو الموت يأتي مالكاً بلا قتال ، فهو يحرمه الحياة والمجد معاً . انه يقطع عليه سبيل التصرف في نفسه ، فهو أكبر عدوان على حريته .

وهل يموت مالك ويترك الابل السمان العوالي تقطع بركبانها في الضحى متن الفيافي وتقضي سراعاً ما بين عنيزة الى بولان . فيا أيها الشعر أعني على دفن هذا الموت واضمن لي ان تبكيني أمي كما كنت أبكيها لو علت الأصوات بنعيها ، وأنت يا أماه أناشدك أن تزوري قبري بين حين وآخر فتسلمي عليه فأنت سحابة ممطرة تنزل فوق جسدي الذي صار عظاماً بالية وهباء مسحوقاً كأنه نديف شعر الأرانب ، فلعل الحياة ترتد الى هذا الجسد الميت كما ترتد الى الأرض القفر حين تنزل عليها الأمطار .

ولعلك تلاحظ الفرق في هذه الأبيات بين صورة الموت وصورة الحياة بين السكون الراكد والحركة الدائبة . ان مالكاً يثوي في قرارة قبره المظلم

الذي تهيل عليه الريح التراب وتعلوه الاحجار الثقال ، بينما تدور رحى الحياة في فلج ويأتي القوم جميعاً فيحلون فيها وينصبون خيامهم ويعاشرون نساءهم في الليل على أرج الخزامى والأقحوان ثم تمضي الابل بركبانها في الضحى تقطع الطريق مابين الأماكن والمواطن . ان كل شيء يتحرك ويمضي بينما مالك وحده ثاو في الظلمة .

فيا صاحبي إما عرضت فبلّغن — بني مازن والريب ألا تلاقيا
وعطّل قلوصي في الركاب فانها — ستفلق أكبادا وتُبكي بواكيا
وأبصرت نار المازنيات موهناً — بعلياء يثني دونها الطرف رانيا
بعود ألنجوج أضاء وقودها — مهاً في ظلال السدر حورا جوازيا
بعيد غريب الدار ثاو بقفرة — يد الدهر معروفاً بألا تدانيا
أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى — به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدنني — بكين وفدين الطبيب المداويا
وما كان عهد الرمل عندي وأهله — ذميا ، ولا ودعت بالرمل قاليا
فمنهن أمي وابنتاها وخالتي — وباكية أخرى تهيج البواكيا

فيا صاحبي ! هنا في هذه اللحظة التي يستسلم فيها مالك للموت ينادي صاحبا فردا ، فبقدر احساسه بالوحدة هنا بقدر حاجته الى علاقة أكثر قربا وحميمية . ونحن نذكر أنه بدأ بنداء جماعة الأصحاب في البيت الخامس والعشرين حيث يقول :

أقول لأصحابي ارفعوني فانه — يقر بعيني أن سهيل بدا ليا

ثم تدرج مع دنو الموت فأخذ ينادي صاحبين اثنين حيث صارت حاجته أشبه الى تعيين من يقف بجانبه في هذه اللحظات الاليمة . وذلك في الابيات التي تبدأ من البيت السادس والعشرين حيث يقول :

فيا صاحبي رحلي دنى الموت فانزلا — برابية اني مقيم لياليا

وأخيراً ينتهي الى مناداة صاحب واحد في البيت الاول من هذا المقطع الاخير في القصيدة ، طالباً من بعد أن فقد الامل في الهرب من الموت فليس بعد من تلاق ، وهو يعين للوصول الطريقة التي سيدخل بها على أهله ليبلغهم نبأ وفاته ، وهي ان يسحب ناقة مالك معطلة عن كل زينة بينما كل النياق مزينة ، فعندئذ سيفهم المازنيون أن مالكاً قد مات وسوف يثير منظر الناقة الحداد على اهل مالك فتتغاق الأكباد وتبكي المازنيات واللاتي أشعلن نار القرى في منتصف الليل بمكان عال يجذب اليه عيون الطارقين . أما هذه النار فيزيدها اشتعالا وصفاء عيدان الألنجوج وهو خشب يماني يذكي النار ويطيب ريحها فيضيء جو المضرب وينتشر فيه الطيب بينما تروح وتجيء أشباح النساء المازنيات ويقع عليهن ضوء النار فتمشي ظلالهن كأنهن الحور الساريات في ظلال شجر السدر وهو كما ذكرنا شجر النبق . وانه يهوي في ظلمات الموت فيحس نفسه يبتعد عمن حوله ويصبح غريبا ثاويا في قفرة أبد الدهر محكوماً بقانون الموت ، وانه يقلب عينه فيما حوله من الأشياء التي يحملها معه المسافر فلا يجد رفيقاً ولا مؤنساً . ويعود الى تذكر النساء كما فعل كثيراً في هـــذه القصيدة فيجزم أنهن سيبكين لو شاهدنه وسوف يقدمن أنفسهن فدية للطبيب الذي يستطيع أن يداويه ويرد اليه الحياة . ولماذا رحل وترك الحي والأهل ولم يسيء اليه أحد ولم ينله فيه شر ، ولم يتركه وهو كاره . لماذا رحل عن هؤلاء النساء الباكيات ومنهن أمه واختاه وخالته ، وباكية اخرى يثير بكاؤها بكاء النساء الأخريات لأنها زوجته التي تركها وحيدة حزينة ثاكلة !

انه في هذا المقطع لايفكر في الموت وانما يستسلم له ويوصي صاحبه بما يفعل ويدرك أنه لامفر من الوحدة والظلمة وانقطاع الأمل الى الأبد من مـــلاقاة الأحباب . ومع هذا فهو يحلم بلاقائهم والعودة اليهم في هيئة ناقته التي سترجع

الى بني مازن عاطلة عن الزينة فيبكيه أهله حين تقع أنظارهم عليهـــا فلا يرونه فوقها . والحقيقة أنهم سيرونه في الوقت الذي سيرونها فيه . يرونه بعين الخيال بعيداً كأنه الحلم صافياً بشوشاً شجاعاً كريماً . سيرون كل فضائله وسوف يفتقدونه ويحسون بالحنين والحاجة اليه ، كما يحس هو الآن أنهم كانوا أهلا كراماً أجوادا يبادلونه حباً بحب ووفاء بوفاء وأنه قد ودعهم غير جاحد ولا كاره . وهو يرسم صورة الحي المازني هنا بألوان معتمة شفافة كأنها ألوان الحلم حتى لنحس وهو يتحدث عن المازنيات اللائي تتلاعب ألسنة النار بظلهن بين ظلال شجر السرو أنه يتحدث عن الجنة هنا . بل هو في أغلب الظن يتحدث عنها . انه يموت قاطعاً كل أمل في الحياة وهو يستخدم كلمة « الحور » في حديثه عن المازنيات فيوحي لنـــا بصورة الحور العين في الفردوس الاسلامي ، ثم يجعل حركة هؤلاء الناس في غاية من شجر السدر الذي أوصى بأن يغسل بورقه من قبل وربما عاوده هنا شيء من الندم على أنه قام بهذه الرحلة التي أوردته موارد الهلاك فهو يشهد بأن حياته في وطنه لم يكن يعيبها شيء ، وهو هنا لا يتحدث عن منازل أهله وحسب ، بل يتحدث عن رفاقه الفتاك وعن سيرته الأولى كلها فهو يمدحها ويعترف بأنه أخطأ حين خرج وودع هذه الحياة الجميلة النقية . وربما أحس بأن الموت قد طهره فلم يعد يشعر بالذنب ، وربما أحس بأن البكاء عليه احساس بوجوده لروح وفك لقيوده فسرت في أبيات هذا المقطع الأخير روح من التسليم الديني والرضا الصوفي وغرق الشاعر الفاتك الجميل في موت بدا كابوساً ، وانتهى كأنه حلم من الأحلام !

انها احدى روائع الشعر العربي ، بل هي احدى روائع الشعر الانساني عامة ، فهي قصيدة لا تقف قيمتها عند ميزة واحدة بل تجتمع فيها كل مزايا التحفة الفنية . انها تقدم اولا عالمـــا روحياً خصباً مليئاً بالعمق والتوتر الفكري وهي

تستند في تقديم هذا العالم الى تجربة ذاتية حية واخيراً فهي تنسج عالمها الجمالي بغاية الرصانة والدقة والحذق حين ينتقل الشاعر من مستوى في التعبير الى مستوى. من الغموض الى الوضوح ومن الايحاء الى المباشرة . ومن التصوير الى التقرير ومن المناداة الى المناجاة ، وهو يقابل المعنى بنقيضه ويطور الفكرة بتعميقها واضاءة زوايا جديدة فيها معتمداً في معظم الأبيات على الصورة الشعرية كأداة رئيسية للتخفف ما أمكنه من بعض القيود التي كان التزامه لها بغير حرمان القصيدة شيئاً من صدقها وتوترها ، كما فعل حين لم يجد حرجاً في تكرار بعض القوافي .

ولقد قرأت هذه القصيدة او مختارات منها مرات ومرات ولقد أعجبت بها كما أعجب بها غيري من الذين قرأوها ومازالوا يقرأونها ، لكن في هذه المرة أحس أنني وقعت على كنز ثمين من كنوز الشعر العربي القديم .

قصائد حب قصيرة

من قبارنا

د. أحمد سليمان الأحمد

- ١ -

أحبَبْتُ أن أنقلَ أحلامي الى قصيدةٍ
أوْ لوحةٍ
أوْ رقصةْ
أحبَبْتُ السعادةُ الحمقاءُ أنْ تختصرَ ،
الليلةَ ،
في قِصّهْ

أحبُّ هذا العَبَقُ المغرورُ
ان يغرَقَ
في الوَهَجِ

تحمِلُهُ ، مرتعشاً ،
كحُبِّنا ،
عصفورَةُ الثلجِ

- ٢ -

لو انّني أعرفُ يا حبيبْ
في أيّ مَوسمٍ عَجيبْ
يُمزَجُ لَونُ هذهِ الفَرحَه
كُنتُ أُصوّرُ اللقاءَ
في لَوحَهْ !

- ٣ -

ابحَرتُ في عينيكِ ،
زَورَقاً وَيْن ،
غنّينا ..
الدانوبْ
كانَ هُنا يجري ،
وكان موجهُ الدافىء
ينشر الطيوبْ

- ٤ -

أرأيتِ .. البَحرَ الأَسودَ
يَسكُبُ فيه الدانوبُ الأَزرَقُ
احلى أغنياتِهِ

وتقولينَ : أتحلُمُ ؟!

أَيْنَ الدانوبُ ؟!
الدانوبُ بعيدٌ..
لكنْ أنتِ هُنا أعذبُ مَوْجاتِهْ

غنِّني في البَحْرِ الأسوَدِ،
في أحلامي،
في ليلي
يا أبْعَدَ نَجْماتِهْ!

- ٥ -

تتجاذَبُني
عيناكِ الزرقاوان
وعَيْناها السَوْداوانْ

كان الدانوبُ هُنا يُنْشِدُني
لكنْ بَرَدى..
مِلْءَ نشيدي كانْ!

- ٦ -

الى سفراء الأدب البلغاري

في مؤتمرهم الرابع على البحر الأسود

يا سُفراءَ الزَهْرِ،
الطيبِ،

النَسْمَه

يا سُفراءَ الحُبِّ
المتلألِئِ في نَجْمَه
أوْ في بَسْمَه

يا سُفراءَ الكَلِمَه
لا جِنسَ لَها ،
لا لَونَ ،
كما تَنْسَكِبُ الغَيْمَه

لا تَشكو عَجزاً ،
لا تتفجرُ لِقمّه
إلا حينَ تُهاجِمُ فجْراً
أرتالُ الظُلْمَه

لم تَختَرْ وطناً
إلا حيثُ الشَعْبُ يُعانِقُ ،
في الواقِعِ ،
حُلْمَه

تِلكَ يدي في أيديكُمْ ،
أبَداً
نَنْشُدُ في دَرْبِ القِمَّه ..

- ٧ -

الى اتحاد الجمهوريات العربية

في غُرْبَتي
قرأتُ عنكَ أم حلمتُ ؟ !
ورنّ في أعماقِ شِعْري
مِنكَ صَوْتُ

لأجلِك الليلة
في لقاءِ أحبابي
أنا شَدَوْتُ

ونَخْبَ هذا الاتحاد ،
نَخْبَ قُطْرنا
شَرِبْتُ

اليومَ ، ياغُربَةَ أحلامي ،
يَضُم شَمْلَنا
- كما نُحِبّ -
بَيْتُ

وقلعةٌ ... أسوارُها
إلى صُمودِنا تَمُتّ

يادعوةً تُذيعها الحياةْ ...
لايشهدها الموتُ

- ٨ -

الى الشاعر غيورغي جاغاروف.

ياشاعِرَ الثورةِ
والشبابْ

مَشاعِلُ النصْرِ
تصُدُّ الليلَ والدمْعَ
عنِ الاهدابْ

أنا هنا منتظِرٌ
أفتَحُ للقصيدةِ الأبوابْ

لعلّها تُطِلُّ بالأضواءِ
والأطيابْ

لعلني أرْشُفُها ،
أضُمُّها ،
أسُوحُ مَعَها في أرْضِيَ الخرابْ
فَيَخْصِبُ الترابْ

كانما ، مِنْ دمِه ،

سَقاهُ فارِسٌ
شَقَّ فلولَ المَحْلِ
كالشِهابْ !

- ٩ -

إلى الكاتب غوشكين

حَمَلْتُ مِنْ بِلادِكَ الوُرودْ

قَطفتُها مِنَ السهولِ تارةً ،
وتارةً مِنَ النُجودْ

قَطفتُها مِنَ الشِفاهِ في زاغوريا (١)
أغْنِيَةً
تجتازُ في صُحْبَتِيَ الحُدودْ

حَمَلتُ مَعِيَ النَشيدْ

يُلْقِيهِ « بوتيف » على ثوارنا ،
تُعيد

أصْداءَهُ الغاباتُ

---

(١) مقاطعة بلغارية مشهورة بعذوبة أصوات ابنائها ذكرها الشاعر الخالد « بوتيف » في قصيدته « الثوار »

والخَنادِقْ

تُزَغرِدُ البنادِقْ
وَهيَ تَشُقُّ دَرْبَها ،
على حُدائِهِ ،
وتركُزُ الطلائِعُ البَيارِقُ
في جبلِ النار التي أوقَدَها
الشهيدْ
ولم يَزلْ يَسعَى لِأنْ يقبسَ مِنها النورَ
أنبياءُ جيلِنا الجديد !

– ١٠ –

الى كاتيا

مُسافِرانِ ، ياحبيبتي
الأقمارْ
رِفاقُنا ، والحبُ والأشعارْ
وغُربَةُ الديارْ
مِنْ بلدٍ لِبلدٍ ،
حبيبتي ،
تَسكُبُنا الأمطارْ
ماذا تقولينَ ،
والشموسِ في ابوابِنا انتِظارْ

هل تأذنينَ بالدُخولِ
يا أميرةَ السّهارْ
أمْ أننا نقنَعُ بالتّذكارْ ؟!

- ١١ -

سَفائِنِ الحنينِ أرْسَتْ ..
يامَرافِئَ المرْجانِ
والدموعْ

لاتذْهلي ، الليلةَ ، عَنْ تَوديعِها ..
ففي غدٍ ستَنشُرُ القلوعْ

منديلُنا مُبَلَّلٌ ..
فلوّحي يا أحْرُفَ القصيدةِ المسافِرهْ

ورفرفي
مِثلَ طيورِ حبِّنا المُهاجِرهْ

لو في الأصابع ذاكرة

ممدوح عدوان

ها انتِ وهجٌ يخطف الأبصار
من أين جئتِ ؟ وأنت منذ هنيهةٍ لم تبرحي قربي
ها أنتِ قدامي وفي قلبي
ها أنت عبأت الهدير ، وها هي الأنواء والإعصار
وأمام أيتامي اتسعت مدينة وهدمت لي الأسوار
وتحت صدرك كف حانية تكفكف يتمي المهذار
بجلال هذا العري تنتشر البدايات التي تدعو بألف لسانْ
فتضيعني الضوضاء ، يخنقني التردد ،
في انتظاري واقفاً أتعب
أي الدروب أجوس ،
حين تمد لي أبعادها الصحراء ؟

من أين أبدأ ؟ أين أرمي لمستي الأولى ؟

وأسري في تلالا النور ،

أبدأ كشفي الظمآن

ها أنت قدامي ، وبين يديّ تنتظرين

بين يديّ ينتظر التوثب والتحفز ،

تقطر الأشواقُ

في كفي يرتعش التلمظ : لايصدق مايرى المخلب

تبقين حاضرة وغائبة

وأنت النوم في الأجفان أتعبها الأرق

من ذا يكوّم كل هذا الضوء في دربي ؟

ماذا سأفعل على أبقي بغرفتي الألق ؟

منذ التقينا .. وافترقنا .. وافترقنا دونما أعذار

وأنا أجاهد كي أعبىء راحتي بالنار

من أين لي استظهار هذا الوجه وهو يموج بالرعشة ؟

أو ذلك الجسد الذي يرتج ،

يطفح بالتموج .. ينثني ويدار ؟

من أين آتي كي ألاقي ماعرفت لديك من دهشة ؟

أنا مولع بالبغتة الأولى

أصلي كي تعود إلي ، أويتجدد الامرأة

ولعلني أقوى على خلق المدائن مثلما خلقت

أعيد لها الكنوز وأرجع الأضواء

* * *

عبثاً جهودي لم نزل إثنين
ها أنت أيقظت الجحيم ، حملته
نادى ، إذا ألقمته جوعي ،
« مزيداً منك ، أحرق ما لديك
من الضنى الشبقي والحرمان والرهبة »
كيف السبيل لكي نصير ، إذا التقينا ،مثل لمع السيف من سيفٍ ؟
قومي إذا اندلع الصباح فأطفئيه
وخبئيني في انطفائي : خبئيني في الخدر
يكفي اندلاعك واندلاعي :
من يجمع لهبين ؟ ومن يوحّد في تطايره الشرر ؟
سنعيد نغمتنا : أنا الكف التي عزفت
وأنت الرجفة الأولى بأعصاب الوتر
يضحي جنوني فيك ملتحماً :
شعاعاً خارجاً من شمسه ، أو ممعناً في شمسه
نضحي هديراً خارجاً من موجة :
ليس التموج ، ليس صخور الشط ،
ليس الريح ، ليس الماء ، أو وقع المطر
فأنا وأنت الريح والأنواء
سأحيل ليلك لي نهاراً
والنهار يغيم ، أمحو حده :
يضحي أمام العين كالطيفِ

وأذيب ذاكرتي التي تستقبل الأشياء
في حالة كنا لها بدءاً وليس لها ختام
لو في الأصابع ، بعد ، ذاكرة تعي جولاتها .. وتلامس الأضواء
لو كان وهجك باقياً دنيا بلا أفياء
لو أنني الضوء الذي غطاك حين تضيئك الرغبة
وأمر فوقك مبطئاً مثل الضباب على مساكب صدرك الرحبة
وأزخ فوقك زاهداً بكهوفك الرطبة
أبقى ارتعاشاً لامساً .. فوق انزلاقة بطنك العريان
متموغاً في النهد ، في الساقين ، في الرقبة
في فسحة البطن الرخيم ، وفي تناغم زلقة الركبه .
لو أن ربك لم يعلم هذه الأسماء :
لجعلت رعشتنا اصطفاقاً دائماً ،
للبستُ جلدك لي رداء ،
حين أضحي في الدجى المحموم دون رداء
أضحي الدم الساري إلى شفتيك ،
أخر ناهداً فأعي تكوره
يضحي ارتجاج النهد خفقة قلبي المقهور
رفة جفني المبهور
وأنا أواجه كل ثانية ظلاماً خافقاً بالنور
من ذا يعيد لي الثواني : وهي تركض عبرنا خوف الألق ؟
حين انصببت وددت لو أني أتيت إليك عبرك دونما جهد

وأرشح بين دورة ناهديك مع العرق

كالضوء يعبر في الهواء فلا يصادمه .. ولا يلقي له ظلاً

وأظل عنوياً توهج ماتكور ، أو تشهي ما انزلق

وأجيء من صدري إليك ،

أغوص من قلبي إلى الجسد الرخيّ

أمر مثل النوم في الأجفان

وأجد الرؤيا على عينيك عند توقعي

وأغوص عبر غياب عينيك التين ، وأنت عائمة معي ،

رأتا الهواء وغاصتا في الماء

تقنا لو ان لقاءنا يضحي بلا جلدين ،

لو جسم يذوب بجسم حاضنه

نعيش بحالة غير التقرب ، غير معنى الالتحام

نضحي كعاصفة : كلانا الريح

في اللقيا تذوب الريح في الريح

تستقبلين جوحي الظمآن

نسقي ونشرب .. نمزج العرقين والانفاس ،

تشتبك المسام

لو أننا ارتحنا بلا صمت ولا صوت

وأمسكنا بكفينا الكلام

لو أنني أقوى على استنفار هذا التوق ،

أضرمه فلا يطفأ

أو أنني أرغي ، إذا استقبلت وهجك ،
ثم لا أهدأ
لو أنني إذ أبصر الأشياء ، ثم أمد كفي
أمسك الشيء الذي أبصرته
أو أمسك الصوت الذي أسمعته
لو أنني أمسكت نهداً غير هذا اللحم
لو أمسكت دورته .. إضاءته
بريق الحلمة الخفاق تحت الثوبِ
وهج الساق تحت الثوبِ
رجة إلية في الثوبِ
لو أمسكت هذا الضوء في الصدر
لوذقتُ ، ما أبصرت في عينيك حين دعوتني
من قبل أن تعري
لوكان عندي مايلم العينَ حين تغيم ،
وهنَ العين حين تلعثمت شبقاً
وحين تلعثم الشبع الرخيُ بها ونام
لو كنتِ مثل البرد تشربك العظام
لو كنتِ مثل الدفء ، لو شيء يشيعك في المسام
ماذا لو اني كنت كالشجرة
وجذوري الظمأى تغطي كل ما أبصرت في ساحاتك البطره
تتشرب الرجفات من عينيك ،

تمتص الليونة والنعومة والتراخي والبياض
يضحي بريق اللوعة الخرساء في عينيك
بعد تفتحي ثمره
لكنني مازلت أجهد ، لم نزل إثنين
هذا البريق المزمن القامي يظل لديك وهاجاً فلا يصدأ
تمضين غائبة ، وأبقى في زحام الجوع ، في أنوائه الحيرى ،
وينزح خلفك المرفأ
تمضين حاملة جموحك ، والغنى الأبدي والنعمه
أخشى عليك العبء ،
أخشى أن تضيعي ما حملت ، فنفقد الأشياء
وكأنني أسلمت ما عندي لطفل راح يلهو وحده في الماء
وأنا أجاهد كي أضم بقبضتي الماء
تمضين مترعة ، وأبقى جائعاً
تبقى الذئاب تلوب في الظلماء
وأنا انهددت ، ولم يزل بركانك الفوار فواراً
وما زال التكور ، والتوهج فيك
حتى حين تستلقين نائمة
وحتى حين تبتعدين لايهدأ
وأنا الذي ضيعت ما أبصرت ،
أو ضيعت ما أمسكت
أو ضيعت ذاكرتي

أعود الآن كي أبدأ

ها أنت وهج ، أنت عبأت السرير ، وأنت ترتعشين

فاض بك السرير ، وها أنا أبدأ

لكننا سنظل رغم جموحنا في العتم إثنين

أذوي إذا مرت بنا الساعات

ترحلين ، يرتحل التكور فيك

نبقى مثلما كنا ، يبدو الليل ،

إثنين .

أوراق جندي أمريكي في فيتنام

خالد محي الدين البرادعي
الكويت

عثر عليه المناضلون قتيلا في غابة كثيفة ، في احدى مقاطعات جنوبي فيتنام ، الى جانبه بندقية محشوة .. وحقيبة ملطخة بالدم . وعلى مقربة خطوات منه طفل قتيل شائه تنبعث منه رائحة كريهة . وفي الحقيبة صورة فتاة ، وكتاب ملطخ اسم مؤلفه بقطرات دم مسودة . وقرأوا اسم الكتاب : « الانسان ذو البعد الواحد » . ودفتر صغير سجل فيه مجموعة رسائل كانت مرقمة حتى الثانية عشرة . لم يكتب شيئاً بعدها ولم يوقع اسمه .. الموت أوقفه عن متابعة الكتابة .. كانت على غلاف الدفتر كلمات كتبت بخط مرتجف : « إن شعباً يضطهد شعباً آخر ، لا يمكن أن يكون حراً » ك . م . ولم يعلمون أن الحرفين الأخيرين اشارة الى كارل ماركس .

- ١ -

ـ : لستُ أدري كيف أبدأ !!
وأصوغُ الخوفَ والتشتيتَ حُبّاً
فلأدَعْ روحي التي مَزّقَ عنها الضوءُ ثوباً
تتمادى في ابتكارِ الكلماتْ
وتصوغ الحوب حبا
وَلأقلْ : روحيَ تَبدأ
إن تكُ الأيام أبقتْ ها هنا روحاً وقلبا .
فاعذريني .. كيف يَبْدَأ
قاربٌ من غير مرفأ
هكذا شرده السمارُ في عرض المحيطْ
طائراً مستنفراً من غير مَلْجَا
واعذريني .. إن اقُلْ : إني يتيمٌ
سيلُ أهلي ... سبْيِ الدافِقُ مُرْجَاً
حاكَ مني العريُ ثوباً بربرياً
وأنا من دون مَخْبَأ
وبقايا لسراجِ في ظلامِ الليلِ مُطفَأ
واعذريني ... لُغتي كانت خديعهْ
وحياتي .. جملةٌ من حيث ماشاءَ لها « السمار » تَبْدَأ .

– ٢ –

– اوسمي ظُفُراً على شاهدتي
وجَبيناً يحمل الليلُ صباحَهْ
وانثري زهراً على مقبرتي
ولتكن كالشمس أسراري مباحَهْ
علمي زُوّارَ قبري .. أن يَروْا
كيف تغتالُ الحضورَ النزواتْ
ويغوصُ الظفرُ في أحشائنا
ناعماً يطمس صبح الخفقات

كلماتي .. ان بدت غائرةً
في سوادِ الحزنِ .. فالدنيا سوادْ
ألبَسونيه ولم أفرح بهِ
في صباح العرس ثوباً للحِدادْ

– ٣ –

– نارُ تاجرْ
شوهت في شفتيّ الابتسامَهْ
وأحالتني على الدولاب أشتاتَ علامَهْ
أحرقت في عمق إنساني الألوهَهْ
وأحالت شجري فضلةَ عرنوسٍ بلا حبٍّ وجذراً
دون نسغٍ وغصوناً دون اوراقٍ ، ودنيا من فَزَعْ

سلخت عني رؤى الخـلـق بذاتي

علقتني بمتاهات الجـزع

نارُ تأجر

أحرقت جنحيّ .. سدّت أذنيّا

فتحت في جبهتي عينَ غرابِ وأصابت مقلتيّا

حفرت نافذة في جانبيّا

وأطل الطفل منها

فاقدَ الرؤيةِ والعينينِ .. يرتادُ

ـ اذا يرتادُ ـ ليلاً سرمديّا

واصطخاباً ابديّا

ضارباً في بيدِ ليلٍ طولُه ملء الغدِ

قال للطغيان : لاتبدأ بروحي

قالَ : انتم .. وانا .. والالقُ الزائفُ في الليل سواءْ .

ـ ٤ ـ

ـ لا أرى الشمسَ ، ولا اعرف رقصَ الأنجمِ

لا أرى الصبحَ ولا اعرفُ رعشاتِ الضياءْ

رغم أن الساريَه

ونشيد العلمِ

فوق رأسي فوق خط الاستواء

هل جنونُ البغيِ ماقولكِ يوحي مايشاءْ

وانا امضي اختناقاً

في بهيم الليل والكونُ مضاءْ

وانا اضربُ في صحراءِ تيهي عبثاً

هل يرى التائهُ في صحرائه غير الخَواءْ ؟

انني احملُ سهمَ الطاغيهْ

فاغفري لي زلّةَ القوْل .. اقولُ : الطاغيهْ !!

ماردٌ كسّرَ عنه العلمُ اختامَ الرصاصْ

واستفزّوهُ .. فأرداهم هُزالى

في سحيق الهاويهْ

قرّبي اذنَكِ مني واسمعيني

انني لا اعرفُ الشمس واني

قرب خط الاستواءْ

- ٥ -

ـ ماردي امتصَّ الذُبالهْ

ورمى موقِدها فوق الجليدْ

ورأى في عتمة الدنيا ظلالهْ

تجمعُ الكوْن على كفّيْه مثل البرتقالهْ

مَدّ ظُفْرهْ

ـ دون ان يعلم ماتحت غلاف البرتقالهْ ـ

فأثار الظُفْرُ شرّقيَّ الرياح الساكنهْ

في زوايا .. في كهوفٍ ... في قلوبٍ آمنه
وحشرنا في قواريرِ الجشع
وأتينا بعد ان ضاق الحوار
بين ساقي الفرسة الخضراء والقرصان ..
امسينا رماداً
ذره الماردُ عسفاً في عيون الأبرياء
وشتمنا ..
ولعنا ..
قيلَ عنا :
تتر . قيل : لصوص . قيل : قطاعُ طرق

• • •

لو أخذتِ الخنجرَ المسمومَ
لو طلتِ شرايين الحواة
وبحقدي . لو تمصّ الدمَ من قلبٍ تردى
كرةً بين أقدام الطغاة
لانتهى الطاعونُ من كوكبنا وابتسمت
للملايينِ الحياة
لو ذبحتِ الماردَ الأعورَ لو صغتِ إلاهاً
من جنينٍ بين جنبيك تركته
لانتهى المنتظرون
حولَ أسوارِ الغدِ

من جنونِ البربريّه
من رؤى دجالهم
مُستَنفَراً يحيا بـ « بعدٍ واحدٍ » .

- ٦ -

ـ لحظاتُ الرعب لو تدرين شدّتْ ساعدي
فاختفى الانسان بي
وأطلّ الرقمُ
وانشدادُ الاصبعِ اليمنى
وإطلاقٌ ، وصوتٌ ، ودخانٌ حاملٌ رائحة الموت..
وعادتْ صحوتي
وسألتُ البندقيّه
لم تجبْ ، بل عبراتْ
من ممرّ أسودٍ خطّتْ على نار فؤادي كلماتْ :
: أرخصُ الأشياءِ في عالمكم أرواحنا ..
يا .. لِلطغاة !!!
نفَسٌ غابَ . وكان الصمتُ لو تدرينَ
في صدرِ امرأه
وأخذتُ الطفل عن ضرعينِ جفّا
غائصاً في « شمْلةٍ » مُهترئه
وبكى .. والعبراتْ

ساءلت عن أمه المُنكفِئة
ولقد عالجتُ في بسمتِهِ الثكلى معاني اليُتم ..
مرتْ لحظاتْ
وأنا أعبرُ في عبرتِهِ
شبهَ خُطىً مرتجفاتْ
وانتهى ...
غابَ ...
وفي عينيهِ ما زالَ التماعُ القطراتْ

- ٧ -

- كلما اشتقتُ الى رؤيتها
غمرتْ شوقي كآبهْ
لست ادري التي تسألُ اسماً
لِمْ تركتَ داخلَ الانسانِ غابهْ ؟
وأحلمُ ذكرياتِ الناسِ بعضاً
من مريرِ العبَراتْ ؟

• • •

نشوتي في الحرب أمستْ غصَصاً
وأغانيَّ على الأفقِ سحابهْ
وبلادي صورةٌ ، اطرافُها يبلعُها الحوتُ ...
وضاقتْ بالقيَمْ
والذي كان جمالاً شاخَ من قبل الأوانْ
هابطاً نحو الهرَمْ

وعظامُ « الديناصورْ »
نهضت ترتادُ شمّاخَ القِمَمْ
والذي يغرفُ من نبعِ الصباحْ
قلبُهُ غَمْطٌ بأنّاتِ النَدَمْ
فلماذا كلما شعَّ شهابْ
في بلادي واغترَبْ
يبلعُ الضوءَ وَيُمسي
شارةً فوقَ نَصَبْ ؟

-٨-

ـ لحظاتُ الصّحْوِ ما اوحشَها
في عالمِ البؤسِ ودنيا الاغترابْ
ها هنا ....
بين غروبِ الشمسِ والدربِ الطويلْ
ارهقتني لحظاتُ الصّحْوِ غالت حلْمي ذاكَ الجميلْ
لحظاتُ الصحْوِ حالت بين نفسي وشبابي
اهلكتني استهلكت بُقيا شبابي
روّضَتْ اماني الثكلى ، ليجتازَ الخيالُ المستحيلْ

لحظاتُ الصحْوِ بؤسي وعذابي
عندما يُصلَبُ في المجهول ملحاحُ سؤالي
جامِدَ العينين في صمتِ الجوابِ
وحَزاتٌ .. لحظاتُ الصحوِ .. سِكّينُ .. سهامٌ قاطِعَه

علمتني موغماً ابْصرُ وجهي

بين اشتاتِ الوجوهِ الضائعه

وأرتني ظاهري الضاحكَ حيناً

في دروبِ الاغلالِ الجائعه

لحظاتُ الصحوِ إشعاعاتُ ذاتْ

بُعِثَتْ مَسلوكَةً بالأمنياتْ

تحتَ أغلالِ حديدِ الفاجعهْ

صُدْفَةً جاءتْ وماذا اقترفتْ ..

حتى انتهتْ ـ قسراً ـ لِساحاتِ الوجوهِ الضارعَهْ ؟

– ٩ –

ـ إن أغصْ في الغيبِ عُذري ..

أنني مغتربٌ أشْتوي بشمسِ الأسئلهْ

خَدَري مُسْتَنْفِدٌ مني صقيعَ الكلماتِ المقبلهْ

نغماتٌ تتَراكمْ

فوقَ قيثاري مُملّهْ

خَدَري يَستطيعُ أن يَمحوَها

فاذا في كل ما يسمى غَداً ..

آمالُ قومي المضمَحِلّهْ

فاعذريني إنْ يَكُ « الأفيونُ » نجوايَ بدَرْبٍ

موغلٍ في اللانهايَهْ

وانطلاقي .. فوق أبطالِ روايَهْ

كَتَبَ السمسارُ فيها كلماتٍ .. وتَتالى

شعبُنا يومٌ فيها تَغنّهُ الشّعثاءَ صَنْعاً وغوايَهْ

– ١٠ –

– وشعاعُ الشمس قد يُطْعِمُ بذْراً

مثلما يحرقُ ثلجاً فيذوبْ

ويَدُ الريح التي تُخْصِبُ زَهْراً

تطفىءُ الأضواءَ في ليل الدروبْ

* * *

ساعةً لو تذكرين الحُلُمَ المحترقا

بينما تنمو على أنقاضه أحلامُ قومٍ آخرين

لعرفتِ المدْخَلَ المُسْتَغْلِقا

لِذَواتٍ سبحت منفرداتْ

حولَ شُطآنِ الظنونْ

نحن أشتاتٌ لِكُلٍّ مشربٌ

وسماءٌ، ومدارٌ، وخَيالْ

جَمَعَتْنا في مَضيقٍ مظلمٍ

لُعْبَةُ « الطغيان » في سوءِ احتيالْ !!

نحن أسوارٌ لفكرهْ

بالعنادِ انْتَهَبَتْ ..

شَذَتْ هنا واحترقَتْ
وَاحترقنا حَوْلَها في ميتَتَيْنْ
مَرَّة في أرضها - يوم تَنامت خَطأً -
وسنقضي المِيتَةَ الأخرى بأرضِ المشرِقَيْنْ

- ١١ -

- ولانقاذِ الشخوصِ الراجفَهْ
في بوادي الليل بين الأغلفَهْ
يُحْرَقُ النسل وتَنهار القُوى
في خويفِ الرؤيَةِ المرتجفَةْ
صدقيني .. خَلْفُ عصفورٍ مضينا
بأنابيبِ الفناءِ المشرِفَهْ
وحميناهُ ليومٍ واحدٍ
في مدارِ السنواتِ المُرْهَفَهْ
ورفعناهُ إلى الأعلى .. على
راحةٍ تَهوى جنونَ الأنَفَهْ
ورأيناهُ خَواءً مَلأَتْ
موتَهُ منّا القوى المنحرفَهْ
صَنَمٌ مِتْنا إذنْ من أجلِهِ
والتَهاءٌ لبقايا زائفَهْ
فاضحكي ... آلَمُ مايضحكني
وَقْفَةُ القشِّ بوجهِ العاصفَهْ

- ١٢ -

ـ تاهتِ العينُ التي في جفنها كان نهارْ
وانتهتْ سورةُ هذا الأرْعَنِ
وأدالَ الوعيُ دَوْلَهْ
في الضمير « المؤمِن »
حائِطُ الطغيانِ من يد هُمُهُ ؟
وَصَنيعُ الوحشِ يحمي في الضحى طَلْسَمُهُ ؟
آهِ ما أقسى مصيرِ نحن لانعلمُهُ ؟

* * *

مزقتْ أيدي الشعوبِ العَلَمَ الزائِفَ وانقضّ لواؤهُ
وتداعت جَوقَةُ الانشاد في مسرحِه ...
وانطفأت اضواءُ هذا المهرجان
وغدا يقرأ في دفتره الانسانُ في كل مكان
كيف كانت ثورةُ الانسان تمحو البربريه
وتزيحُ البَشرة السوداء عن وجه الزمان

وجه آسيا الحزين

قصة قصيرة

عبد الله أبو هيف

حين وطأت قدما آسيا أرض المدينة ، ارتعشت برعب وانبهار ، كان الوقت مساء ، والصخب في كلّ مكان ، ينبعث بتدفق ولمعان في رأسها .. السيارة صاخبة ، والرجل صاخب ، والأضواء تتراقص في العلب الضخمة . تنبعث من النوافذ والشرفات .

- لماذا لم تحضري أمس ؟

رجل يسأل امرأة في زاوية ضيقة :

- زوجي لم يخرج المناوبة .

وذعرت آسيا .. حملت صرّتها واندفعت بلا وجهة ، تتخبط في الشارع الذي يمتد بقسوة واستقامة حيث تتحرك الأشياء في داخله بحيوية وضجيج ، وفي منتصف الساحة وقف رجل يشير بيديه ، وينفخ في صفارته :

- يا أخ .. عفواً ، بالله

- نعم ..

ردّ عليها بينما انكفأت على نفسها بخجل:

ـ هل تعرف مقام ولي الله عثمان القربي ؟

ـ عثمان القربي .. عثمان ماذا ؟

ـ عثمان القربي .

ـ آسف .

ومضى ، تركها وحيدة ... خائفة ، لابت عيناها برعب ثم تابعت المسير دون وجهة معينة ، وكأنها تهرب من شيء يلاحقها .

* * *

بفرح صدّق غزوان أنها لاتكذب ..

وباطمئنان وعدها بأشياء كثيرة ..

ـ أحبّ أن تعرف أني قد أراك مرة ثانية ..

لم يغضب لهذه الكلمات ، لأنها تتحدث بلهجة الواثق من الانتصار ، ثم قالت وفيقة :

ـ أنا أحبك ، وهذا يفسر كلّ شيء !

الألوان لا زالت عاتمة ، والضوء قد وصل الى رمقه الأخير ، قال بهدوء:

ـ ثقي تماماً ، لم اكن بديلا ، دوماً كنت الأصل .. ان أكون صورة أو اطاراً

قال خليل الصراف : أرجو أن اراك غداً ..

أليس كذلك ؟ وحبذا لو تثق بي يا غزوان

قالت وفيقة العمري :

- أنت متوحش ، أنت همجي .. ثم قالت : لاتغب عني ، متى أراك؟

قال غزوان الشامي : آواه ياوفيقة ، إن كل الأشياء تمضي تصوري أننا وحيدان ، ولاشيء معنا سوى الصمت ، اسمعي صوت المطر .. أنا اشمّ رائحة البرد .. لقد نفذ إلى عظامي ..

- لماذا لا تضحك كالآخرين ؟ هل زارك خليل ؟

- ماذا تريدين ؟ أنا لا أفهم ، قولي ...

صرخت وفيقة في وجهه :

- غزوان ، أريد أن أراك ، أريد أن أراك ، أن أراك .. أريد أن..

أدار غزوان رأسه نحو الشمال ، حيث « الرقة » تنام على زند الفرات ، كان يمدّ خيطاً من الأنين والتوجع والشوق ، ليعانق النوافذ والوجوه ومواسم الكلمات والدرر القابعة فوق حبة قمح . قالت له :

- غزوان ، أنت لم تعد تحبني

- أعرف هذا .

- ولم تعد تتعاطف معي .

- أعرف هذا .

- ولم تعد تحب رؤيتي ..

- أعرف هذا .

- سأبكي اذن .

• • •

آسيا لازالت تبحث عن مقام ولي الله عثمان القربي . بينما تصدح أغنية من مكان ما :

« الحبّ طفل بوهيمي
لايعرف قانوناً » .

اقترب منها رجل .. كانت تلهث ، بلعت ريقها وقالت :

- هل تعرف مقام ولي الله عثمان المغربي ؟

- لا ..

وحين تركها الرجل كانت خطواتها تتباطأ .

* * *

- المجيء اليك يا غزوان ليس كالعودة منك ، يختلف الشعور .. من شعور طفل يعدو لالتقاط حبات المطر ، الى شعور رجل وئيد الخطا ، عائد من لقاء خائب .

في الساعات الأخيرة من ليلة الوداع - كما قالت - جلس تحت الشجرة القديمة التي أضاعت جذورها بين الصخور يفكر بساعات الصباح الباكر ، اذ انه سيعرف معنى فقدانها ، لم يفهم ماذا تعني ؟. ، قالت أيضاً :

- ثق تماماً ، انك لن تكون قمة ترتفع في العلاء كبرج بابلي !! لن تكون

في اليوم التالي رقصت أمامه وغنت :

« المدينة جميلة ، ولكني أجمل
لقد تعلمت النسيان
فدعني أضيع في صحراء وجهك ! » .

قال لها : إنه يعرفها تماماً وليس هناك داعٍ لأن تخفي عليه أسرارها . لم تبد اكتراثاً ، وتصلبت نظراتها في وجهه .. حاول جريئاً أن يحدثها عن عدم

رغبته في أن يراها ثانية ، لم يجد الكلمات المناسبة ، قام ولبس ثيابه ، بينما هي لاتزال عارية .. حاولت ان توقفه ، نهرها بشدة .. عرف أنها لابد قد شعرت بأنه يحتقرها ، استسهل هذا الامر ..

وقال لها ببساطة :

ـ أنا لا أقصد ايذاءك ، قد أراك مرة ثانية .

وبسرعة كان في الشارع حيث الناس والصراخ

قالت :

« سيدي ومعذبي المعذب ، تصوّر انها كلمة رومانسية ولكنها ذات جدوى حين لا نجد تعليلا لعذاباتنا سوى هذه الرومانسية التي سنفتقدها هي الأخرى حتماً ، غزوان .. » قال :

« لنتحدث ونبك ونضحك ، أهذا هو ماتريدين ؟ بعض الهدوء ـ الصخب .. بعضك »

قال احد الذين يمرون في الشارع :

ـ في الحرب نضاجع زوجاتنا من أنوفنا ، ونأكل وندخن . . ونثرثر أكثر من العجائز ، ونحشو أرحام النساء طيناً وقطناً ، ونكتب قصائد باهتة ومتعبة .

التفت خليل وقال :

ـ غزوان ، أشعر أنه سوف تكون لك آثار اقدام كثيرة وخصبة فوق خريطة عمري بالرغم من انعدامها التام في الماضي ..

ـ أنا لا أثق بك ..

ـ ولكن كيف تقول لك الكلبة : أنت متوحش ، أنت همجي . .
إنها تغازلني بنفس الكلمات !

* * *

ـ أهلاً وسهلاً بآسيا . . مابك مرعوبة ؟
ـ منذ سبع ساعات وأنا أبحث عنكم . . ثم تصوروا أن ولي الله عثمان القربي لا أحد يعرف مقامه .. دنيا مقلوبة .

* * *

ركض غزوان باتجاه الموج، لأن عادته الوحيدة هي الوقوف امام البحر ، لامس بده طائر ملون ، ارتجف الطائر . . صفق بجناحيه ثم ارتمى ميتاً على الشاطىء. ضم ألبسته ، تأكد من حزام الوسط الجلدي .
الآن هو صياد بائس ، فها هي الطيور ترتمي امامه ساخرة هازئة . . لاجدوى من الصيد . . الماء العكر سيظل عكراً ، شد خيط حذائه وعاد نحو المدينة يراقب كيف تذبل الأضواء امام مقبل الصباح .

* * *

تقرت آسيا ملامح وجهها بدقة ، ولكنها عبثاً كانت تبحث عن شيء . . عن عنف اللقاء في قطاعات النهار المهملة . . حدقت في اصابع يديها ، لم يكن هناك من حركة ، حاولت ان تلتفت ، صفعتها ريح الجهات الوافدة . . والعابرون لم يتوقفوا . . وهي لم تترك مكانها على رصيف الشارع ، لذا قررت ان تعود الى السؤال عن مقام ولي الله عثمان القربي .

الملحمة والمسرحية (١)

جورج لوكاتش

ترجمة : محيي الدين صبحي

المأساة والملاحم العظيمة ـ الملحمة والرواية ـ كلتاهما تقدمان العالم « الخارجي » ، الموضوعي، ولا تقدمان حياة الانسان الداخلية إلا بمقدار ماتعلن مشاعره وأفكاره عن حالها في أعمال وأفعال في تفاعل متطور مع الحقيقة الخارجية الموضوعية . هذا هو الخط الفاصل بين المسرحية والملحمة من جهة ، والشعر الغنائي من جهة أخرى. أضف إلى ذلك أن العظيم من الملاحم والمسرحيات كلتيهما تعطيان (صورة كلية) عن الحقيقة الموضوعية . وهذا ما يميزهما من حيث

---

(١) ألف لوكاتش كتابه « الرواية التاريخية » في عامي ١٩٣٦ – ١٩٣٧ . وصدرت الترجمة الانكليزية له في عام ١٩٦٢ .

يقع الكتاب في أربعة أجزاء . وعنوان الجزء الثاني « الرواية التاريخية والمسرحية التاريخية » والمقال التالي جزء من الفصل الأول في الجزء الثاني .

« المترجم »

الشكل والمضمون على السواء عن أنواع الملحمة الأخرى التي غدت « الأقصوصة » على الخصوص من أهمها في التطور الحديث . وقد تميزت الملحمة والرواية عن كل التنوعات الصغرى الأخرى في الملحمة بهذه الفكرة عن الكلية : فليس الفرق كمياً في سعته ، بل نوعي في الأسلوب الفني والشكل الفني ، وهو فرق يشكل كل الدقائق المفردة في عمل فني ما .

ومهما يكن من أمر ، فالفرق الهام بين الشكل المسرحي والشكل الملحمي يجب أن يذكر هنا : لا يوجد سوى نوع واحد « شامل » في المسرح . ولا يوجد شكل مسرحي ينطبق على الأقصوصة وحدها والحكاية وحدها والقصة الشعرية التاريخية . . . الخ . أن مسرحيات الفصل الواحد التي كانت تظهر بين الحين والآخر والتي كان ينظر إليها على أنها نوع خاص في نهاية القرن التاسع عشر كان ينقصها العنصر الدرامي إلى حد كبير . ومنذ أن غدت المسرحية سرداً انشائياً سائباً ، متفرقاً في حوار ، بقيت خطوة سهلة لتحويل « الأقصوصة » التي هي أقصر من المسرحية ، إلى مشهد يرافقه حوار . غير أن القضية الحاسمة ليست بالطبع قضية الشكل وحده ، تماماً كما أن الفرق بين الرواية والأقصوصة ليس فرقاً في الاتساع . إن المشاهد المسرحية القصيرة التي وضعها بوشكين هي - من زاوية التصوير المسرحي الواقعي - مسرحيات كاملة وتامة وليس لهذه المسرحيات أية علاقة بالحادثة المحدثة على شكل حوار بسبب ايجاز النص والتركيز الدرامي الشديد في المضمون والنظرة الشاملة .

أكد أرسطو على هذه الوشائج بين الملحمة والمسرحية : في قوله : « إن من يأخذ دور الحكم على محاسن المأساة ومثالبها لجدير بأن يكون الحكم في الأمور المتعلقة بالملحمة الشعرية » .

وسنقتصر هنا على البحث في دور المأساة، لأسباب لا مجال لعرضها. إلا أن المأساة والملحمة الكبرى تدعيان كلتاهما أنها تصوران شمول عملية الحياة . ومن الواضح في كلتا الحالتين أن هذا ليس إلا نتيجة البنية الفنية والتركيز الشكلي في التأمل الفني لأهم ملامح الحقيقة الواقعية الموضوعية . لأن من الواضح أن الحقيقة الأولية ، اللانهائية ، المترامية لشمول الحياة لا يمكن أن يعاد انتاجها ذهنياً إلا في شكل نسبي .

وعلى كل حال ، تتطلب هذه النسبية شكلاً متفرداً التأمل الفني في الحقيقة الواقعية . إذ لكي تصبح النسبية فناً ، يجب ألا تظهر مطلقاً بمظهر النسبية . إن التأمل الفكري الخالص في وقائع الحقيقة الموضوعية أو قوانينها قد يتقبل صراحة هذه النسبية ، وعليه في الحقيقة أن يتقبلها ، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه إذا تظاهر أي شكل من أشكال المعرفة بأنه مطلق ـ متجاهلاً الميزة الديالكتيكية للنسبي المحض، أي اعادة الانتاج الناقصة للانهائية الحقيقة الموضوعية ـ فلا بد أنه يزيف ويشوه الصورة . والمسألة تختلف تماماً في الفن . ومن الواضح أنه ما من شخصية أدبية تستطيع أن تضم الغنى الوفير واللانهائي في الملامح وردود الفعل بحيث يمكن أن توجد في الحياة ذاتها ، غير أن طبيعة الخلق الفني تكمن في قدرة هذه الصورة النسبية غير الكاملة على الظهور بمظهر الحياة نفسها ، بل في الحقيقة بشكل أكثر سمواً وكثافة وحياة من الحقيقة الموضوعية .

تتجلى هذه المفارقة العامة للفن في تلك الأنواع التي يسوقها مضمونها وشكلها لتبدو بمظهر صور حية لشمولية الحياة . وهذا مايتوجب على المأساة والملحمة العظمى أن تفعله . فهما تدينان بتأثيرهما العميق ، بأهميتهما المركزية والمرحلية في كامل الحياة الثقافية للجنس البشري ، لقدرتهما على استثارة هذا الشعور

في التلقي . فاذا عجزنا عن القيام بذلك فقد اخفقنا تماماً . وليس ثمة مطابقة طبيعية لأية ظاهرة من ظواهر الحياة أو اتقان شكلي كامل لأي بنية أو تأثير فردي ، يمكن لها أن تحل محل ذلك الشعور بشمول الحياة .

من الواضح ان هذه المسألة الملحة شكلية . لكن المظهر المطلق للصورة النسبية للحياة يجب ان يوضع على عاتق المضمون طبعاً . وهذا يتطلب سيطرة فعلية على الارتباطات المعيارية الجوهرية والأكثر اهمية بالحياة ، والكامنة في مصير الأفراد والمجتمع . وقد اتضح على كل حال أن مجرد المعرفة بهذه الارتباطات الجوهرية لايستطيع ان يفي بالغرض . فهذه الملامح الجوهرية للحياة وقوانينها ذات الأهمية العامة يجب ان تظهر في مفاجأة جديدة وكأنها ملامح فردية فريدة وروابط انسانية محددة ومواقف محددة . وان رسالة الشكل الفنيّ هي ان يعيد فردية ما هو عام في الانسان ومصيره .

المشكلة الخاصة بالشكل في الملاحم العظمى والمآسي هي ان تعطي هذه المفاجأة الحدسية ضمن شمولية الحياة ، وأن تستحضر بالعزائم والرقى عالماً وهمياً يقتصر – حتى في أوسع الملاحم – على عدد محدد جداً من الناس والمصائر البشرية بغية اثارة المشاعر بشمول الحياة .

النظريات الجمالية التي نشأت بعد ١٨٤٨ اخفقت في تفهم مشكلات الشكل بهذا المعنى الواسع . فهي حين لا تنكر بشكل عدمي ونسبي كل تمييز بين الأشكال تصنف هذه الأشكال بطريقة خارجية شكلية طبقاً لعلاماتها الفارقة السطحية . وعلينا ان نرجع الى النظريات الألمانية الكلاسية في علم الجمال لنجد هذه المسائل وقد عولجت في صميم جوهرها ، مع ان عصر التنوير قد ارتاد بالطبع العديد من هذه المسائل المفردة الهامة .

أعمق تعريف وأهمه للفرق بين الشمول في الملحمة والشمول في المسرحية ، يجب أن يوجد في استاطيقا هيغل. يبسط هيغل كأول مطلب لعالم الملحمة (شمول الموضوعات) التي أبدعت (من اجل ربط العمل الخاص بأساسه المادي الحيوي) . ويشدد هيغل عن حق ، على ان هذا لا يعني وجود عالم موضوعي مستقل بذاته . فاذا صنع الشاعر الملحمي مثل هذا العالم خسر كل قيمة شعرية . اذ أن الاشياء في الشعر هامة وممتعة وجذابة حين تكون فقط أغراضاً للفعالية الانسانية كأنها نواقل للصلات بين الافراد ومصيرهم الانساني . وليست الأشياء في الملحمة خلفية تزيينية أو أدوات آلية لتوجيه العمل ، ليس لها أهمية في ذاتها . والعمل الملحمي الذي يكتفي بتقديم الحياة الداخلية للانسان دون تفاعل حي مع الموضوعات التي تشكل محيطه الاجتماعي والتاريخي ، لابد ان ينحل في فراغ فـــني دون قوام أو اطار .

يكمن صدق تعريف هيغل وعمقه في الالحاح على التفاعل ، في حقيقة ان « شمول الموضوعات » التي يقدمها الشاعر الملحمي هو شمول مرحلة من التقدم التاريخي في المجتمع البشري ، وفي حقيقة ان المجتمع البشري ربما لا يمكن تقديمه في كليته مالم تقدم ايضاً الأسس التي تكتنفه ، وعالم الأشياء المحيطة به التي تشكل موضوع فاعليته .

ولهذا لا تغدو الأشياء اكثر اهمية ودلالة لأنها فقط تعتمد على الناس وتتعلق بهم دائماً ، بل لهذا السبب تتطلب استقلالها الفني كموضوعات للتقديم . والمطالبة «بشمول الموضوعات » في الملحمة ، هي في جوهرها مطالبة بصورة فنية للمجتمع الانساني الذي ينتج ويعيد انتاج ذاته بالطريقة ذاتها التي تتم بهـــا عملية الحياة كل يوم .

تصبو المسرحية أيضاً الى استيعاب شامل لعملية الحياة . ويتركز هذا

الشمول في كل الأحوال حول مركز ثابت ، حول صدام مسرحي ، ولنقل إنه صورة فنية لتلك التطلعات الانسانية التي تشارك في هذا الصدام المركزي، أثناء صراعها المتبادل . يقول هيغل :

« .. لهذا السبب يعتمد العمل المسرحي في جوهره على الأعمال المتصادمة ، ولا تتمكن الوحدة الحقيقية من حيازة أساس لها إلا في **الحركة الشاملة** .. إن الصدام - بحسب الظروف الخاصة والشخصيات والأهداف مهما كانت - يجب أن ينقلب بحيث يتطابق تماماً مع هذه الأهداف والشخصيات لكي يبطل تناقضها . بعدئذ يجب أن يكون الحل كالعمل نفسه ، ذاتياً وموضوعياً في وقت واحد . » .

بذلك يوازن هيغل « شمول الحركة » في المسرحية «بشمول الموضوعات» في الملحمة . فما يعني ذلك بالنسبة للشكلين الملحمي والمسرحي ؟ لنحاول توضيح هذا الفارق بمثل تاريخي شهير : لقد أبدع شكسبير في « الملك لير » أعظم المآسي وأكثرها اثارة في موضوع انهيار الأسرة . ولا يخرج القارىء من هذا العمل بدون احساس بالشمول المحيط به من كل مكان . ولكن بأية وسائل تحقق هذا الانطباع بالشمول ؟ يصور شكسبير مقابل ليروبناته ، غلوستر وأبناءه ليظهر الميول والحركات الخلقية الانسانية العظيمة والنموذجية ، التي تنبجس من انهيار الأسرة الاقطاعية واشكاليتها ، بشكل مبالغ في التصعيد . هذه الحركات النموذجية المسرفة في مبالغتها تشكل نهجاً مغلقاً تماماً ، تشكل المجادلات التي تستنفد كل الاتجاهات الانسانية الممكنة نحو الصدام . فمن المستحيل أن تضيف صلة جديدة الى هذا النهج ، أو محاولة جديدة للحركة ، بدون أن تقع في لغو خلقي ونفسي . هذا الغنى النفسي في الشخصيات المتصارعة وقد

تحلقت الصدام ، وهذا الشمول المحيط الذي تعكس به الشخصيات كل امكانيات هذا الصدام ، بعد ان تشكى كل من الآخر ، ينتج « شمول الحركة » في المسرحية .

أي شيء لاتضمه المسرحية ؟ نحن نفتقد هنا حياة البيئة المحيطة بالأبوين والأطفال ، الأساس المادي للأسرة ، نشوءها وانحطاطها الخ ... والمرء لايحتاج إلا لأن يقارن هذه المسرحية بالصور العائلية العظيمة التي تعرض « اشكالية » الأسرة بطريقة ملحمية ، مثل « أسرة بود نبروك » لتوماس مان و « بيت أرمازوف » لغوركي . فأي غنى واتساع نجده هنا في عرض الظروف الواقعية لحياة الأسرة ، وأي تعميم هناك لصفات الانسان الخلقية المحضة ، والارادات التي يمكن استدعاؤها لتصطدم !! في الحقيقة لابد أن نعجب أشد الاعجاب بفن شكسبير الخارق في التعميم المسرحي لأنه جسد الجيل القديم من الأسرة من خلال لير وغلوستر فقط ، ولو أنه قدم لير أو غلوستر أو كليهما ومعه زوجته — وهذا ما كان سيضطر إليه كاتب الملحمة بكل تأكيد — فاما أن عليه أن يضعف التركيز حول الصدام (إذا كان الصراع مع الأطفال قد ولد صراعاً بين الآباء) أو أن الزوجة ستكون تحصيل حاصل في المسرحية إذ أن بالامكان استخدامها فقط كظل متقاص لزوجها ، فمن ميزات الجو الملطف للتعميم المسرحي أن هذه المأساة تؤثر في المشاهد كمشهد متحرك ، وأن مسألة غياب الزوجتين — مثلاً — لاتخطر على بال . على حين أنه في عمل ملحمي مماثل ، لابد أن يبدو موقف من هذا النوع مع مصيرين مماثلين موقفاً مدبراً ولسوف يحتاج إلى مناقشة خاصة ، اذا كانت مناقشته واردة أصلاً . ومن الطبيعي أنه يمكن

توسيع التحليل حتى يشمل تصوير أدق التفاصيل . لكن مايهمنا في هذا المجال هو ان نبرز التضاد في خطوطه العامة .

بتركيز انعكاس الحياة على الصدام العظيم ، بتجميع كل مظاهر الحياة حول هذا الصدام والسماح لها بأن تبرز نفسها كلما تعلق الأمر بالصدام فقط ، تبسط المسرحية وتعمم مواقف البشر الممكنة من مشكلات حياتهم . وقد تم رد التصوير إلى التمثيل النموذجي لأكثر مواقف البشر أهمية وتمييزاً ، إلى مالا غنى عنه في التشغيل الديناميكي للصدام ، الى تلك « الحركات » الاجتماعية والانسانية والخلقية في البشر ، والتي بسببها يظهر الصدام والتي يحلها الصدام . إن كل شخصية ، وكل سمة من السمات النفسية للشخصية تتجاوز الضرورة الجدلية لهذا الترابط ، والضرورة الجدلية لديناميكية الصدام لابد أن تكون سطحية ، من وجهة نظر مسرحية . ومن هنا كان هيغل على حق في أن يصف كل مؤلف محل نفسه بهذه الطريقة بأنه « شامل الحركة » .

أما مدى غنى هذه النموذجية واتساعها فيعتمد على طور التقدم التاريخي الذي تنتمي إليه المسرحية ، ومع هذا الطور هناك فردية الكاتب.

أكثر الأشياء أهمية على الاطلاق الديالكتيك الموضوعي الداخلي للصراع ذاته الذي يعين حدود « شمولية الحركة » بشكل مستقل عن وعي الكاتب المسرحي . لنأخذ على سبيل المثال مسرحية أنتيغونا لسوفوكليس .

قضى كريون ألا يدفن بولينيكوس . في هذا الموقف المعطى يتطلب الصراع المسرحي طرفين ، وطرفين فقط ، هما شقيقتا بولينيكوس . ولو أن أنتيغونا الشقيقة الوحيدة لأعطت مقاومتها البطولية للمرسوم الملكي انطباعاً بأن

رد فعلها اجتماعي متوسط وبديهي . فشخصية أختها إيسمين حيوية لابراز أن عمل أنتيغونا بطولي فعلاً وأن تعبيرها البديهي الذي صدر في مرحلة خلقية مبكرة قد تلاشى ، وإن لم يعد في الظروف الراهنة رد فعل تلقائياً أو بديهياً : ان ايسمين تشجب منع كزيون مثلما تشجبه أنتيغون ، لكنها تطلب من أختها البطلة ، أنتيغون ، أن تخضع لقوة السلطة باعتبارها الطرف الأضعف . وأعتقد أن من الواضح أن مأساة انتيغون بدون ايسمين لن تكون مقنعة ، وأنها لن تكون بدونها صورة للشمول التاريخي ـ الاجتماعي ، مثلما أن وجود أخت ثالثة لهما ليس له اي معنى .

لهذا كان ليسنغ على حق ، في مناظرته ضد « المأساة الكلاسية » حين أكد أن مبادىء شكسبير في التأليف المسرحي هي في أساسها المبادىء اليونانية ذاتها . والفرق بين الاثنين فرق تاريخي . ان بنية الصدام في الحقيقة الواقعية نفسها تضاعف وتتشابك نتيجة لتزايد الصلات الانسانية ذات الموضوعية المتزايدة والتعقيد الاجتماعي ـ التاريخي ، وما تآليف المسرحية الشكسبيرية الا انعكاس صادق عظيم لهذه الحالة الجديدة التي دخلت فيها الحقيقة الواقعية ، مثلما كانت مآسي أسخيلوس وسوفوكليس تتلاءم مع أبسط الأمور في أثينا القديمة . يدل هذا التغير التاريخي على شيء جديد نوعياً لدى شكسبير يتعلق بالبنية المسرحية . طبيعي أن هذه الجدة ليست مجرد زيادة خارجية بسيطة في غنى العالم المصور . بل على العكس ، لقد ابتكر شكسبير منهجاً جديداً تماماً واصيلا للحركات الاجتماعية والانسانية ، كما أنه نموذجي ومتنوع ولو انه رد هذا التنوع الى ما هو ضروري بصورة نموذجية . وبالضبط ، لأن الطبيعة الداخلية لمسرح شكسبير تقوم على نفس المبادىء الاغريقية ، كان الشكل المسرحي لديه بالضرورة مختلفاً تمام الاختلاف .

ان صحة تحليل ليسينغ وعمقه يظهران نفسيهما بشكل اكثر ملاءمة حين تورد امثلة سلبية. ثمة رأي مجحف واسع الانتشار بأن التركيز الخارجي على الفعل، وتقليص عدد الشخصيات الى اقل ما يمكن .. الخ يمثل نزعة مسرحية خالصة، في حين أن التغيير المتعدد والملون المشاهد، وكثرة عدد الشخصيات الا يمثل نزعة ملحمية في الدراما. هذا المفهوم سطحي وخاطيء معاً إذ أن الشخصية في المسرحية، تعتمد في كونها مسرحية أو روائية على طريقة حل مشكلة « شمول الحركة » وليس على علامات فارقة شكلية فقط.

لنأخذ طريقة التأليف في « المأساة الكلاسية »، فهي تحاول أن تتحقق من الوحدة الشهيرة الزمان والمكان. ويتناقص عدد الشخصيات الى اقل ما يمكن. غير أن في هذا الحد الأدنى شخصيات سطحية تماماً من الوجهة المسرحية، وبخاصة « امين السر » الفضاح. ان ألفيري الداعية الى هذا النوع من التأليف، لم يقتصر على نقد الدور غير المسرحي لهاته الشخصيات نقداً نظرياً، بل حذفها عملياً من مسرحياته، فماذا كانت النتيجة ؟ ربما لم يكن بين ابطال ألفيري « أمناء السر » لكن بينهم حواراً غير مسرحي شديد الطول. ان نقد الفيري يعرض جانباً مسرحياً زائفاً من « المأساة الكلاسية » ويضع في مكانه حشواً بعيداً عن المسرح بعداً ظاهراً. الخطأ في التأليف على هذا الأساس من المشكلة بأكملها هو أن هؤلاء الكتاب يجعلون الصدام مجرداً بطريقة آلية ووحشية (يحدث هذا بطرق مختلفة، لأسباب تاريخية وفردية مختلفة، ولدى مؤلفين مختلفين يمثلون هذه النزعة). ينتج عن ذلك خسارة الديناميكية الحية « لشمول الحركة ». ولو أعملنا الفكر مرة اخرى بشكسبير لوجدنا ان « اكثر ابطاله عزلة » لا يعيشون وحدهم. ومع ذلك فلم يكن هوراشيو أمين سر هاملت بل كان قوة دافعة مستقلة وضرورية

للفعل الشامل . وبدون نظـام التعارض بـين هاملت وهوراشيو ، وفورتنبراس ولبرتس لن يكون هذا الصدام المحدد ممكناً في هذه المأساة . وبالطريقة ذاتها كان لمركوتيو وبنغوليو وظائف ضرورية ومستقلة في مسرحية « روميو وجولييت » .

قد تظهر المسرحية الطبيعية على انها مثل مضاد . فالشخصيات ، وقـــد وضعت وضعاً دراماً الى حد ما ، (كما في مسرحية « النساج » لهوبتمان) يبدو معظمها ضرورياً ، يمثل أجزاء حية من الشمولية العينية المحـدّدة لفئة النساج . ونجد مقابل ذلك ان معظم المسرحيات الطبيعية تضم دائماً عدداً من الشخصيات التي لا تصلح الا لتوضيح البيئـــة الاجتماعية أمام المشاهد ، ويشمل ذلك حتى المسرحيات التي تتعمد تقليل عدد الشخصيات وتركيز حبكاتها من الناحيتين الزمانية والمكانية . ان كل شخصية من هذه الشخصيات وكل مشهد لها تحول المسرحية الى رواية ، لأنها تعبر عن عنصر « شمول الموضوعات » ، وهو عنصر غريب بطبيعته عن غاية المسرحية .

يبدو هذا التبسيط كأنه يبعد المسرحية عن الحياة . كما أن هذه المسافة الواضحة بينها أفسحت المجال لظهور نظريات متعددة زائفة حول المسرحية : كانت النظريات المتعددة في الماضي تبرر « المأساة الكلاسية » ، وفي أيامنا تبرر النظريات « تقليداً » معيناً في الشكل المسرحي ، أو « الاستقلال الذاتي » للمسرح . الخ ، وليست النظريات الأخيرة اكثر من ردود فعل عن الفشل الضروري للمذهب الطبيعي في المسرحية ؛ لكنها ، بعد ان وضعت نفسها في أقصى الطرف المقابل ، تتحرك ضمن الدائرة الكاذبة المفرغـــة ذاتها للمذهب الطبيعي نفسه .

على كل حال ، من واجب المرء ان يرى « مسافة » الدراما هذه كاحدى

وقائع الحياة ، كانعكاس فني وتأمل بالسؤال : كيف تكون الحياة ذاتها بصورة موضوعية في لحظات معينة و كيف « يظهر بالضرورة » طبقاً لذلك ؟

من المقبول به عموماً أن الموضوع الرئيسي المسرحية هو صدام القوى الاجتماعية في أشد نقاطها تطرفاً وحدة . ولا حاجة بنا الى ادراك خاص لنرى الصلة بين الصدام الاجتماعي في شكله المتطرف من ناحية والتحول الاجتماعي ، أي الثورة ، من جهة أخرى . ان كل نظرية عن المأساوي ، أصيلة وعميقة ، تلح على ان من ابرز صفات الصدام ضرورة أن يأخذ كل طرف من الأطراف المتصارعة زمام المبادرة من ناحية ، كما تلح من ناحية اخرى على ان يسوى الصدام بالقوة والعنف . فاذا عن المرء ان يترجم هذه المتطلبات الشكلية للصدام المأساوي الى لغة الحياة فبامكانه ان يرى فيها اكثر السمات المعممة رفعة للتحول الثوري في الحياة ذاتها ، بعد ان ارجعت الى الشكل المجرد للحركة .

ومن المؤكد انه ليس من باب الصدفة المحضة ان تتلازم الفترات العظمى لفن المأساة مع التغيرات التاريخية العالمية العظمى في المجتمع الانساني . وقد رأى هيغل — ولو بصورة صوفية غامضة — في صراع انتيغونا سوفوكليس اصطدام القوى الاجتماعية الذي ادى على صعيد الواقع الى دمار الأشكال البدائية للمجتمع وظهور دول المدن اليونانية . ومع ان تحليل باخوفين لأورستيا أسخيلوس يشدد على الاتجاهات الصوفية اكثر من هيغل ، فانه يصوغ هذا الصراع الاجتماعي صياغة اكثر تحديداً ، أي على أنه صدام مأساوي بين نظام الأمومة الآفل والنظام الاجتماعي الأبوي الجديد . ان تحليل انغلز العميق الصارم لهذه المسألة في كتابه « أصل الأسرة » يوقف نظرية باخوفين الصوفية المثالية على قدميها عن طريق المذهب المادي فهو يثبت بالحجة والبرهان النظري والتاريخي ضرورة القرن بين نشوء المأساة اليونانية وهذا التحول التاريخي العالمي في تاريخ الجنس البشري .

يتشابه هذا الوضع مع الازدهار الثاني المأساة خلال عصر النهضة . ففي هذا العصر قدم الصراع التاريخي العالمي بين الاقطاعية المحتضرة وآلام المخاض للمجتمع الطبقي - قدم الشروط المسبقة لبعث الدراما في مادتها وشكلها . وقد بين ماركس هذا القرار بشكل واضح تماماً فيما يتعلق بمسرحية عصر النهضة . كما انه ذكر في كتابات متعددة الضرورة الاجتماعية لظهور الفترات المأساوية وختامها . ولهذا أبرز ماركس في كتابه « مساهمة في نقد فلسفة الحق عندهيغل » (١٨٤٤) عنصر الضرورة والاحساس العميق بالتلاؤم الذي يظهر من هذه الضرورة وسط الأقسام المحتضرة في المجتمع - أبرز ذلك على أنه شرط مسبق للمأساة : « طالما أن النظام القديم ، باعتباره النظام العالمي القائم ، يناضل ضـــد عالم على وشك الولادة ، فثمة من جانبه خطأ تاريخي عالمي ، ليس شخصياً . وهذا هو السبب في أن سقوطه مأساوي . »

في هذا المقال من مقالات ماركس في شبابه ، كما كتب فـيما بعد في « الثامن عشر من بروميير » . يقدم ماركس تحليلاً ثاقباً للسبب الذي تغدو من أجله صدامات تاريخية معينة مواد للملهاة . ومن الامور التي تعد غاية في الامتاع والأهمية لنظرية المسرحية ان النتيجة الموضوعية للتقدم التاريخي الذي بحث فيه ماركس ، كانت على الدوام تتألف من الضرورة المأساوية لاقدام احد اطراف الصراع على العمل - ويكون العمل من جانب خصوم التقدم الانساني .

وعلى كل حال فسيكون من ضيق الأفق ان نقصر وقائع الحياة الـــتي تستصر تحت الشكل المسرحي - بطريقة صارمة آلية على الثورات التاريخيـــة الكبرى وحدها . فسوف يجر هذا الى عزلة فكرية للثورة عن الاتجاهات العامة

والداغة للحياة الاجتماعية ، وستقلب مرة اخرى ظاهرة الثورة الى « كارثـــة طبيعية » . ومن ناحيـة اخرى يجب على المرء ان يلاحظ قبل كل شيء ان هذه الصدامات الاجتماعية التي تحمل في ثناياها بذور الثورة لم تؤد كلها في الواقع الى ثورات تاريخية . وقد اشار ماركس ولينين مراراً وتكراراً الى وجود اوضاع لم تؤد الى انفجار ثوري مع انها ثورية من الناحية الموضوعية ، لأن تطور العامل الذاتي لم يكن كافياً . والمثل على ذلك مرحلة مابعد ١٨٥٠ في المانيا .

شيء من مسرح ونوس

نواف أبو الهيجاء

المسرح، كظاهرة حضارية ، يعتبر من اهم المنابع التي ترفد هذا الوجود الحضاري لأي شعب من الشعوب . ولكي يكون المسرح ـ تعبيراً ـ حضارياً لشعب ما وجب ان يكون نابعاً من صميم هذا الشعب بالذات . ومن هنا ، من هذه العلاقة الحية الحتمية المتنامية ، رددنا كثيراً ، نغمة « الكاتب المحلي » . ولم ينس الكثيرون ، أيضاً ، أن يرددوا النغمة معنا ، لكن الأقوال كانت ، دائماً ، لا تقترن بالافعال ، بل ولا حتى بحسن النية . وهكذا ظل مسرحنا المحلي مخنوقاً، بوسائل رسمية ، حتى يومنا هذا تقريباً . ان المهمة الأساسية المطروحة على العاملين في حقل المسرح هي : خلق الجمهور المسرحي . لأن الجمهور هو مفتاح السر .. كلمة السر في المسرح العربي المطلوب . وخلق الجمهور لايتم إلا بتقديم أعمال مسرحية ـ في المناطق كافة ـ ملتصقة بالجمهور نفسه ، معبرة عن همومه ، ومشكلاته اليومية والمصيرية . ويجدر بي هنا أن اذكر الجميع ان النص ـ العالمي ـ ذاته

لا يمكن أن يكون وسيلة الاتصال مع الجماهير من اجل خلق مسرحنا العربي . ان النص العالمي ، الأجنبي ، المترجم لايقدم إلا زاداً بسيطاً لقسط غير وفير من الناس ، لكن الذي يقدم القسط الوفير هو النص المحلي ، أو العربي ، الذي يجعل ، أو يحاول ان يجعل من المسرح حلقة تواصل مفتوحة تضم الجمهور والممثل والنص في انسجام موضوعي من شأنه خلق رابطة وثقى ، تتقوى مع الأيام والتجارب ، بين الخشبة والناس .. بين المسرح وجمهوره . من أين لنا بالمسرح إن هجر الجمهور الصالة ؟

سعد الله ونوس من أهم الشباب الذين يكتبون المسرح منذ سنوات طويلة . وسبق له أن نشر مجموعة مسرحيات قصيرة هي « حكايا جوقة التماثيل » إلا أن هذه المحاولات كانت أقرب الى « الذهنيات » منها الى أرض الواقع . وجاء حزيران ، ومعه الهزيمة ، ومعه في الوقت نفسه هزة حركت وغيرت في نفسية الكثيرين من أبناء شعبنا ، لاسيما الكتّاب منهم ، وهكذا ظهرت « حفلة سمر من أجل ٥ حزيران » ، اول نص يكتبه سعد الله ونوس بعد هزيمة ١٩٦٧ ، في هذا النص جسّد ونوس المرارة التي عششت في قلوب وحلوق جماهيرنا ، ومن هذه المرارة انطلق الى تفنيح الجروح ، الى القاء الضوء على واقعنا ، الى التساؤل المر عن اسباب هذه الهزيمة . لكن « حفلة السمر » هذه كانت محاولة « تنفيس » اكثر منها أي شيء آخر لكن الذي يؤلم حقاً هو ان الجميع ، جميع الذين كتبوا عن حفلة سمر عاملوها على اساس انها عمل درامي متنام ومتكامل . والحقيقة ان « حفلة السمر » لم تكن « مسرحية » بمعنى انها تقدم عملاً درامياً ، فيه شخوص متنامية ومتطورة Round characters ، وهي لاتقدم حدثاً ، حياً ، ضمن حيز الزمان « المسرحي » ـ داخلياً كان هذا الحدث أم خارجياً ـ (داخلياً بمعنى

انه يطور الشخصية من الداخل ، من خلال انعكاس الأحداث الخارجية - الموضوعية - في النفس الانسانية ، وخارجياً بمعنى : الحدث الموضوعي - والحركة - المنظورة التي تتم على الخشبة ، والتي تجعل من الخشبة ارضاً واقعية أو هي انعكاس لأرض واقعية) . ان « حفلة سمر » تفتقر الى «تكامل الحدث ، وتطوره ، ونموه خلل العرض ، وخلل الحدث ، لتتكون ، في النهاية ، الصورة الكاملة - الدراما - التي تجعل من العمل الفني مسرحية . ان حفلة سمر « حوارية » وهذا لايفقدها أهميتها . انها حوارية ناضجة هيأت الجو لسعد الله لكي يكتب فيما بعد مسرحيته المتكاملة « مغامرة رأس المملوك جابر »[1] التي سأحاول ان اقدمها في هذه الكلمة عن مسرح ونوس .

اذا كان سعد الله قد حاول في « حفلة سمر » ان يوجد التواصل ما بين مساحتين هما مساحة المسرح ومساحة الصالة « الجمهور » فان « مغامرة رأس المملوك جابر » جاءت لتكرس هذه المحاولة ، ولتضعها بصورة اكثر وعياً وتركيزاً . ونجاحاً بالتأكيد .

يعتمد سعد الله ونوس في مسرحيته هذه على امرين يعتبران، في حقيقتهما، من الأمور التي لابد من اخذها بعين الاعتبار من قبل « الجمهور ، الاخراج ، والمؤلفين أيضاً :

الأمر الأول : اعتماده على تقديم « الحكواتي » الرواية المسرحية . أي أن يقوم الحكواتي برواية المسرحية امام جمع من الناس . و « الحكواتي » كان من أول المحاولات المسرحية العربيــة قديماً وحتى الى اعوام خلت . فكم من

(١) سعد الله ونوس ، مغــامرة رأس المملوك جابر - الفيل ياملك الزمان . مسرحيتان - المكتبة المسرحية (٣) - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧١ .

حكواتي يعرف اباؤنا ونعرف نحن أيضاً !؟ وكم من سهرة قضيناها ونحن نستمع الى الحكواتي يروي قصص الزير والف ليلة وعنترة .. الخ ؟؟ ان وجود الحكواتي ورسم الجو وكأنه في مقهى شعبي أمران جديران بأن يسجلا للمسرحيـــة أول انتصار لها في محاولتها ـ الأساسية ـ جذب اهتمام الجمهور المشاهد وجره الى قلب الأحداث . اما وان سعد الله قد اضاف الى ذلك التعليقات التي تصدر عن الجمهور كمبادرة في حرية التعبير والمشاركة فان هذا قد اسهم الى حد كبير في شد وجذب الجمهور الى الخشبة بشكل يضمن استمرار أو وجود نوع من العلاقة الموضوعية والحية والتي تتجدد باستمرار وتتوطد بعد كل عرض لهذه المسرحية بين الكتلتين « كتلة الخشبة وكتلة الجمهور » .

وعدم اصرار سعد الله ونوس على « حوار النص المنشور » ، ولاسيما فيما يتعلق بتعليقات الجمهور وآرائه يعتبر بادرة لتتيح فرصـــة أخرى امام الجمهور لتسجيل الآراء والتعليقات والنقاشات وفق متطلبات الواقع اليومي للناس وعلاقاتهم واحوالهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية والفكرية . وعما يدور في خاطرهم اثناء عرض المسرحية ، من احداث تثير شتى التعليقات من قبلهم . اذن كانت هـذه البادرة جديدة ومثيرة حقاً . جديدة على جمهورنا باعتبارها تحاول ان توجد الرابطة القومية بين ما يجري على الخشبة ، وبين ما يجري داخل الصالة ، وتوثق رابطة واعية بين جدليتين : علاقة الجمهور بالحدث ، وعلاقة الحدث، التاريخي اوالمروي، الذي يقدمه الحكواتي - بالواقع الراهن الذي يحياه الجمهور . وهذه البادرة مثيرة لأنها خطوة جريئة تستقي من أسس البدايات المسرحية العربية ، اثناء جلسات السمر القديمة والحلوة . وهي بهذا تردم الفجوة القائمة من جراء تقديم نصوص هي بعيدة كل البعد عن جمهورنا وغريبة عنه كل الغرابة ، وتبعده ، يوماً بعد يوم ،

عن الصالة ، وعن النظر الى « الخشبة » ، وبالتالي تحاول ان تقطع اي خيط ، واه ، يشد هذا الجمهور بالخشبة . وهذا لا يعني مطلقاً ادانة لكل محاولة لتقديم نصوص « اجنبية » بل يعني ان علينا ان نقدم لهذا الجمهور نصوصاً تعبر عنه ومن ثم فلا مانع من تقديم النصوص العالمية لانها تغني جمهورنا وتصله بالعالم المحيط به .

الامر الثاني : اعتماده على « **خلق الحدث التاريخي** » ، وشحن الجو النفسي والعام للجمهور لادخاله في صميم الحدث التاريخي ، ومن ثم جره ، شاء ذلك ام أبى ، الى صلب قضايا يعيشها هذا الجمهور في حاضره . وعلى هذا فلقد جاءت الحبكة غاية في الدقة ، والاثارة ، والتجديد ، مما يجعلها - فنيا - تقف في مصاف الأعمال الفنية الكبرى التي توجد ذلك « الاندماج » الحقيقي، كمعادل موضوعي ناجح - بين قضيتين - احداهما كانت حدثاً تاريخياً جرى وانتهى ، والأخرى ، او الأكثر من الاخرى - مازالت في طور التكوين او هي سوف تكون او هي معاشة واقعاً .

هذا الأمر - الثاني - باتحاده مع الأمر الأول شكل توازناً منطقياً ومعقولاً جداً في الوقت نفسه بين الحدث الجاري - على الخشبة - وبين مايعيشه جمهور الصالة المتفرج على هذه الخشبة ، والمندمج في « الموضوع » الى درجة انه يجلس في « مقهى » يستمع الى « الحكواتي » .

يبقى الموضوع الذي يعالجه ونوس ومدى مساسه ، من قريب او من بعيد ، بواقعنا العربي الراهن .

لست في معرض تقديم تلخيص للحدث بقدر ما انا جاد في تقديم عرض، موجز ، فكرة موجزة عن « الحدث » الذي اعتمده ونوس اساساً لمسرحية « مغامرة رأس المملوك جابر» ان تلخيص العمل الفني امر مجحف وظالم. والعمل

الفني المتكامل يعرض عليك ان تقول : لكي الحصة يجب ان اقدمه كاملاً ! !
وهكذا هو امر هذه المسرحية .

في « الحكاية التاريخية » ان خليفة بغداد على خلاف مع وزيره. الخليفة قوي المركز والوزير ضعيف المركز وان كان له فئة انصار لكن هؤلاء الانصار اغراب ولا علاقة لهم بتربة الوطن . لا يهمنا ان نعرف هنا من هو على حق ! المملوك جابر لا يتدخل في السياسة . لكن حدثاً هاماً يجره مختارة ، طواعية ، الى زج نفسه في الموضوع . ان الوزير على استعداد للبذل من اجل توصيل رسالة هامة الى اصدقائه – في الخارج – ! ورجال الخليفة وجنده يفتشون كل شيء . المملوك جابر يطمح ان يتزوج احدى الجواري ، ويطمح ان يحصل على حريته ويتفتق ذهنه عن وسيلة ناجعة للخروج بالرسالة. هذه الوسيلة تتلخص فيما يلي : ان يحلق شعر رأسه ، ان يكتب الوزير الرسالة على جلدة رأسه ، يجبر لانزول ، ان ينتظر مدة كافية لينبت شعر رأسه ، ثم يخرج الى بلادفارس لتوصيل الرسالة. يعده الوزير خيراً وفيراً ، وتنجز المهمة . ويصل المملوك جابر الى بلاد فارس ، ويقابل ملكها ويخبره عن سر الرسالة . ماذا تقول الرسالة ؟ تقول الرسالة : ليتدخل جيش اجنبي لصالح الوزير و . . . ليقطع رأس حامل هـــذه الرسالة . هكذا يدفع جابر ثمن تدخلة هذا . . وتدفع بغداد واهل بغداد ثمن خيانةالوزير، اذ يدخل الجيش بغداد غازياً يدمرها . وماذا من أمر الوزير ؟ سيصبح كلبــاً للغزاة . . أما اهل بغداد الذين كانوا يبحثون فقط عن نعمــة الخبز ، دون اهتمام بما يجري « فوق» ، فلقد دفعواوحدهم الثمن. ولم يسمعوا كلمات«الرجل الرابع» الذي كان يسأل كثيراً ويتدخل في السياسة ويسجن مرات عديدة !

هذا باختصار عرض للفكرة التي اعتمدها ونوس اساساً لكتابة «مغامرة

راس المملوك جابر » . ان ميزاتها كثيرة ، لكن اهم ميزة ، في نظري ، ان هذه المسرحية لا تخرج مع المشاهد ، او القارىء ، في مصالحة ، على حساب النموذج التاريخي للعمل الفني ذي الوظيفة انها لا تهادن القارىء او المستمع او المشاهد ، انها تحاول رص الملح في الجروح من اجل ان تكون لها جدوى ووظيفة . وهنا ، هنا بالذات يكمن الفارق الكبير بينها وبين « حفلة سمر من اجل ٥ حزيران » ان « حفلة سمر » محاولة « تنفيس » ، اما « مغامرة راس المملوك جابر » فهي محاولة « تعبئة » ، وفي النتيجة فان حفلة سمر ذات نائج سلبي ، وربما خالفت الكثيرين في هذا الاستنتاج ، ولكن ، مغامرة رأس المملوك جابر » ذات نائج ايجابي .. غاية في الايجابية . انها تثير الجمهور وتستنفره في آن واحد .. وهي لا تخرج في مصالحة ، على حساب الواقع والوظيفة الانسانية للكاتب ، وعلى حساب العمل الفني ايضاً ومن هنا استغرب شديد الاستغراب لماذا لم تحظ هذه المسرحية من العناية « والضواحة » بما حظيت به «حفلة سمر» !!؟

من وحي هيتشكوك

ترجمة : محمد عبد الكريم الحلبي

قام المخرج الفرنسي المعروف فرانسوا تروفو مؤخراً باعداد كتاب عن حياة المخرج العالمي هيتشكوك واعماله الفنية، وأورد فيه اشارة الى ما ينوف عن ثمانية وعشرين مخرجاً يرى تروفو تأثرهم الواضح بأفكار وفن (المعلم) كما يسمي هتشكوك. وقد تضمنت القائمة الى جانب تروفو نفسه كلود شابرول وآلان رينيه وستانلي دونن وانجمار برغمان و كيروساوا في اليابان، وهو ينوي اضافة اسماء حـديثة ثبت له وجود ترابط بين اعمالها الأخيرة وبين منجزات هيتشكوك كـ (بيتر بوغدانوفيتش)، لأن فيلمه الأخير (اهـداف) مثله مثل الكثير من اعمال تروفو (فهرنهايت ٤٥١ ـ العروس ترتدي السـواد ـ البشرة الناعمة) تحفل من حيث المضمون والشكل بأحاجي وألغاز جميعها جاءت من وحي الرجل العظيم.

ولكن تروفو باعتبـاره الابن البار لرينوار لم يتردد في المضي في طريقـه

(*) من مجلة Film end Filming

الخاص في فيلمه (العروس ترتدي الحداد) بشكل جعله يبتعد بعض الشيء عن الطابع المتشكوكي فالفيلم كما هو الحال في فيلم بوغدانوفيتش (اهداف) يتناول موضوع القتل الجماعي وهو موضوع لم يجتذب اهتمام هتشكوك سابقاً ، إذ أنه يجد في طرقه صعوبة تتعلق بكيفية الحصول على تعاطف المتفرج وتحول هذا التعاطف بين الضحايا وقاتلها على نحو ملائم .

ان جان مورو (العروس التي ترتدي الحداد) من حيث كونها قاتلة بالجملة في فيلم تروفو قد تعطي المشاهد قناعة بصدق الشخصية وواقعيتها ، في حين يلفها الغموض ويحوطها الوهم كخيال اسود وابيض ذو خلفية ملونة ، ولكن تروفو باصراره على اعطاء هذه الشخصية ابعاداً من صنع يديه جعلها تبدو غير مقنعة ، إذ ظهرت بحالة مستمرة من الحيوية المتوفزة جعلت نوعيتها تنقلب الى شفافية رقيقة تطفو فوقها الاحلام الغريبة التي تحياها . وهذا الى جانب الكثير من المشاهد التي تحمل طابع تروفو نفسه ، والتي لا تترك مجالاً للشك في الاسلوب التقني الذي يتبعه عند اي متتبع لأعماله ، ومن بين هذه المشاهد ظهور البطلة في ملابس الأرملة عند اختتام حفل الجنازة و كذلك مشهد اطـــلاق الرصاص على درج الكنيسة بجوه الحالم وتكراره المتعمد وكل منا يعرف مقدرة تروفو في استغلال تناغم الظل والضوء في خلق الأجواء المشبعة بالأحاسيس النفسية عند ابطاله ، ومع هذا كله يبقى البناء الميلودرامي للفيلم حافلا ببصمات هتشكوك ، فهنالك الافتتاحية بما تزخر به من مضايقات وجريمة القتل الأولى وما تتركه في نفس المشاهد من حيرة تجعله يخمن ما الذي سوف تقدم عليه هذه السيدة بعـــد الآن ، الجريمة الثانية ذات الايقاع البطيء وما صاحبها من افصاح تام وهادىء عن حقيقة الدوافع لدى البطلة ، دفتر المذكرات الصغير الأنيق تحتفظ به العروس كسجل لقوائم الضحايا تشطب

منه الاسم بعد الآخر بعد أن تفلح بالتشطيب على صاحب الاسم بينما لا تزال جثته تقبع ساخنة عند قدميها ، ان هذا يجعل كيم نوفاك بطلة هيتشكوك في (فرتيغو) تبدو كواحدة من بطلات الافلام الوثائقية في عرف صانعي افلام الاثارة والتشويق ، ومن هنا يمكن أن نعتبر فيلم تروفو هذا ابتعاداً سطحياً عن رؤاه الخاصة أو مجرد محاولة لصنع شيء جديد ومختلف بعد خيبة الأمل التي احدثتها ردود الفعل في اوساط نقاد السينما تجاه فيلمه (فهرنهايت)، او لعل تروفو اخيراً يريد في قرارة نفسه الارتداد الى كيان يكون من خلاله سوبر هتشكوك .

إن المشكلة بالنسبة لتروفو هي عـــدم اهتمامه بالواقع أو بالتفاصيل التي التي تجعل من فيلمه واقعاً يجسد حيوات ابطاله، فهو لا يحفل مثلا بتفسير كيف حدث ان مورو تعرف عن مصرع حبيبها أكثر مما يعرف المحققون ، ولا بتفسير كيف تجد مورو نفسها في زنزانة السجن منفردة وجنباً الى جنب مع الرجل الذي ترى فيه ضحيتها القادمة ، كلا ان كل ما يحفل به تروفو هو خلق ضبابية مقصودة تجعل من الممكن تنويم المشاهد للحظة يرى فيها نفسه خلال حلم سينمائي وفي حين ان هيتشكوك يصور الحلم نفسه وبالتالي يخرج الجمهور (بمعنى يديره) نرى تروفو يخرج الفيلم بينما يبقى الحلم على شاشة العرض ثابتاً لا يتجاوزها الى مقاعد الناس في الصالة، وبذا يصح القول أن عروس تروفو فيلم انيق ناعم تظهر فيه غنمة تروفو ترتدي ملابس هيتشكوك الذئب .

أما فيلم بوغدانوفيتش (اهداف) فانه يبدو أقل صنعة من فيلم تروفو ، ولكن لعبة تجسيد الحلم أو الكابوس تبدو فيه على درجة اعلى من المهارة حين يفلح مخرجه في دفع الكابوس بكل مافيه من إرهاق وسوداوية نحو الصالة وعلى اساس ان خلق حالة الترقب الحذر ليس بالتصدي لتصرفات هاو يمارس لعبة الجريمة

بعد خزلانه في لعبة الحب بقدر ما هو باليقين والقناعة بأن انساناً ما على وشك ملاقاة مصيره الأخير ، وبأن على المتفرج ان يعايش هذا الانسان في لحظاته الأخيرة تلك . بطل (اهداف) شاب امريكي صميم بكونه نتاج الهستيريا التي تجتاح المجتمع الامريكي داعية الى تمجيد العنف والقسوة، يقوم هذا الشاب على قتل كل من زوجته وامه وصبي البقال المجاور ثم يحزم حقيبة اسلحته ويصعد الى نقطة مشرفة على الطريق ليطلق منها النار على كل شيء يتحرك أمامه ، إنه يحيا حلم المسدسات المتضرج بدماء الأبرياء إذ لايوجدهناك مايفسر كراهية الشاب لعائلته مطلقاً فكل ما في الأمر أنه طالما يمتلك هذه المجموعة من المسدسات فلابد من وجود اهداف لتصويبها نحوها ، جنون مطلق جاء نتيجة حتمية للتزاوج غير المشروع بين برامج التلفزيون الأمريكي بمافيها من رعب وإثارة وجنون ، وبين القوالب الجاهزة التي يحياها الناس هناك مبتعدين عن كل ماهو عاطفي وإنساني في حياة البشر . ولاينسى بوغدا نوفيتش التأكيد وكما فعل هيتشكوك في (نفوس معقدة) على كون المجرم وبعد كل شيء انسان ، فهو يجفل وينتابه الفزع عند مرأى الدم فيسارع الى تغطية جثث ضحاياه بمناشف الحمام كذلك هروعه نحو الطفلة التي تعدو يائسة على الطريق الذي كان للحظة يزرع بالموت .

ويعمد بوغدا نوفيتش ومن خلال مقدرة هتشكوكية فائقة بث الاحساس باقتراب وقوع الجريمة منذ مطلع الفيلم إذ يفتح صندوق السيارة على مشهد مجموعة المسدسات، يليه مباشرة مشهد العائلة تغادر غرفة الجلوس بعد مشاهدة التلفزيون الى غرف النوم ومن ثم الى مائدة الافطار صباحاً بدون أن يساور احد الشك بوجود القنبلة الموقوتة الانسانية (البطل) وهي تقترب من اللحظة التي سوف تنفجر فيها لتأتي على حياة الجميع . لقد سبق لهيتشكوك ان شرح الطريق وهاهو

بوغدا نوفيتش يمارسها بدقة بعد ان تعلم الدرس ، الطريق نحو الجريمة كصمام ايجابي لبوتقة التوتر ، استخدام الحد المزدوج للشد والارخاء بالاعتماد على اللقطات البطيئة والطويلة النفس جنباً الى جنب مع اللقطات الخاطفة السريعة والتحويل المفاجيء من اللقطات الحركية الى اللقطات الثابتة . ومن حيث المضمون يستمد فيلم بوغدا نوفيتش أهميته من تصديه لابراز الكابوس الامريكي - الاغتيال المسلح في عرض الشارع وفي وضح النهار - من خلال ، ردود فعل البشر حول الموضوع وعلى نحو فذ ومعبر الى أقصى درجات التعبير فها هو عامل السينما يعود الى بيته سالماً من المذبحة الرهيبة التي تعرض لها كل من كان في الجوار ليفتح الثلاجة يفتش فيها عن زجاجة يجرع محتوياتها بهدوء دون ان يكلف نفسه مشقة الأتصال بسلطات الأمن لاعلامها عن وقوع الجريمة الجماعية التي شاء حسن حظه افلاته من براثنها . لقد غدت الجريمة في دماء الناس واصبحت شيئاً عادياً يحيونه كل يوم وكل لحظة ، وهذا منتهى البشاعة وأقصى درجات التعبير عن تحجر القلب الامريكي وجفاف صحراء نفوس البشر تجاه كل ما هو انساني وعاطفي في مجتمع يسوده العنف وتحكمه الجريمة .

حوار مع حنا مينه

اجرت المقابلة

هالة الأتاسي

س : ما سبب أزمة كتّاب السيناريو في رأيك ؟

ج : من المفروض في الشخص الذي يطرح عليه سؤال ، ان يكون قادراً على الجواب عن معرفة . أحياناً يجيب السائل عن جهل يخرجه مخرج المعرفة أحسب اني من النوع الثاني ، أنا في الحقيقة أجهل من كونفوشيوس في البستنة ، حين سأله أحـــد تلاميذه عن نوع من النبات فقال له : ابسط فلاح اعلم مني بهذه القضية .

س : ولكنك قمت بكتابة سيناريو احد الافلام ؟

ج : أنا لا انكر هذا ، « خبصت » مرة في صنع او المشاركة في صنع سيناريو ، وأنوي التخبيص مرة أخرى ما دام هـذا الاسلوب التجريبي هو كل بضاعتنا في الحصول على الخبرة . ولكن ان يخبص المرء في تجربة ما شيء وأن

يتحدث عن هذه التجربة بالاسلوب الاكاديمي الذي يليق بالسادة المخرجين شيء آخر . مع ذلك لنعترف أن أزمة السيناريو هي جزء من ازمة الفن عندنا، وهذه جزء من الأزمة الكبيرة : التخلف . فأن يكون المرء كاتباً فليس مفروضاً فيه أن يكون رساماً ، الرسم يختلف عن الكتابة والسيناريو يختلف عن الشعر وعن القصة ، هذا فن قائم بذاته يمكن الالمام به عن طريق الدراسة أو الممارسة في إطار البيئة السينمائية . ونحن ما زلنا في الطريق الى هذه البيئة السينمائية . فكما ان كتاب المسرح لايوجدون قبل وجود المسرح فكذلك كتاب السيناريو السينمائي لا يوجدون قبل وجود الصناعة السينمائية ذاتها . وهذه المسألة ذات شقين :الأول أن نوفد عناصر تدرس فن السيناريو وأن نشجع الكتاب - بالتشجيع والاغراء الممكنين - أن يطلعوا وأن يمارسوا تجارب كتابة السيناريو .

س : ربما كان ذلك صحيحاً ، ولكن اعتقد ان على كاتب السيناريو ان يكون كاتباً او يحمل بذور كاتب بطريقة ما؟

ج : اعترف بذلك ، فالجراح لا يمكن إلا ان يكون طبيبا عاما أولاً ، و كذلك كاتب السيناريو لا يمكن إلا ان يكون كاتباً او له المام بالكتابة. ولكن ما اقصده أن كتابة السيناريو هي اختصاص . الذين ابدعوا في السينما مثل : ليلوش ، غودار ، برغمان ، انطونيوني ، كتبوا سيناريو ولم يكونوا كتاباً .

س : قد لا نختلف حول هذه النقطة ، ولكن المؤسسة العامة للسينما في سورية قامت بمساعدة الكتاب على التعرف على أصول كتابة السيناريو فاستقدمت خبيراً وأقامت دورة للتدريب ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟

ج : كانت النتيجة لاشيء أو في حكم لاشيء . لماذا ؟ لأن الكتاب ذهبوا الى محاضرات الخبير كأساتذة ولم يذهبوا كتلاميذ بليتنا أننا جميعاً اساتذة القناعة والاكتفاء والغرور والكسل خبز يومي نقتاته بأشكال مختلفة . المؤسسة مخطئة كان يجب ان تضغط محاضرات الخبير في برشامة وتوزعها علينا فنشربها مع فنجان من القهوة ونستريح . أما ان نذهب ونحضر الدروس ونسجل الملاحظات ونناقش ونتعلم فهذا ادنى من قدرنا نحن العلماء في كل شيء حتى قبل ان نتعلم أي شيء ...

وهنا يمكن ان تلاحظي وارجوك ان تلاحظي اني كواحد من هؤلاء الكتاب اتواضع وارجوك ثانية ان تلاحظي ان التواضع ربما ينطوي على قدر من الغرور .

س : نعود الى الحديث عن السيناريو الذي تقول انك خضت فيه ، فكما هو معروف انك شاركت في سيناريو (القناة) وهو جزء من ثلاثية رجال تحت الشمس ، الذي نال جائزة في مهرجان قرطاجة ؟

ج : أنا لاشأن لي بالجوائز والمهرجانات السينمائية ، ومع سروري أن تتوصل صناعة السينما الناشئة عندنا الى نيل الجوائز حتى ولو كانت رمزية ، فان السيناريو الذي كتبته على الورق لم أره على الشاشة . مسخه تحديد الوقت بـ(٣٥) دقيقة،والسيناريو يصلح لأن يكون فيلماً طويلاً كاملاً ، ومسخه نقص الاستعداد عندنا للعمل التعاوني فالمخرج أراد أن يثبت انه مخرج وكاتب سيناريو ، والكاتب الذي هو أنا أراد ان يثبت انه كاتب سيناريو ومخرج أيضاً . وعلى كل حال كانت هذه التجربة جديرة بنجاح اكبر لو احسن الفنيون استغلالها .

س : أظن أن طبيعة العمل تجعل الصلة وثيقة بين المخرج وكاتب السيناريو بل قد توحدهما ؟

ج : هذا صحيح وقد اثبت ذلك الانتاج السينمائي العالمي ، ولكن الانتاج السينمائي العالمي اثبت أيضاً انه في وسع كاتب السيناريو ألا يكون مخرجاً. عندنا مفهوم خاطيء وهو ان المخرج ليس منفذاً للسيناريو فقط لأن هذا يحط من قدره أو يقلل من ابداعه ، وهذا مالا يتفق مع معطيات السينما في العالم ، كبار المخرجين كانوا في بعض الأفلام الرائعة منفذين للسيناريو . والقضية تظل في طريقة التنفيذ وما تنطوي عليه من غنى أو فقر ، من موهبة أو عدم موهبة .

س : ما رأيك في نقل النص الأدبي الى الشاشة ؟

ج : سأتواضع مرة اخرى فأقول : لست من المعنيين بشؤون السينما ولا من المطلعين على المناقشات الدائرة حول علاقتها بالفنون الاخرى . وفي حدود ما أعرفه - وهو بسيط - ان العمل الأدبي يختلف في نصه المكتوب عنه في نصه المرئي، ولكن مع المحافظة على الجوهر . المدارس السينمائية تختلف في هذا المجال، بعضها يتقيد بالنص والتفصيلات الى درجة يسيء معها الى النص الأدبي عند اخراجه سينمائياً مثل فيلم (الحرب والسلم) المأخوذ عن قصة تولستوي وغيره . وبعض هذه المدارس يأخذ من النص الأدبي فكرته المركزية ، ويطرح التفاصيل ، ويختصر بعض الاشياء بما يخدم الغرض السينمائي . وفي رأيي ان المدرسة الثانية هي الأفضل، كمثل على ذلك (زوربا) عن قصة كازنتزاكي واخراج كاكويانيس و (الاحتقار) قصة مورافيا واخراج غودار .

برغم ان العالم الأدبي في النص ليس هو ذاته العالم الأدبي في السينما ،

ولكن السينما استطاعت في الفيلمين ان تعطي العالم الذي رسمه كازنتزاكي والبرتومورافيا حقيقة وشمولاً .

س : هل ستدافع عن عالمك الأدبي في النص امام عالمك الأدبي على الشاشة ؟

ج : في رأيي ان الكتاب سيظل كتاباً والسينما ستظل سينما ولن يستطيع احدهما ان يلغي الآخر .

سويسرا بلد المصارف

هشام الدجاني

الاقتصاد والسياسة الداخلية

في الوقت الذي كانت الدول الأوروبية الكبرى فيه تبني امبراطورياتها الاستعمارية ، كان الصناعيون في سويسرا يرسون بهدوء وثبات أسس امبراطوريتهم الصناعية والمالية في العالم الرأسمالي . وهذه « الامبراطورية السويسرية » تقوم اليوم على قاعدتين :

١ - رؤوس الأموال الخارجية المستثمرة في الداخل .

٢ - المنتجات الصناعية ذات المستوى الرفيع .

وقد وجدت الشركات السويسرية الكبرى أنها لاتستطيع المحافظة على مواقعها في العالم بدون تخصص في انتاج بضائع رفيعة المستوى . ومثل هذا التخصص في الصناعة السويسرية ، وكذلك في الزراعة ، أمر تتطلبه خصائص

النمو الاقتصادي للبلاد . وقد تميزت المنتجات السويسرية بتعرضها بدرجات قليلة فقط لتقلبات السوق العالمية ، لذا اتصفت اقتصاديات سويسرا بالاستقرار ، وإن كانت معدلات نمو الانتاج القومي الاجمالي والانتاج الصناعي متواضعة نسبياً (في عام ١٩٦٧ كان معدل نمو الانتاج الصناعي ٣٪ وفي عام ١٩٦٨ : ٥٪ ، وفي عام ١٩٦٩ : ١١٪) .

قل أن نجد في العالم الرأسمالي اليوم دولة صغيرة كسويسرا تستقطب مثل هذا العدد الكبير من الاحتكارات الدولية الضخمة . فمن بين أكبر ٢٠٠ شركة صناعية خارج الولايات المتحدة ثمة عشر شركات سويسرية .

ركزت سويسرا جهودها ، في بحثها عن أكثر القطاعات الاقتصادية فعالية ، على باقة ضيقة نسبياً من الفروع الاقتصادية : صناعة الساعات والآلات الدقيقة ،والموادالصيدلانية ، وانتاج المواد الغذائية للأطفال . وقد ظهرت في هذه القطاعات احتكارات ضخمة توجه الجزء الأعظم من انتاجها للتصدير . وأنشأت هذه الاحتكارات بعد ذلك عدداً وفيراً من الشركات والمؤسسات الفرعية التابعة لها موزعة في انحاء العالم الرأسمالي كله . وفي عام ١٩٦٨ بلغ مجموع الاستثمارات السويسرية المباشرة في الخارج رقماً ضخماً هو ٢٠ مليار فرنك سويسري (حوالي ٤,٦ مليار دولار) .

واليوم تستمر عملية تركيز رؤوس الأموال وابتلاع الشركات الكبرى للصغرى ، واندماج الشركات بعضها ببعض . فنتيجة لاندماج رؤوس أموال شركتين كيماويتين كبيرتين عام ١٩٦٩ هما شركتا «سيبا» و «غيغي» ظهر عملاق جديد للصناعة الصيدلانية على المستوى الأوروبي . وأصبحت هذه الشركة الواحدة ذات الفروع والمؤسسات المتعددة تضم ٥٥ ألف موظف ،

ورأس مالها المتداول يزيد عن ١٫٢ مليار دولار . واليوم لاتستطيع سوى شركة واحدة في أوروبا الغربية أن تقف على قدم المساواة مع الشركة المتحدة الجديدة « سيبا - غيغي » . ، هي أيضاً شركة سويسرية ، وهي « هوفمان لاروش » (رأس مالها المتداول ٧٢٠ مليون دولار ، ويعمل بها ٢٤ ألف موظف) . ولعلنا لانجد صيدلية اليوم تخلو من أدوية تحمل اسم الشركات السويسرية المذكورة التي تبلغ نسبة صادراتها من المواد الصيدلانية الى باقي الشركات العالمية ١٢٫٨٪ .

وثمة شركات عملاقة أخرى في سويسرا ، كشركة « نستله » التي يقارب رأس مالها ملياري دولار ، وشركة صناعة الالكترونيات « برون - بوفيري » (رأسمالها ٩١٩ مليون وعمالها ٨٨ ألفاً) ، وشركة « زولتسر » لصناعة الآلات، وشركة الألومنيوم « اليوسفيس » ، وعشرات غيرها .

والحدث الهام اليوم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سويسرا هو قرار الحكومة بتحديد نشاط المصارف الأجنبية في أراضي البلاد . إن المساهمة الفعالة في عمليات التمويل الدولية ، والقيام بالعمليات النقدية المتنوعة السرية والعلنية ، وخدمات السمسرة في تحويل رؤوس الأموال من بلد الى آخر .. هي أساس ثروة البلاد ، والتي تعطي سويسرا طابعها المتميز . ولقد تعرض « أقزام زيوريخ » الذين يحافظون على « الأسرار المصرفية » ، أكثر من مرة لهجوم الصحافة الغربية ونواب كثير من البلدان الرأسمالية (في عام ١٩٦٩ مثلاً بدأت في الولايات المتحدة حملة عاصفة على المصارف السويسرية التي يخفي رجال الأعمال في خزائنها أموالهم عن الضرائب) . بيد ان هذه المحاولات لم تعط نتائج مؤثرة على تغيير النظام المصرفي في سويسرا .

وتثير أرباح المصرفيين السويسريين شهية عمالقة المال في الدول الأخرى. لذا فهم يتسللون الى سويسرا عن طريق تأسيس فروع لمصارفهم في أراضيها . وقد بلغ عدد المصارف الأجنبية العاملة في سويسرا في العام الماضي ٦٥ مصرفاً بودائع قدرها ١٤ مليار فرنك سويسري . وحاول بعض هذه المصارف القيام بمختلف العمليات المالية والنقدية ، ولكن مثل هذه المحاولات لقيت معارضة شديدة من جانب المصارف السويسرية . وكانت الغاية من قرار الحكومة السويسرية بتحديد نشاط المصارف الاجنبية هي مساندة امتيازات الشركات المصرفية الوطنية .

كذلك اتخذت مؤخراً عدة اجراءات حكومية لتقييد تدفق الاجانب . فقد قدر عدد الاجانب في بداية عام ١٩٦٩ بما يزيد عن ٩٣٠ الف شخص في بلد لايزيد سكانه كثيراً عن ستة ملايين . واليوم تشكل اليد العاملة الاجنبية نسبة ثلث العمال الوطنيين تقريباً ، ويرتفع هــذا المؤشر في بعض فروع الصناعة ارتفاعاً كبيراً .

ومعظم المهاجرين أو الوافدين الى سويسرا يأتون من دول حوض المتوسط (كايطاليا واسبانيا واليونان) ، وهؤلاء يعطون اجوراً أقل ، الامر الذي يوفر على البورجوازية السويسرية مبالغ كبيرة .

العلاقات الاقتصادية الخارجية والسياسة

تتفق علاقات سويسرا الاقتصادية الخارجية واقتصادها المتخصص . والمستهلكون الرئيسيون للمنتجات السويسرية هم المستهلكون في دول أوروبا الغربية المتقدمة والولايات المتحدة ؛ لذا فإن ٨٠ ـ ٨٥ ٪ من مجموع تجارة البلاد

الخارجية يتجه الى أسواق الدول المذكورة . وقد بلغت صادرات سويسرا عام ١٩٦٨ : ٤ مليار دولار ، ووارداتها ٥٫٤ مليار دولار . وتغطي هذا العجز بالطبع أرباح الاستثمارات الأجنبية ، والعمليات التأمينية والمصرفية ، والسياحة حيث يزور البلاد كل عام قرابة ٥ ملايين سائح . ولهذا فإن الاحتياطيات النقدية لسويسرا لاتنقص بل تزداد كل عام (في عام ١٩٦٦ مثلاً كانت ٣٫٣ مليار دولار ، وفي عام ١٩٦٩ : ٤ مليار دولار) .

و « للسوق المشتركة » تأثير هام على القرارات والاجراءات السياسية التي تتخذها الحكومة السويسرية . ففي عام ١٩٦١ جرت محاولة لإقامة علاقات وثيقة مع هذه الكتلة ، وقدم الطلب بالطرق الدبلوماسية ، ولكنه ظل بلا رد . ومنذ ذلك التاريخ لم تعد سويسرا تظهر نشاطاً في هذا المجال . وظل من رأي الدوائر السياسية والمالية الا تشارك سويسرا لاعتبارات اقتصادية ، وسياسية بالدرجة الأولى ، في هذه الكتلة . فقد اعتبرت هذه الاوساط عضوية سويسرا في السوق الاوروبية المشتركة انتقاصاً من سياسة البلاد الحيادية التقليدية .

على ان هذا الحياد السويسري يبقى موضع شك . ففي عام ١٩٦٩ مثلاً فاحت فضيحة شركة « بيرليه » للصناعات العسكرية . فقد كشفت التحقيقات التي أجرتها لجنة حكومية خاصة عن ان هذه الشركة تبيع السلاح بمقادير كبيرة لدول متنازعة او تقوم بعمليات عسكرية ضد غيرها من الدول ، أو تهدد غيرها ، وهو ما يتعارض مع القانون السويسري . ولكن الضجة التي قامت في الصحف السويسرية سرعان ما خفتت . وانتهت الضجة بتقديم اثنين من المسؤولين في الشركة الى المحاكمة .

وسويسرا ، خلافاً لدول أوروبا الغربية المحايدة الأخرى (كالسويد والنمسا) ليست عضواً في الأمم المتحدة ، وان كانت تشارك في عمل بعض المؤسسات والادارات المتخصصة التابعة لهذه المنظمة الدولية . ويوجد على الأراضي السويسرية عدد من المؤسسات والادارات الدولية التابعة للأمم المتحدة .

وهي عضو في المجلس الاقتصادي الأوروبي وفي منظمة التجارة الحرة لاعتبارات اقتصادية .

العالم العربي لمحو الأمية

ظافر عبد الواحد

اوصى المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي ، الذي عقد في دمشق ٢٨ – ٣١ آب (أغسطس) ١٩٧١ ، بما يلي ،

اولا – تنظيم مؤسسات التعليم العالي :

١ – أحداث مجلس اعلى للتربية والتعليم والتدريب والبحث العلمي والتعاون العلمي العربي والدولي مهمته رسم السياسة العلمية للقطر وتخطيطها وتنسيق الفعاليات العلمية فيه ، يرتبط برئاسة مجلس الوزراء وتتكامل مهماته مع مهام هيئة تخطيط الدولة .

٢ – احداث مجلس للتعليم العالي واستبداله بالمجلس الأعلى للجامعات مهمته اقتراح سياسة التعليم العالي ووضع الخطط اللازمة لتنفيذها وربطها بخطط التنمية والتنسيق بين الجامعات والمعاهد ووزارة التعليم العالي .

٣ – العمل على انشاء مؤسسات التعليم العالي والمتوسط على اساس توزيعها

في مختلف ارجاء القطر توزيعــاً يحقق تناسق التقدم الاجتماعي وتكامل التطور الاقتصادي .

٤ ـ العمل مع تكامل الجامعة على احداث ثلاثة مجالس جامعة منها واحد للشؤون العلمية وثان للشؤون الادارية وثالث لشؤون الطلبة وذلك عوضاً عن مجلس الجامعة الحالي .

٥ ـ النظر في انشاء جامعة تقنية .

٦ ـ العمل تدريجياً على احداث مراكز في المحافظات لسنوات الدراسة الأولى في العلوم الأساسية والتطبيقية .

٧ ـ احداث الهيئة العامة للقسم التي تتولى مهام اقتراح السياسة العلمية على السلطات المختصة ويتولى مجلس القسم تنفيذ ما يتم اقراره .

٨ ـ توحيد الاقسام او الشعب المماثلة في كليات الجامعة الواحدة .

٩ ـ العمل على اقرار ما يوفر الفرص لاعضاء هيئة التدريس للاسهام في اختيار ممثليهم في المجالس الجامعية المختلفة ممن تتحقق فيهم شروط اهلية اساسية .

١٠ ـ التوسع في اقامة المعاهد المتوسطة والتقنية التي يكون مستواها فوق التعليم الثانوي وتنويع الاختصاصات فيها وفق حاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

١١ ـ انشاء مؤسسة المشافي التعليمية التي تضمن الافادة من جميع امكانات مشافي المدينة التي فيها الجامعة .

١٢ ـ العمل على تطوير النظم الادارية والمالية في هيئات التعليم العالي على الوجه الذي يتضمن وضع انظمة خاصة بها ومستقلة عن الانظمة المطبقة في الدولة بحيث تحقق هذه الأنظمة الأخذ بمبدأ اللامركزية الواسعة وتعمل على رفع الكفاية

الانتاجية للعاملين وتتضمن اعادة النظر في اصول وضع تقديرات الموازنة وتنفيذها واساليب المحاسبة وتأمين المشتريات وادارة المستودعات وتحقيق كثير من المرونة والسرعة في انجاز الاعمال المطلوبة .

ثانياً ـ اعضاء الهيئات التدريسية والفنية والمعيدون :

١ ـ تحسين اوضاع اعضاء هيئة التدريس وتقرير الحوافز المادية والمعنوية لهم ودراسة موضوع تفرغهم للعمل الجامعي ، وتخفيض نصابهم التدريسي ، وزيادة عددهم بحيث تكون نسبتهم الى الطلاب مقبولة ، وتحقيق فرص ايفادهم الى البلاد الأخرى للاطلاع والبحث . وتشجيع مبادراتهم في تطوير اختصاصاتهم وطرق العمل الجامعي ونظم التعليم والتنظيمات الجامعية ومقدار اشتراكهم في بحث مشاكل مجتمعاتهم التعليمية .

٢ ـ اعادة النظر في كيفية تعيين المدرسين والمعيدين ومراعاة الكفاية العلمية في انتقاء المعيدين واعادة النظر في نظام اعضاء الهيئة الفنية وتقرير الحوافز المادية والمعنوية لهم .

٣ ـ التأكيد على الكفاية العلمية وحاجات خطـــة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في انتقاء الموفدين .

ثالثاً ـ البحث العلمي :

١ ـ العمل على رصد المبالغ اللازمة للبحث العلمي وتطويره بحيث يصل مايوفر له ١٪ من الدخل القومي سنويا .

٢ ـ العناية بالموفدين العائدين الى الوطن وتوفير الفرص المناسبة لحسن استقرارهم وسرعة تعيينهم ورعايتهم فيما حملوه معهم مما يتصل بشروط حياتهم ايام دراستهم .

٣ ـ توفير الاستقرار المادي والمعنوي للباحثين العلميين وحرية البحث وتهيئة العمل المناسب لكل منهم حسب اختصاصه ، والعمل على توفير الشروط المناسبة التي تحول دون هجرة الكفايات العلمية من القطر .

٤ ـ توفير الشروط المناسبة التي تشجع العلماء الذين سافروا خارج الوطن للعودة اليه والمشاركة في تطوير البحوث فيه ، وتشجيعهم باستثناءات يعوض عنها ماسيقدمونه لبلادهم من خدمات .

رابعاً ـ الدراسات العليا :

١ ـ ضرورة السرعة في بدء الدراسات العليا في مختلف كليات الجامعات .

٢ ـ منح طلاب الدراسات العليا تعويضاً شهرياً مناسبا لقاء قيامهم بالتدريس او الأعمال الاخرى التي يكلفهم بها مجلس الكلية والمنتسبين اليها .

خامساً ـ سياسة القبول وربطها بخطة التنمية :

١ ـ ان سياسة القبول في الجامعات والمعاهد يجب ان توضع في صورة خطة علمية ترتبط بصورة مناسبة بحاجات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في القطر العربي السوري على الوجه الذي تعتبر فيه هذه الخطة محققة لأهداف الخطة الاقتصادية بشكل خاص وفي الوطن العربي بشكل عام .

٢ ـ يتم توزيع الطلاب في كليات الجامعات والمعاهد واقسامها وفقاً لطاقات استيعابها على ان تمنح المناطق الادارية وحاجاتها نسبة تزيد عن النصف في قبول الطلاب لكلية الطب ويؤخذ من المقبولين ضمن هذا الشرط تعهد بالعمل في مناطقهم بعد التخرج مدة تساوي مدة دراستهم في الجامعة على الاقل .

سادساً ـ تنويع التخصصات والدرجات العلمية :

١ ـ التأكيد على اهمية تطوير الاختصاصات وتنويعها على ان يراعى في

الخطط التي توضع لتطوير التخصصات أن الهدف في مرحلة الاجازة هو «التأهيل العام» لا «التخصص الضيق»، وأن يترك لكل كلية أو معهد تحقيق اهدافه بصورة مرنة سواء بتبني أسلوب «التخصص النسبي» أم أسلوب «المواد الاختيارية» وأن مجال التخصص الدقيق هو «الدراسات العليا» التي تعقب مرحلة الاجازة سواء اتخذت شكل دبلومات دراسة عليا أو ماجستير أو دكتوراه .

٢ - ايجاد تسميات موحدة لخريجي المعاهد المتوسطة والفنية حسب نوع الاختصاص وحسب سني الدراسة .

سابعاً - المناهج والخطط الدرسية :

١ - اعادة النظر في المناهج والمقررات والخطط الدرسية في جميع الكليات بما يتفق مع التطور العلمي والتقني في البلاد المتقدمة ويلبي حاجات مجتمعنا ومتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتنمية شخصية الطالب العلمية .

٢ - التأكيد على ضرورة التدريس باللغة العربية في جميع الكليات والمعاهد، والعناية بتعليم اللغات الاجنبية وضرورة توحيد المصطلحات العلمية .

ثامناً - الامتحانات الجامعية :

١ - يجب أن تكون اهداف الامتحانات شاملة قياس تقدم الطالب في تحصيله وافادته مما حصل، وعلى أن تكون موضوعية تنطوي على تعدد الأسئلة وشمولها ولا مانع من أن تعالج موضوعا مستقلا حين تتطلب طبيعة المادة ذلك وبحيث يخصص لها علامة تقل عن نصف العلامة العليا لامتحان المقرر .

٢ - يجب أن يحتل جهد الطالب أثناء العام (في الاختبارات والاعمال والدراسات المخبرية) مكانته المناسبة في تقدير نجاحه أو رسوبه .

٣ - الاستغناء عن الدورات الامتحانية الاستثنائية والاكمالية ، والاكتفاء بتوفير فرصتي امتحان عامة للطالب كل سنة .

٤ - يلغى قيد الطالب في الكلية اذا تكرر رسوبه في الصف الواحد أكثر من مرة او زادت مدة قيده عن ضعف المدة اللازمة للحصول على الشهادة . ويمكن مساعدة طلاب السنوات الأخيرة بمنحهم سنة اضافية .

٥ - يجب أن تصاغ النصوص التشريعية الناظمة لشؤون الامتحانات بحيث تكون مرنة تعطي لمجلس الكلية حرية التصرف بما يتناسب والروح الجديدة للامتحانات .

تاسعاً - المستوى العلمي والثقافي للطلاب :

١ - العمل على رفع نسبة عدد الاساتذة الى الطلاب وجعلها في حدود معقولة تمكن الاستاذ من رعاية الطالب وتتبع تقدمه العلمي وتوجيه تطوره الفكري ، وتخفيض النصاب التدريسي لأعضاء هيئة التدريس وتهيئة الظروف والامكانات الملائمة لتفرغه وبقائه في الكلية خارج ساعات التدريس وذلك بقصد تدعيم الصلة .

٢ - العمل على جعل الطالب متفرغاً لدراسته وذلك بفرض نظام الدوام الالزامي بنسبة مقبولة والتوسع في منح الاعانات الجامعية .

٣ - التقليل من اعداد الطلاب في المحاضرات والدروس العملية وذلك عن طريق التوسع في الأخذ بنظام الشعب والفئات وحلقات البحث .

٤ - التأكيد على ضرورة التخلي تدريجياً عن أسلوب الاعتماد على كتاب بعينه كمرجع أول ونهائي للطالب وتشجيع الطالب على الرجوع الى المراجع

المختلفة المتوافرة والاهتمام برفع مستوى الطلاب في اللغات الأجنبية وذلك نظراً لما توفره لهم هذه اللغات من الاطلاع .

٥ ـ الاهتمام بالمكتبات العامة والمتخصصة وإغناؤها .

٦ ـ اعادة النظر في نظام الكتب الجامعية والأمالي بما يحقق التشجيع على التأليف والترجمة والرفع من المستوى العلمي للكتاب والأملية ويؤدي إلى توافرهما بين أيدي الطلاب .

٧ ـ تهيئة جميع الفرص اللازمة لتدريب الطلاب واعدادهم واطلاعهم على الجوانب التطبيقية في الهيئات والمؤسسات التي يتعلق نشاطها باختصاصهم .

٨ ـ اقامة الصلات المتبادلة بين مؤسسات التعليم العالي والقطاعات ذات العلاقـــة بها .

عاشراً ـ المباني والتجهيزات :

١ ـ العمل على تهيئة المباني والتجهيزات اللازمة لمؤسسات التعليم العالي لجعلها أكثر قدرة على القيام بأعمالها وتحقيق أهدافها .

٢ ـ التوسع باقامة المشافي وتجهيزها بما يناسب عدد الطلاب الى الأسرة الموجودة فيهـــا .

احد عشر ـ العلاقات الثقافية :

١ ـ توثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الدول والجامعات والهيئات العلمية العربية والأجنبية والدولية والافادة من ذلك في جميع الميادين والاهتمام باقامة المؤتمرات العلمية في القطر والاشتراك على نطاق واســـع في المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية العربية والاقليمية والدولية .

ثاني عشر - الوضع الاجتماعي والاقتصادي للطلاب :

١ - توفير الخدمات الجامعية الاساسية للطلاب وانشاء صندوق للتكافل الاجتماعي الخاص بهم .

٢ - السعي لدى المسؤولين لحث الأقطار العربية الشقيقة والدول الصديقة على المشاركة في اقامة وحدات سكنية للطلاب الوافدين منها للدراسة في القطر .

٣ - تشجيع النشاط الثقافي والفني والاجتماعي والرياضي في مؤسسات التعليم العالي والجامعي وتوفير المناخ لحياة جامعية .

ثالث عشر - توصيات ختامية :

١ - ابقاء المؤتمر مفتوحاً حتى غاية ١٩٧٥ - أي نهاية الخطة الخمسية الثالثة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في القطر - وذلك كي يتسنى لعملية التطوير أن تتكامل وتأخذ أبعادها .

٢ - دعوة المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي الى الانعقاد في شهر ايلول من كل عام لكي يتدارس ما تحقق من نتائج خلال العام الجامعي المنصرم ويقوم التجربة ويقدم المقترحات والتوصيات التي يتطلبها استمرار التطوير .

٣ - احداث مكتب خاص بالمؤتمر في وزارة التعليم العالي يتولى جمع الوثائق والبحوث المفيدة ونشر وتوزيع الوثائق والدراسات والتوعية حول اصلاح التعليم العالي والجامعي بمختلف وسائل الإعلام الممكنة .

* * *

يعتبر هذا المؤتمر الذي أقيم على مستوى الجمهورية العربية السورية - من المؤتمرات النادرة في البلاد العربية ، لا من حيث قيمته التربوية وحسب ، بل من حيث أهدافه العلمية أيضاً .

وكانت الجمهورية المصرية أول دولة عربية أسست مجلساً أعلى للعلوم ، أصبح له مثيل في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ، التي أحدثت فيها بعد وزارة للبحث العلمي كان من ثمارها صواريخ (الظافر) و (القاهر) و (عامر) التي قيل أنه توصل إليها بخبرة بعض العلماء النازيين الذين كانوا يعملون في وزارة الحربية .

أما المجلس الأعلى للعلوم - بلجانه التي تضم علماء البلاد - فليس أكثر من هيئة تعد أسبوع العلم كل عام فيعرض فيه العلماء العرب والأجانب بحوثهم ويقام مهرجان لأحد العلماء العرب يوم كان العرب يبدعون .

في أسبوع العلم الحادي عشر في دمشق سنة ١٩٧٠ ألقى الدكتور أسطفان . ج. خريستوف عضو أكاديمية العلوم في صوفيا محاضرة باللغة الفرنسية عن (النظرية العامة لصدور الكهارب عن المعادن) . وألقى الدكتور ألفريد فتزثر الأستاذ في كلية العلوم في جامعة درسدن محاضرة باللغة الانكليزية عن (الانتثار النووي في مسألة الأجسام العديدة في ميكانيك الكم) . وألقى الدكتور هـ . زايدل خبير تربية الحيوان في وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي محاضرة عن (اختبار وظيفي للغدة فوق الدرقية في البقر الشامي وبقر الفريزيان) . وألقى الدكتور أنطونيو شيكاروني مدير معهد الباثولوجيا النباتية في جامعة باري محاضرة باللغة الانكليزية عن (فيروس أوراق الكرمة) . وألقى الدكتور م. م. قريشي مدير مجلس المختبرات للأبحاث العلمية في باكستان محاضرتين باللغة الانكليزية عن (امكانية تحول الحالة الثالثة في السوائل) و (الطاقة الحرة لخلط وسيلان الطاقة النشطة للسوائل) . وألقى الدكتور ورنر شمنكه الأستاذ في كلية الطب في جامعة درسدن محاضرة باللغة الانكليزية عن (الخدمات الصحية في جمهورية

ألمانيا الديمقراطية) . وألقى الدكتور كارولي فيلو عضو المجلس الصحي في أكاديمية العلوم المجرية محاضرة باللغة الفرنسية عن (نظام استعمال الأدوية الجديد في المجر) . وألقى الدكتور جان باوفيتي رئيس خبراء مركز الاختبارات والأبحاث الصناعية محاضرة باللغة الفرنسية عن (هدف المواصفات القياسية ونشاطها ومستقبلها) . وألقى الدكتور خريستو أبا دجيف الخبير في وزارة الأشغال العامة والثروة المائية محاضرة باللغة الانكليزية عن (الرشح في السدود الردمية ذات النواة الغضارية عند انخفاض مستوى المياه في حوض السد) . وألقى الدكتور جوهرد بولرتيش الاستاذ الزائر في كلية الهندسة في جامعة دمشق محاضرة باللغة الانكليزية عن (المنشآت الهيدروليكية المتجمعة للسدود الترابية - حساب وتصميم المفيض البئري) . وألقى الدكتور كارولي هورفات الاستاذ في كلية البوليتكنيك في جامعة بودابست محاضرة باللغة الفرنسية عن (استعمال محركات الديزل في جر القاطرات) . وألقى المهندس ناريتي فلوش المدير العام للتركيبات في المعامل المجرية محاضرة باللغة الانكليزية عن (محركات الديزل اليوم وغداً لأغراض الجر بالسكك الحديدية) .

وليت هذه المهرجانات لا تبقى مجرد احتفال بمجد غابر ، بل تحاول ربط علم الأجداد بالعلم المعاصر . فنشارك في صنع المدنية ، بدل استيرادها والفشل في استعمالها .

فكيف تسبقنا اسرائيل في مجال الأبحاث الذرية ؟

اذا كانت التقنية خيراً ، فنحن بحاجة الى المزيد من هذا الخير .

واذا كانت شراً ، فنحن بحاجة الى هذا الشر لندفع به شر العدو .

شكلت في الجمهورية العربية السورية لجنة اقترحت الخطة اللازمة لاستيعاب

الطلاب السوريين كافة الذين نجحوا في امتحانات الشهادة الثانوية بجميع فروعها في جامعات ومعاهد القطر للعام الدراسي ١٩٧١ - ١٩٧٢ . اقترحت اللجنة إنشاء معاهد متوسطة لمختلف الاختصاصات التقنية تنتشر في محافظات القطر .

وضعت الخطة تنفيذاً لقرار سياسي ، وهي ثورية لأنها تتجاوز الامكانات المتوفرة . ولو كانت ضمن هذه الامكانات ، لجاءت نتيجة حتمية للتطور ، ولكنها تحتاج الى اساليب ثورية لتنفيذها . وهي تحل مشكلة الطلاب الذين لا تستوعبهم الكليات الجامعية ، كما تسد حاجة البلاد الى التقنيين الذين يشكلون همزة الوصل بين العمال والمهندسين .

واذا استطاعت الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة تخريج مختلف المستويات النظرية والعملية ، فهل يكفل لنا هذا التقدم العلمي والتقني ؟

أذكر أنه كان هناك خبير إيطالي يبدأ ببعض التجارب الذرية في جامعة دمشق ، وعندما هم بالعودة الى بلاده سألته عمن يتابع مهمته فأشار الى مساعده عبد الرزاق قدورة ولم يكن قد تخصص بعد في العلوم الذرية .

يومض في مجتمعنا بعض العباقرة ، فنعجب كيف نبغوا في هذا المجتمع الأمي . ولأنهم لمعوا في مجتمع أمي ، لايستطيعون تقديم ما هو منتظر منهم .

كيف نوفد المجتمع بما يحتاجه من التقنيين ، ونحن نترك خارج المدارس الابتدائية ٣٥٪ من الأطفال الذين هم في سن التعلم الالزامي، ناهيك عن التلاميذ الذين يجتازون مرحلة الدراسة الابتدائية بالترفيع الآلي ولا نضمن مستواهم العلمي بعد إنهائهم مرحلة الدراسة الثانوية ؟

لايكفي إصدار قانون للتعليم الإلزامي ، قبل إعداد الملاك البشري والمادي . وأنى لنا به في مجتمع أمي متخلف ؟

وبدل إلزام أولياء الاطفال بتسجيلهم في المدارس ، علينا دراسة سبب عدم قيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم .

إن جهل الأب من الأسباب التي تجعله يحرص على تعليم أولاده كي يعوضوا مافاته ويحسنوا دخلهم .

ولكن السبب الرئيسي لإحجام الأب عن تسجيل أولاده في المدرسة ، هو مساعدتهم له في عمله ، أو تأمين جزء من نفقاتهم بالعمل لدى غيره .

ويمكن حل هذه المشكلة بانشاء أنواع من المدارس حسب البيئة الزراعية أو الصناعية ، وتكييف ساعات وأيام الدراسة ومكانها مع ظروف العمل ، كأن تمتد العطلة أثناء الموسم الزراعي وتتم الدراسة بين ساعات العمل .

هذه الأعداد المتدفقة سنوياً الى عالم الأمية ، هي التي تعيق مكافحة الأمية منذ الدستور السوري سنة ١٩٥٠ الذي نص على القضاء على الأمية خلال عشرة اعوام .

قرر المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية المنعقد في مراكش ١٢ - ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، اعتبار عام ١٩٧١ عام محو الأمية في الوطن العربي .

الدعوة لمكافحة الأمية

تدرس وزارة الثقافة والارشاد القومي مع وزارة الاعلام امكانيـــة مساهمة وسائل الاعلام في تعليم الكبار وتنشيط حملة مكافحة الأمية وايضاح خطورة مشكلة الأمية وابعادها الحقيقية في الجمهورية العربية السورية .

شكلت لجنة عليا لمكافحة الأمية ، ووضع مشروع خطة عامة لمكافحة الأمية ومشروع قانون لتعليم الكبار .

المؤتمرات والمشروعات الرائدة

عقدت دورة تدريبية المعلمين ٢٥ ايلول (سبتمبر) - ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ ، الذين سيعلمون الأميين في المشروع الرائد ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ - ٦ آب (أغسطس) ١٩٧٢ .

أقام الجهاز الإقليمي العربي لمحو الأمية والمركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم دورات وحلقات دراسية ومؤتمرات لمكافحة الأمية .

المواد التعليمية :

بالاضافة الى عشرات الوف الكتب التي طبعتها وزارة الثقافة والارشاد القومي خلال عام ١٩٧١ لتعليم الأميين ، أنتجت الوزارة فلماً خاصاً بمكافحة الأمية .

البحث والتقويم :

قام المؤتمر الاقليمي العربي الثاني لمحو الأمية سنة ١٩٧١ بتقويم برامج مكافحة الأمية .

التشريع والتخطيط

أبرز ما في مشروع قانون محو الامية في الجمهورية العربية السورية :

١ - اعتبار تعليم الكبار ومحو الامية مسؤولية قومية الهدف منه تعليم المواطنين ورفع مستواهم الثقافي والاجتماعي والمهني ، تلتزم بالقيام به جميع ادارات ومؤسسات الدولة والمنظمات الشعبية والمهنية والاتحادات والجمعيات والأندية وأصحاب الأعمال والمتعلمون .

٢ - إلزام وزارة التربية بدءاً من تاريخ نفاذ القانون بتأمين تعليم جميع الأطفال الذين هم في سن التحصيل الابتدائي كل سنة .

٣ – إنجاز مهمة محو الأمية في الجمهورية العربية السورية خلال ستة أعوام على الأكثر بدءاً من تاريخ نفاذ القانون .

٤ – تشكيل مجلس أعلى لمحو الأمية (تمثل فيه الوزارات المعنية ورؤساء المنظمات والاتحادات) مهمته وضع الخطة العامة والخطط المرحلية والفرعية لمحو الامية واقرارها ومتابعة تنفيذها بالاضافة الى انشاء الاجهزة الفنية والادارية المكلفة بالاشراف على تنفيذ الخطة .

* * *

كان فقيد مكافحة الأمية شفيق قلادة يشرح لنا في مركز (تنمية المجتمع)[1] في مرس الليان في جمهورية مصر العربية سنة ١٩٦٤[2] كيف أن واضعي الميزانية يوزعونها بين المشروعات الاقتصادية وغير الاقتصادية فاذا فاض منها قرش كان من نصيب مكافحة الأمية .

وقد رأينا من أسباب إحجام الآباء عن تعليم أولادهم ، انخفاض مستوى المعيشة ولا بد من كسر هذه الحلقة بالموازنة بين المشروعات التعليمية والاقتصادية . فكلما ازدهرت البلاد اقتصادياً ، استطاعت الدولة التوسع في التعليم كماً وكيفاً ، وارتفع مستوى المعيشة فاستغنى الآباء عن عمل أطفالهم وفرغوهم للتعلم . وكلما اتسع التعليم ،وارتفع درجات من التعليم الوظيفي الى اعلى درجات الاختصاص ، ضمنت الدولة الملاك الضروري للمشروعات الاقتصادية .

---

(١) المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، حالياً .

(٢) عمل الاستاذ شفيق قلادة فيما بعد خبيراً لمكافحة الأمية في الكونغو ، وكان رياضياً شجاعاً . ركب مع اسرته يوماً أحد أنهر الكونغو الصعبة ، فلما انقلب بهم المركب أنقذ افراد اسرته وغرق .

في المجلات العربية

عرض : عادل أبو شنب

.. تتضمن هذه الزاوية تلخيصاً وتكثيفاً لابرز موضوعات تناولتها المجلات العربية الفكرية في شهر

الكاتب : عدد ايلول « سبتمبر » ١٩٧١

● اتحاد الجمهوريات تتويج لكفاح طويل ●

كرست « الكاتب » افتتاحيتها للحديث عن « اتحاد الجمهوريات العربية ومعركة المصير » فأبرزت بشكل رئيسي ما أكده « اعلان دمشق » من « ان المواجهة مع العدو الصهيوني الجاثم فوق أرضنا العربية قد اقتربت من الحسم ، وان العدو استشعاراً منه بذلك قد زاد من ضراوته وشراسته وتصميمه على

تكريس احتلاله ، مستخدماً في ذلك ابشع وسائل القهر والغصب ضد المواطنين العرب في الأراضي المحتلة ، الى جانب تصعيد قوى الاستعمار العالمي بكل أشكاله بقيادة الولايات المتحدة الاميركية المعادي للامة العربية والمستقبل العربي من مؤامراتها في محاولات محمومة لاضعاف جبهتها - جبهة المواجهة مع العدو - وتفتيت وحدتها النضالية وسلب قدراتها على حسم المعركة عسكريا مع العدو لصالح الحق العربي المشروع » .

وقالت « الكاتب » : لا صلح ولا تفاوض مع اسرائيل ، ولا تنازل عن أي شبر من الأراضي العربية المحتلة ، ولا تفريط في القضية الفلسطينية او المساومة عليها ..

ان هذه الكلمات تجسد وتلخص موقف أمة ، وردها الحاسم على التحدي الامبريالي - الصهيوني ، وهي تعكس اماني هذه الأمة وطموحها .

وقالت في افتتاحيتها : ان اتحاد الجمهوريات العربية ليس مجرد تتويج لكفاح طويل ومرير خاضته الأمة العربية من اجل خلق نواة لوحدة عربية شاملة ، وإنما هو ضرورة عاجلة وملحة لتعبئة كل الطاقات والامكانيات لتطهير أجزاء من أراضي الوطن العربي لا يزال يحتلها عدو شرس تسنده قوى الاستعمار العالمي بزعامة اميركا .

● نهاية عصر الدولار ●

في مقال يحمل هذا العنوان تحدث الاستاذ نبيل زكي عن الاسباب الحقيقية للأزمة التي عانى منها الدولار في الفترة القريبة الماضية ، وتوصل الى ان انهيار الدولار يكمن في صميم النظام الرأسمالي لدولة تصر على أن تلعب دور

رجل البوليس في العالم ، إلا أن السبل تضيق أمامها مع نمو حركات التحرر وضياع الأسواق وموارد الثورة والطبيعة و « تمرد » الشركاء الأوروبيين بصورة لم يسبق لها مثيل على الوصاية الاميركية الطفيلية .

الطليعة : عدد ايلول « سبتمبر » ۱۹۷۱

● عبد الناصر والنظرية الثورية ●

تحدث الدكتور فؤاد مرسي في مقال رئيسي عن « عبد الناصر والنظرية الثورية » بمناسبة الثامن والعشرين من ايلول – يوم وفاته – فقال ان المفاهيم الثورية عند عبد الناصر قد تطورت على ثلاث مراحل ، الاولى مرحلة تشكيل الفكر وتبدأ بالاستيلاء على الحكم وتنتهي بتأميم القناة وهزيمة العدوان الثلاثي ، والثانية .. مرحلة تثبيت الاستقلال ، فلقد توصل عبد الناصر الى فهم دقيق لموضوع التنمية بوصفها الصيغة الحقة للتقدم من جميع نواحيه ، وهكذا طرحت قضية تثبيت الاستقلال على انها قضية كسب الاستقلال الاقتصادي وبناء اقتصاد وطني حديث . والثالثة .. مرحلة التحول الاجتماعي .. وفيها دخلت ثورة ۲۳ يوليو في صراع أخير لتصفية مراكز رأس المال الأجنبي ورأس المال المحلي الكبير وبذلك اكتسبت الثورة مضموناً اجتماعياً واضحاً .

يقول الدكتور فؤاد مرسي : « ان الثورة المصرية التي بدأت بمجرد ثورة وطنية قد تحولت الى ثورة وطنية ذات مضمون اجتماعي » بفضل نظرة عبد الناصر الى جميع القضايا نظرة يغلب عليها الاتجاه الاجتماعي .

● لطفي الخولي .. يكتب ●

بعد غياب لفترة .. عاد الاستاذ لطفي الخولي الى رئاسة تحرير الطليعة

وكتب افتتاحية هذا العدد فجعل عنوانها « ليس بالألم وحده يعيش الانسان العربي » فتحدث عن الخلل الخطير الذي كشفت عنه الاحداث الدامية الأخيرة التي حدثت في وطننا العربي :

.. في بناء وحدة قوانا الوطنية التقدمية .

وقال ان الخلل كامن في اربعة تناقضات رئيسية :

التناقض الأول بين ما هو « معلن » عن وحدة القوى الوطنية والتقدمية في البلد العربي الواحد وبين ماهو « كائن فعلاً » من تمزق وبعثرة وتفتت

والتناقض الثاني بين « التصريحات الرسمية» الصادرة من السلطات المختلفة في الدول العربية حول قومية المعركة ووحدة كل البلاد العربية في مواجهة الخطر الصهيوني ـ الامبريالي ، وبين « الافعال » المحطمة لكل وحدة عمل ضد العدو ولو في أدنى الدرجات .

والتناقض الثالث بين « الوعي » بدرس الهزيمة الخاص بضرورة احترام انسانية الانسان العربي، كي تكون مشاركته عميقة وخلاقة في المعركة،وليست مشاركة المتفرج ، وبين « استمرار عمليات الانتهاك » للانسان ومصادرة حقوقه وارتخاص حياته .

والتناقض الرابع بين « السعي » الى جذب اكبر عدد من الحلفاء الى صفوفنا وبين « قيام البعض بحملة معادية » ضد اقوى وأخلص الحلفاء جميعاً وهو الاتحاد السوفيتي .

ويقول الاستاذ الخولي: « الواجب الملح امامنا هو المواجهة الصريحة لهذه التناقضات الأربعة وتكثيف الجهود لحلها في اطار اهداف ومصالح الثورة العربية بآفاقها التحررية والاشتراكية » .

الفكر المعاصر : عدد ايلول « سبتمبر » ١٩٧١

● « أزمة العقل »

أصدرت « الفكر المعاصر » هذا العدد تحت شعار « أزمة العقل » وحشدت له عدداً من الكتاب والمقالات والبحوث .

ويقول الدكتور فؤاد زكريا في بحثه « أزمة واحدة أم أزمتان » : « أود أن ابين بوضوح قاطع أن أزمة العقل في مجتمعنا تعني شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عنها في المجتمعات الغربية ، ولا جدال في ان المقارنة بين مظاهر هذه الأزمة في نوعي المجتمع هذين يمكن أن تلقي ضوءاً ساطعاً على المشكلة بأكملها » .

ويحلل الدكتور زكريا معنى الأزمة ومعنى العقل ويصل الى أن ظهور أزمة العقل الغربي هو الرغبة في إعطاء العقل مزيداً من الحرية ، أي رفض القديم وخلق الجديد . أما العقل في الشرق فيمر بأزمة ليس لها من سبب سوى الرغبة في تبديد حرية العقل وتضييق الخناق عليه ، فالعقل يعاني من اتجاهات تريد تعطيله او الغاءه ، زاعمة انها تفعل ذلك لحساب سلطة دينية تعرف كل شيء أو لحساب سلطة سياسية قادرة على أن تدبر للناس أمورهم وعلى أن تفكر بدلاً منهم وحين يستمر تعطيل العقل زمناً طويلاً ، يعتاد الناس الغاء عقولهم ولا يجدون غرابة في أن تطلب إليهم اليوم ان يتخذوا موقفاً مناقضاً لما كان يطلب إليهم بالأمس ، بل ان الاعتداء على قانون التناقض ذاته لايعود أمراً مستغرباً ، وحين يقترن هذا الصدأ العقلي بعامل الخوف من التفكير الحر فان العقول تفقد القدرة على ممارسة فاعليتها حتى عندما تزول الأسباب التي تؤدي الى الخوف . فالفارق بين الازمتين هو الفارق بين عقل يسعى دوماً الى توسيع نطاق حريته ،

وبالتالي احكام سيطرته على العالم ، وعقل تكبله الأغلال ويشغله الكفاح من أجل تحقيق الحد الأدنى من مطالبه الضرورية .

المجلة : عدد ايلول « سبتمبر » ١٩٧١

● الأدب الفيتنامي المناضل ●

في « المجلة » مقال قيم عن « الادب الفيتنامي المناضل » بقلم محمد فرح .

يستعرض الكاتب تطور الأدب الفيتنامي منذ احتل الفرنسيون الهند الصينية وارتباطه بالمقاومة ارتباطاً عضوياً وثيقاً ، وكيف كان وما يزال انعكاساً وتعبيراً عنها .

ومما جاء في المقال ان موضوعات الأدباء من قصص أو روايات خلال حرب التحرير قد انحصرت في التعبير عن الجهد الانساني الخارق الذي يبذله الشعب الفيتنامي من اجل الحصول على استقلاله وحريته .

ويؤكد الاستاذ فرح على أن نموذج البطل في الأدب الفيتنامي الحديث هو نموذج شعبي في الدرجة الأولى ، لايخرج عن العامل في مصنعه والفلاح الذي يسفح عرقه غزيراً ليروي أرضه ، والجندي الذي يتذكر قصص البطولة التي شهدها وشارك فيها .

الهلال : عدد ايلول « سبتمبر » ١٩٧١

● أدباء من اليهود ●

كتب الاستاذ محمود شرقاوي عرضاً لبعض الأدباء والشعراء اليهود في الجاهلية والاسلام ، وسمى اسماء واستشهد بشواهد أدبية ، وخلص من هذا البحث الجديد إلى أن « السماحة واليسر » اللذين لقيها اليهود في بلادنا العربية الاسلامية

على مدى تاريخها وتاريخهم ، كانا يدلان على عدم وجود تعصب ديني او مذهبي لدى المسلمين والعرب .

الآداب : عدد ايلول « سبتمبر » ١٩٧١

● لقاء مع تيتو ●

من اللقاءات التي تدخل في تاريخ الأدب .. اللقاءات التي يكتبها أديب كبير عن زعيم عالمي . وألبرتو مورافيا .. بملاحظة دقيقة ، وانتباه ذكي يصف لقاءه مع تيتو وصفاً جميلاً في عدة صفحات ترجمتها الآداب ، ونقلت الحوار الذي دار بين الزعيم الكبير والأديب الشهيد .

ومن أبرز ماقاله تيتو جواباً على سؤال لمورافيا حول القضية الفلسطينية :

إن حلاً لمشكلة الشرق الأوسط هو صعب لأن الوضع هو في حد ذاته مضطرب ، وقد زاد من اضطرابه اتساع الصراع في المجال الدولي ، وقضية انه لايوجد اتفاق بين الفلسطينيين انفسهم ، على أية حال فإن أي حل لابد وأن ينص على انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي المحتلة خلال حرب الأيام الستة .

المؤتمر العربي الاول للفنون الجميلة

تلبية للرغبة الجماعية التي اعرب عنها الفنانون التشكيليون العرب في مختلف أقطارهم لكي يتلاقوا ويتناقشوا في القضايا التي ترتبط بفنهم وبصلاتهم في المجتمع العربي في تطوره ، وحرصا على اقامة اتحاد عربي للفنانين التشكيليين في مختلف الاقطار العربية ، فان نقابة الفنون الجميلة في الجمهورية العربية السورية قررت عقد المؤتمر العربي الاول للفنون الجميلة في ربوع دمشق في الفترة الواقعة من ٦ - ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ . وستشترك في المؤتمر وفود تمثل المنظمات الفنية في ميادين التصوير الزيتي - النحت - الحفر - الفنون الزخرفية - الخزف .

سيدرس المؤتمر مقترحات حفظ حقوق الفنان ووضع الهيكل للقاء العملي بين الفنانين العرب ، وطرح مشروع اتحاد الفنانين على شكل ميثاق يتضمن الامور التنظيمية للاتحاد ، وتعريف بالفنان العربي من حيث التنظيم المهني الذي يمثل قيما فنية معينة .

وسيبحث المؤتمر وقائع الفنون التشكيلية في كل قطر عربي ، وموقع الفنون التشكيلية العربية من حضارة القرن العشرين ومن الحضارة العربية المعاصرة ، ودور الفنون الجميلة في معركة الامة العربية ، وحقوق الفنان العربي والتزاماته .

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

اصدرت مؤسسة الدراسات الفلسطينية - حديثاً - نشرة خاصة نصف شهرية باللغة العربية تعنى بالشؤون الاسرائيلية والصهيونية ، وموجهة لذوي الاختصاص والمسؤولية . تهدف هذه النشرة الى نشر الحقائق الموضوعية والاخبار المستقاة من المصادر العبرية .

وستقوم المؤسسة - بالتعاون مع جامعة الكويت - باصدار مجلة الدراسات الفلسطينية باللغة الانكليزية ابتداء من اول تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ اصداراً دورياً كل اربعة اشهر . ستتوجه هذه المجلة الى جمهور قراء عالمي ، وسيشترك في الكتابة فيها بالاضافة الى الكتاب العرب أخصائيون اجانب في سائر الحقول .

وتتركز موضوعات المجلة على تطور الصراع العربي الاسرائيلي والشؤون الفلسطينية عامة من النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية .

وغاية هذه المؤسسة - التي انشئت في بيروت عام ١٩٦٣ - البحث العلمي حول مختلف نواحي حياة الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية بعيداً عن أي نشاط سياسي او ارتباط حكومي أو انتماء حزبي . وتصدر منشورات في عدة سلاسل :

١ - سلسلة الدراسات : تعالج موضوعات ذات اهمية خاصة .

٢ - سلسلة الطبعات المجددة : تصدر باللغة الانكليزية ، يعاد فيها نشر كتب نادرة لم توزع على نطاق واسع بسبب الضغوط الصهيونية .

٣ ـ سلسلة الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية : تعالج القضية الفلسطينية في المجالات العربية والدولية والاسرائيلية سنة فسنة .

٤ ـ سلسلة المقالات المجموعة : لكتاب عالميين من غير العرب .

٥ ـ سلسلة الوثائق الأساسية : في نواح معينة من القضية الفلسطينية .

٦ ـ سلسلة الوثائق السنوية لقضية فلسطين في الأمم المتحدة : جميع الوثائق.

٧ـ سلسلة الوثائق العامة : تركيز على ما قبل ١٩٤٨ .

٨ ـ سلسلة الوثائق الفلسطينية الدولية : باللغة الانكليزية .

٩ ـ سلسلة الوثائق الفلسطينية العربية السنوية : النصوص الصادرة عن الجهات الرسمية العربية .

١٠ ـ الابحاث الميدانية : وهي مذكرات وأبحاث تتناول في معظمها معاملة اسرائيل للمدنيين العرب المخالفة للمواثيق والأعراف الدولية . وتتضمن هذه الأبحاث إفادات شخصية عن التعذيب وبيانات وإحصاءات بالبيوت المهدومة والقتل الجماعي .



يجري سحب الاصدار العادي الثامن بتاريخ ٥ تشرين الأول ١٩٧١